جون ميلتون

عودة الفردوس

ترجمة : د. محمد عناني

عودة الفردوس

كلمة
KALIMA

الدار المصرية اللبنانية



عودة الفردوس

ملحمة عودة الفردوس هي الملحمة الثانية التي يتابع فيها الشاعر الإنجليزي العظيم "جون ميلتون" ما بدأه في الفردوس المفقود، فنحن نترك آدم وحواء على ظهر الأرض بعد طردهما من الفردوس في آخر تلك الملحمة، وقد أدركا فداحة المعصية التي ارتكباها، وأدركا أن سبيل التكفير عنها يتمثل في طاعة الله عز وجلّ، ويستلزم الانصياع لما أمر به وتجنب مانهى عنه، ولكن إبليس اللعين وأقرانه يتابعون غواية ذرية آدم وحواء، وينجحون في خداع الكثير من هذه الذرية بمتع الدنيا ولذائذها، حتى يعم الفساد ويستشري.

ويرى الله أن الوقت قد حان لهدايتهم والتكفير عن ذنوبهم، حتى يتحقق لهم الخلاص ويعودوا إلى الفردوس أو يعود الفردوس إليهم في آخر الزمان، عن طريق المسيح "عليه السلام".

ويلتزم الشاعر التزامًا كاملاً بالكتاب المقدس ،متبعًا ماجاء في إنجيل لوقا 4/1-3 وإن كان يتبع إنجيل متى في أن يجعل محاولات الإغواء الثلاثة تقع بعد صوم المسيح أربعين يومًا كاملة. والتزام الشاعر بهذا فرض على المترجم الالتزام بما جاء في الكتاب المقدس، وَنُشْدانَ الدقة المتناهية التي تقتضيها ترجمة النصوص الدينية وإن لم ينتقص ذلك من إشراق العربية وجزالتها في وضوح وبساطة.

كما قدم المترجم للنص بمقدمة وافية تضم خلاصة آراء النقاد الكبار، وذَيَّل الترجمة بحواش ضافية تشرح ماخفي من إشارات تاريخية وجغرافية ودينية، فخرج العمل متكاملاً مُيَسَّرًا للقارىء العربي المعاصر.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





الدار المصرية اللبنانية



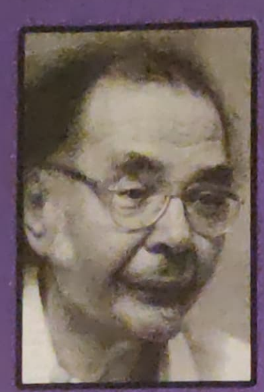
المـؤلف:

جـون ميلتون



أعظم شعراء الملاحم في الأدب الإنجليزي، عاش في القرن السابع عشر (1608-1674) عصر العلم والتطورات السياسية الهائلة التي أثرت فيه، وكتب الكثير من الأشعار الطويلة والقصيرة، ثم رأى أن أعظم إنجاز أن يتناول الدين موضوعًا في ملحمة تتبع تقاليد الملاحم الكلاسيكية. وكان من دعاة الحرية ومعارضة الحجر على أي رأي مهما كان، حتى يتيح للفكر أن يتجدد ويتطور، وهو مايفعله في كتابه "أريو باجتيكا" الذي ترجم لأول مرة وأرفق بالكتاب الحالي، كما كان مناضلاً ضد الطغيان الملكي في عصره وداعيًا للديمقراطية الحقة، وهو الذي عاش في ظل نشأة الحكومة الجمهورية الإنجليزية (لأول وآخر مرة) ثم آلمه سقوطها، وتعرض المقدمة سيرة موجزة له.

المترجم:
د. محمد عناني



هو الدكتور محمد عناني. ولد عام 1939. أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة، والأديب والناقد، له خمسة دواوين شعرية، وثماني عشرة مسرحية، وأصدر من الكتب نحو 75 كتابًا مابين مؤلف ومترجم، من بينها خمس عشرة مسرحية لشيكسبير، ترجمها شعرًا ونثرًا وفقًا للأصل، وتتضمن كل منها مقدمة وافية وحواشيَ ضافية. وله عدة كتب من أهمها كتابه " المصطلحات الأدبية الحديثة" (1996) الذي يعدّ مرجعًا أساسيًا في النقد الأدبي، كما أن له مجموعة قيّمة من الكتب في فن الترجمة الحديثة أحدثها "نظرية الترجمة الحديثة " (2003).

حاز وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام (1985)، كما انتخب عام (1996) خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة. وحاز أيضًا على جائزة الدولة للتفوق في الأدب عام (1999)، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب عام (2002).

عودة الفردوس

د. محمد عناني

عودة الفردوس

تأليف : جون ميلتون

الطبعة الأولى : 1430هـ ــ 2009 م

حقوق الطبع محفوظة كلمة www.kalima.ae

ص .ب 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة

هاتف 26314468 971 + فاكس 26314462 971 +

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + ــ ص.ب 2022

info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 3786 / 2009

ISBN : 977 - 427 - 472 - 5

هذه الترجمة العربية لكتاب : Paradise Regained

جون ميلتون

عودة الفردوس

ترجمة

د. محمد عناني







المحتويات





التصدير

هذه قصيدة من نوع أدبي فريد في الأدب الإنجليزي والعالمي، وهو الملحمة التي تتخذ من الدين موضوعًا لها، وأنا أحاول في المقدمة إلقاء الضوء على هذه الملحمة تحديدًا، مهتديًا بآراء النقاد المتخصصين، كما حاولت في الترجمة الالتزام بدقة متناهية بالأصل من حيث المعنى والمبني، في حدود قدرة اللغة العربية على محاكاة أبنية الإنجليزية، بل وإنجليزية القرن السابع عشر عند ميلتون دون غيره، ولذلك لم ألجأ إلى النظم في الترجمة، فالنظم يقوم على تغيير التراكيب وللتراكيب عند ميلتون أهمية قد تفوق إيقاع النظم، كما أبين في المقدمة.

ولما كان الشاعر يقتبس كثيرًا من الكتاب المقدس فقد كنت أعمل دائمًا بالرجوع إلى الأصل المقتبس منه، وأهتدي بترجمة المتخصصين في النسخة الحديثة التي أهدتني إياها الأستاذة نيرمين فوزي من كتاب الحياة، الصادرة عام 1988 (والطبعة التي عندي ظهرت عام 2003) كما أثبت في الحواشي الآيات التي اقتبسها ميلتون منه بنصوصها الكاملة، إلى جانب الاهتداء بالشروح الأخرى فيما أهدته إليّ الأستاذة المذكورة من كتب في هذا الموضوع.

وتشتمل الحواشي، إلى جانب ذلك، على شروح للإشارات الكلاسيكية الواردة في نص ميلتون وتفسير لكل ما قد يستعصي فهمه من عبارات أو إحالات، وربما توسعت أحيانًا فذكرت آراء لبعض النقاد، ابتغاء إلقاء المزيد من الضوء على هذه القصيدة الفريدة. وأنا أشير في المقدمة إلى السطور بذكر رقم الكتاب أولاً متبوعًا برقم السطر، مثلما أفعل في الحواشي. وأما الأرقام الموضوعة أمام السطور فتشير إلى ترقيم السطور في الطبعة الإنجليزية.

ولا أستطيع أن أختتم هذا التصدير دون تقديم الشكر الجزيل لصديقي العلامة ماهر شفيق فريد على قراءته النص بعناية ولفت انتباهي إلى ما فاتني، فأنا له مدين بكل امتنان، مثلما أعرب عن امتناني للأستاذة نيرمين فوزي وإلى غيرها ممن مَدَّ إليّ يد العون بصُوَرٍ أو أُصُولٍ لكتبٍ ودراسات اهتديت بها في كتابة المقدمة واستجلاء حقيقة ما أنا بصدده.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما حاولته.

د. محمد عناني

القاهرة مايو 2008





المقدمة

تورد هيلين داربشير في كتابها الروايات الأولى «السيرة حياة ميلتون» *(1932)* رواية إدوارد فيليبس الذي كتب في مذكراته يقول: «إن الشاعر بدأ كتابة عودة الفردوس وانتهى منها وطبعها بعد نشر الملحمة الأخرى (أي الفردوس المفقود التي نُشرت عام *1667*) ولم يستغرق ذلك كله إلا زمنًا قصيرًا نسبيًا إذا أخذنا في اعتبارنا ما تتميز به من سمو ورفعة، ولكن الناس كانوا يرون، بصفة عامة، أنها أقل امتيازًا من الأخرى، ولو أن ميلتون لم يكن ليطيق صبرًا على سماع مثل هذا القول من أحد». وعلى أية حال فنحن نعلم مما رواه المؤرخون أن ميلتون سَجَّل عودة الفردوس في أواخر عام *1670* لدى شركة المكتبات (التي توازي الشهر العقاري عندنا، وكانت تتولى إلى جانب ذلك مهمة «الرقابة» على المطبوعات)، وأن القصيدة نشرت عام *1671*.

ولن أتعرض في هذه المقدمة للنوع الأدبي الذي تنتمي إليْهِ هذه القصيدة وهو الملحمة، ولا لحياة الشاعر أو العصر الذي كتبت فيه، اكتفاء بما أقوله في مقدمتي للفردوس المفقود، ولكننى سألقي الضوء على جوانبها الفنية من حيث كونها قصيدة تعالج موضوعًا دينيًا في قالب ملحمي يتضمن بعض الخصائص الدرامية، مع محاولة لتبيان صعوبة نقل خصائص أسلوبها إلى العربية، مستعينًا بعلم الأسلوب الحديث (والقديم) وأعتمد في ذلك كله على عدد محدود من الكتب والدراسات الحديثة وأهمها كتاب أ. م. پوپ وعنوانه عودة الفردوس: التقاليد والقصيدة (*1947*) وكتاب ب. ك. لوولسكي وعنوان كتابها ملحمة ميلتون الموجزة (*1966*).

وتقدم لنا پوپ فحصًا دقيقًا للتقاليد الأدبية لتصوير محاولة إغواء/ اختبار المسيح الواردة في العهد الجديد، منذ أيام كتابة هذا العهد الجديد نفسه، راصدة أهم أوجه التماثل والاختلاف بين معالجة ميلتون لذلك الموضوع ومعالجات من سبقوه. وتقول إن ميلتون يختلف عن معظم علماء اللاهوت والفنانين في العصور الوسطى وعصر النهضة في أنه يتبع ما جاء في إنجيل لوقا *3-1/4* لا ما جاء في إنجيل مَتَّى *1 - 11* حيث تتبادل المحاولتان الثانية والثالثة مكانيهما، وإن كان يتبع إنجيل متى في أن جعل المحاولات الثلاث تقع بعد صوم المسيح أربعين يومًا، فإنجيل لوقا يقول: «أربعين يومًا وإبليسُ يجربه (أي يختبره)» *(2/4)*. وكان الكثير من شراح الكتاب المقدس يفترضون وقوع محاولات أخرى لم يذكرها مؤلفو الأناجيل، ولهذا يصور ميلتون محاولتين أخريين - هما مشهد الوليمة ومشهد العاصفة - وإن لم يَرِدْ لهما ذكر فيما سبق من روايات أو شروح.

وتقول پوپ: إن ميلتون كان يتفق مع عدد كبير من علماء اللاهوت على مر الزمن منذ أمبروز في أخذه بالرأي القائل بأن المسيح تعرض لهذه المحاولات باعتباره بشرًا وحسب، ومن ثم لم يستعن بالقوة الربانية لطرد الشيطان (انظر تأكيده لرجولة المسيح في عودة الفردوس *4/1، 36، 122، 150 - 167* وهلم جرّا). ولكن ميلتون لا يصل إلى الصورة المتطرفة من هذه النظرية التي تقول إن المسيح أُغْوِيَ؛ في باطنه، إذ يلتزم ميلتون بالنظرة «الصحيحة» في قَصْرِهِ الغوايةَ على الظاهر. وتضيف پوپ: إن ميلتون يختلف قطعًا عن غالبية الشراح والمفسرين في رفضه الإقرار بأن المسيح كان لديه سبق المعرفة بمحاولات إغوائه/ اختباره، (وإن كان قد سبقه پاريوس إلى القول بهذا) ورفضه الإقرار بأنه كان يستطيع التحكم في شهيته (انظر عودة الفردوس *290/1 - 293، 245/2 - 259*).



ومن الجوانب التقليدية في ميلتون معادلته بين سقوط الإنسان ومحاولات إغواء/ اختبار المسيح، فلقد كان من الشائع منذ الأيام الأولى لآباء الكنيسة القول بأن الخطايا الثلاث التي رفض المسيح اقترافها (النَّهم والتَّفَاخُر والبُخْل) هي التي اقترفها آدم، وأنها تضم في أطوائها جميع الخطايا الأخرى (انظر *154/1 - 155، 161 - 162*، و *132/2 - 143*). والتجديدُ الذي يأتي به ميلتون جَعْلُهُ الإغواء بارتكاب جميع هذه الخطايا يقع في اليوم الثاني من أيام الإغواء/ الاختبار (انظر الحاشيتين على *337/2 - 365* و*3/ 25–30*). وتضيف پوپ: إن ميلتون أراد تحقيق أغراض درامية ومفاجأة القارئ بأن حَوَّلَ مشهد الوقوف على القمة من الإغواء بالتفاخر إلى اختبار مهلك يرمي إلى اكتشاف حقيقة هوية المسيح. وأما العاصفة التي يقدمها ميلتون قبل ذلك المشهد فيمكن اعتبارها اختبارًا عن طريق العنف، ومن ثم فإنها، حسبما يشير إبليس إلى ذلك (*4/477-483*) تنذر بالاختبار بالشدائد والآلام (ولكن انظر الحاشية علي *464/4 - 483*).

ويقول كيري محرر طبعة لونجمان المشروحة للقصيدة (*1968*)، وهي التي اعتمدت عليها في الترجمة، إن عددًا من علماء اللاهوت البروتستانتيين لم يكونوا يقبلون ما شاع في العصور الوسطى وعصر النهضة من أن الغرض من إغواء إبليس للمسيح ينحصر في محاولة معرفة هويته، وكانوا يقولون إن إبليس لم يكن لديه أدنى شك في أن الرجل الذي يغويه هو المسيح. ويختلف النقاد المحدثون حول موقف ميلتون؛ إذ إن پوپ و لوولسكي تقولان إن ميلتون يقصد تصوير الحيرة والبلبلة اللتين أصابتا إبليس إزاء تفسير معنى التعبير الذي سمعه وهو صابن «ابن الله» (*4/517 - 520*) ولكنَّ دُونْ كاميرون أَلِنْ يقول في كتابه الرؤية المتناغمة : دراسات في شعر ميلتون، *1954*، إن إبليس يتظاهر بالحيرة والتخبط وحسب، مستشهدًا بالسطر *356/1* والسطر *475/4-477* (وإن كان يمكن اعتبار ما يقوله إبليس حيلة من حيله لا أكثر) والسطر

525/4 (ولكن انظر 536/535/4). ويقول ألن إن إبليس يبقى على شكه الوهمي «لأسباب دبلوماسية» (ص 120-121)، وأما الشك الحقيقي الذي يكمن في ذهنه فهو التشكك في قدرته على الإفساد، ويضيف إن دافعه هو الخوف (انظر 66/1، 94-95، 195/4)، وهو سرعان ما يناقض ما يقوله عن كونه قد تجاوز الخوف (206/3) بما يقوله في 220/3، كما إن خوفه الذي يتحول إلى فزع يدفعه في رأي ألن إلى العنف في مشهد العاصفة ومشهد القمة، على الرغم من تأكيده لأتباعه أنه لن يستخدم القوة (97/1).

ويؤكد أرنولد ستاين في كتابه المعرفة البطولية (1957) ما يؤكده ألن عن أوجه قصور إبليس، قائلاً: إننا إذا قارنًا صورته هنا بصورته في الفردوس المفقود اتضح لنا مدى تضاؤل هذا الخصم قوةً وذكاءً، مؤكدا تقلص طاقته على الفهم (انظر الحاشية علي 337/2-365) وإلا لكان حديث المسيح إليْهِ في 473/2-480 كافيًا لإقناعه بعدم جدوى الإغواء بتقديم مُلْكِ ممالك الأرض إليْهِ، ولكن إبليس قد أعماه ولعه الشديد بالسلطان، ما دامت جميع مغوياته، حتى الغواية بالعلم والمعرفة، تتخذ صورة الإغراء بتحقيق القوة والوصول للسلطان. ولكن ستاين يتفق مع پوب في أن أحد أهداف إبليس هو اكتشاف هوية المسيح.

نحن إذن أمام قصيدة ذات جذور تاريخية في كتابات الأدباء، لكنها تستمد مادتها أو موضوعها من الكتاب المقدس مباشرة، مهما يكن من دين صاحبها إلى من سبقوه، ومهما يكن اتفاقه أو اختلافه معهم، فهو يستكمل بها ما بدأه في الفردوس المفقود، فإذا أردنا الاقتراب منها بوصفها قصيدة وحسب، وجدناها تثير عدة مشكلات يمكننا التغلب على معظمها إذا ابتعدنا عن التصنيف المدرسي وقبلنا ما تتفرد به وخصوصًا أنها تتخذ كما يرى مؤلفها نفسه «شكل الملحمة. . . التي نجد نموذجًا موجزًا لها



في سفر أيوب (بالكتاب المقدس)» (مبررات حكم الكنيسة، طبعة ييل 183/1). وتوافق الشاعر في هذا الحكم الباحثة لوولسكي في كتابها المشار إليْهِ آنفًا ومن ثَم فهي تعارض بشدة وحزم رأي الأستاذ تليارد في كتابه ميلتون (1933) الذي يزعم أن «عودة الفردوس ليست ملحمة... بل ولا تحاول أن تصبح ملحمة... ويجب ألَّا يُحكم عليها بأي نوع من معايير الملحمة» (ص 316).

وتقيم لوولسكي حججًا يصعب دحضها على أن القصيدة ملحمية، فتبدأ باستعراض تاريخ اعتبار سفر أيوب ملحمةً منذ الأيام الأولى لآباء الكنيسة وحتى القرن السابع عشر، وتكتشف أن التقاليد التي سادت هذه العصور جميعًا كانت تركز على الإصحاحين أو الفصلين الأولين من هذا السفر، وتَضِنُّ بالحديث عن الحوارات التالية لهما، بحيث اتجه الرأي إلى أن عناصر القصة الرئيسية تكاد تنحصر في المجلسين اللذين عُقِدا في السماء والمحن التي ابتلى إبليسُ بها أيوبَ، ومن ثم تقول: إن هذه تشكل الأساس الذي اختاره ميلتون لبناء عودة الفردوس، وتنتهي من ذلك إلى أن ميلتون كتب ملحمته الموجزة استنادًا إلى «النموذج الأيوبي». كما تقوم الباحثة باستعراض مستفيض للنوع الأدبي المتميز الذي تسميه الملحمة الموجزة القائمة على الكتاب المقدس، وبذلك فهي تتوسع في ما حاوله ب. أ. كورت في كتابه ميلتون والبطولة المسيحية (بيركلي 1959) من إقامة وشائج الصلة بين المثل العليا البطولية في عودة الفردوس وبين ما تزخر به القصائد الإنجليزية المعاصرة المبنية على الكتاب المقدس. وتكتشف الباحثة في هذا الاستعراض المستفيض أيضًا أن الملامح الرئيسية لعودة الفردوس، مثل وصف مجلس الشياطين وجماعات الملائكة، ومثل السرد الجغرافي لممالك الأرض والوصف التفصيلي لبعض المدن، ومثل الإشارة

لقراءة البطل وتعليمه، ومثل اختيار موضوع «سلمى» من العهد الجديد (مع الإيحاء أنه أفضل كثيرًا من الموضوعات البطولية القديمة) ومثل تقسيم الملحمة إلى أربعة كتب، كانت جميعًا من الملامح الشائعة لهذا النوع الأدبي في عصر سيادة ما تسميه «المذهب الإنساني» (الهومانيزم)، وتستدرك قائلة: إن ميلتون كان يختلف عن معظم الكتاب المنتمين إلى هذا المذهب ممن عالجوا هذا النوع الأدبي في أنه لم يستعن بأسماء الأشياء المرتبطة بالخوارق في عالم الوثنية بعد صبغها بصبغة مسيحية، مثل جبل أوليمبوس أو بحيرة أڤيرنوس وغيرهما، كما إنه ينجح في إضفاء صفات نفسية على شخصية المسيح حتى يثير اهتمام القارئ، وهي الصفات التي كانت تقتصر من قبل على أبطال العهد القديم الذين كانوا يخضعون لما يخضع له الإنسان من شكوك ونقاط ضعف، على نحو ما نجده في شخصية چوديث عند دو بارتاس، وشخصية داود عند روبرت آيليت. وتقول لوولسكي إن النموذج السابق الوحيد للملحمة الموجزة القائمة بنائيًا على سفر أيوب دون اتخاذ أيوب بطلاً لها ملحمةُ يوسف التي كتبها روبرت آيليت عام *1623*، وإن النموذج السابق الوحيد للملحمة الموجزة التي تتخذ من الغواية/ الاختبار موضوعًا لها ملحمةُ **الخطبة الأولى** التي كتبها چاكوبوس ستراسبورغوس في *1565*.

وأما الحدث الدرامي في **عودة الفردوس** فيقوم في رأي لوولسكي على محورين أو قضيتين أساسيتين هما هوية المسيح ورسالته، قائلة: إن المسيح وإبليس يجهلان إلى حد ما في البداية كُلاًّ من هاتين، وإن كليهما لا يفهم أن المسيح هو الذي كان قد طرد إبليس من الجنة (وفق ما ورد في **الفردوس المفقود**) وأن المسيح لا يحيط إلا بجانب من «الأدوار» التي سينهض بها مستقبلاً (*1/221-254، 223، 264-267*). وتثبت أن المسيح يقاوم كل إغراء وينجح في كل اختبار بقدرته البشرية المحدودة على الفهم، وبعد



ذلك يصبح جديرًا بتلقي إيضاح خاص من الله (مثل 355/1-356. 460-464، و381/2-384، و4/ 146-153. 561) وهي الإيضاحات الموحي بها والتي تمكنه من الفهم الرَّبانيِّ الكامل لكل جانب من جوانب ذاته تعرض للاختبار. وكان الشراح البروتستانتيون، وميلتون نفسه في كتابه عن العقيدة المسيحية، يرون أن رسالة المسيح تتكون من ثلاثة عناصر:

أولها؛ أن يصبح نبيًا (أو مُعَلِّمًا، وهو الدور الذي نجد أنماطًا أو نماذج تمثله في العهد القديم مثل موسى وإِيليًا)، وأن يصبح مَلِكًا (على كنيسته ومملكته السماوية، والنماذج الممثلة له تضم داود وسليمان)، وأن يصبح كاهنًا (من خلال تضحياته وشفاعته لبني البشر، والنماذج الممثلة له تضم أيوب ومَلْكِي صَادِقَ).

وتقول لوولسكي: إن عودة الفردوس تعالج كل جانب من هذه الجوانب على الترتيب، وإنها من ثم أساسية في هيكل بنائها، ولا تقل أهمية عنها الأنماط الرمزية في التراث الديني والأدبي؛ إذ إن المسيح يضع تعريفه لذاته من خلال علاقته بأنماط سابقة سواء أكانت في العهد القديم أم في الآداب الكلاسيكية (مثل سقراط وهرقل وغيرهما) كما إن إبليس يحاول إقناع المسيح بموازاة نفسه مع نماذج أدنى منه مثل النبوءات في 393/1-396 ومثل بلعام في 490/1-492، وهما من الأنماط الدنيا لرسالة الأنبياء، ومثل الإسكندر الأكبر، وقيصر، وپومپي، وسكيپو في 31/3-42، ومثل داود في 152/3- 153، -370 375، وفي 106/4-108 ومكابيوس في 165/3، وهي أنماط دنيا لوظيفة الملك.

وينتقد چون كيري بعض تطبيقات هذا المدخل لدى الباحثة رغم ما يبديه من إعجابٍ بمذهب دراسة رموز الكتاب المقدس والرموز الكلاسيكية في عودة الفردوس، قائلاً إنه يزيد من قوة وتأثير الكثير من أقوال المسيح وإبليس، وأما ما ينتقده فهو أنها

قد تنزع إلى المغالاة أحيانًا، فهي تصر مثلاً على وجود إشارة مضمرة إلى هرقل في مشهد الإغراء بالولائم والثراء، رغم عدم ذكره صراحة، وذلك كما تقول لأن بعض جوانب المشهد تشبه بعض ملامح قصة «الاختيار» الذي تعرض له هرقل في مأثورات زينوفون 2/1/21-33، وينتقد تفسيرها لبناء عودة الفردوس وهو الذي تقول فيه إنه يقوم علي الأدوار الثلاثة المنوطة بالمسيح، قائلاً إنه يعني وجود خَلَلٍ في القصيدة؛ لأن ميلتون يناقش دَوْرَيْ النبي والملك مناقشة تفصيلية ويضرب لهما الأمثال، ولكنه لا يتعرض لدور الكاهن إلا بإيجاز في مشهد العاصفة/ البرج، وهو مشهد قصير، ويقول بعض الشراح إن اختيار ميلتون ذلك المكان؛ أي المعبد أمر بالغ الأهمية، مؤكدين أن اختيار المسيح فوق قمة البرج يرمز لما سوف يحققه من هزيمة الخطيئة والانتصار على الموت عند صلبه (انظر الحاشية علي السطر 549/4).

ويقول أرنولد ستاين في كتابه المعرفة البطولية المشار إليْهِ إن عودة الفردوس تمثل محاولة لتقديم تعريف درامي «للمعرفة البطولية»، شارحًا ذلك بقوله: إن القصيدة تعرض لنا، جنبًا إلى جنب، النظريتين المتنافستين للمعرفة في القرن السابع عشر، فإبليس «التجريبي» أو الإمبيريقي، يدعو إلى المعرفة المستقاة من الخارج؛ أي من الانطباعات الحسية التي تُستخدم في اكتساب السلطان، والمسيح «المثالي» أو الأفلاطوني، يمثل الفكر الخالص أو المحض غير المتاح لحواس الجسد. ويقول: إن نزاعه مع إبليس تمهيد لتحقيق التعالي فعليًا في هذه الدنيا من خلال التوحيد بين المعرفة الحدسية وبين الانضباط الفكري والأخلاقي. ويختلف ج. م. ستيدمان مع هذا الرأي قائلاً: إن ستاين يؤكد «المعرفة» عند المسيح على حساب ما يبديه من رفض مغويات الدنيا التي يعرضها إبليس، ومنهج الرفض المنتظم يمثل في نظر ستيدمان عنصرًا بنائيًا مهمًا من عناصر محاولة الإغواء الثانية، موضحًا أن «السُّلَّم الأخلاقي» لدرجات الصعود من حياة اللذة الحسية إلى حياة الأخلاق



الفاضلة ثم حياة التأمل، سُلَّمٌ لا ترجع أصوله في نظره إلى أفلاطون بل إلى أرسطو، خصوصًا في كتابه أخلاق نيكوماخوس (ونيكوماخوس هو ابن أرسطو، والكتاب ينسب إليْهِ إما لأنه أهداه إليْهِ وإما لأن هذا الابن هو الذي تولى تحرير الكتاب).

والواقع أن القول بتأثير أرسطو في عودة الفردوس قديم، قال به أولاً ميريت هيوز عام *1938* معارضًا النقاد، وعلى رأسهم تليارد، الذين كانوا يقولون: إن تصوير المسيح في هذه القصيدة مستوحى من صورة الشاعر لنفسه باعتباره شيخًا مهزومًا كان يحاول، كما يقول تليارد: «التأثير في فعال الناس بدلاً من تنوير أذهانهم» (ص *309*) إذ يصر هيوز على وجود عنصر إيجابي في صورة المسيح عند ميلتون، قائلاً: إن الشخصية التي يصورها ثمرة للجهود التي بذلها النقاد والشعراء في عصر النهضة لخلق بطل مثالي خالص في الشعر البطولي من خلال إضفاء الطابع المسيحي على المثل الأعلى الأرسطي للشهامة وكرم النفس، وهي الجهود التي بلغت ذروتها في رسم شخصية آرثر في قصيدة ملكة الجان، وهي التي قد ترجع أصولها إلى بعض الأعمال النقدية مثل ما كتبه تاسو الإيطالي عن الشعر البطولي، وعن فضيلة البطولة، وكان من آثارها أن جاءت بالبطل المتأمل في مقابل البطل الفاعل؛ أي أَحَلَّتْ الفكر مَحَلَّ العمل، والبطل المتأمل يعني الإنسان القادر على أن يهجر متع الدنيا ويتحكم بالعقل في مشاعره وآلامه.

وقد أعرب فرانك كيرمود عن موافقته على رأي هيوز، وإن أنكر أن المثل البطولي الأعلى عند ميلتون، وهو الذي يجسده تصويره للمسيح في هذه القصيدة، مستقى من كتابات تاسو، مؤكدًا أن ميلتون كان يعمل جاهدًا منذ أن كتب قصيدته آلام المسيح على رسم ملامح هذه الصورة، ويقول في تلك القصيدة صراحة: إن المسيح «أكمل الأبطال قاطبة». ويقول كيرمود: إن الانسحاب من الحياة العامة وتفضيل التأمل على

مدى سنوات طويلة، وهو ما يؤكده ميلتون في تصويره للمسيح في عودة الفردوس يشبه ما حدث للشاعر في هورتون، وما كان يمتدحه عند كرومويل، وإن الصبر الذي يبديه على تحمل المكاره والمكابدة في جَلَدٍ يشبه ما تعرض له ميلتون وأعرب عنه في السونيتة التي يسميها عن كفِّ البصر، وما تمتدحه الجوقة في كفاح شمشون (1287-1296). وإن نبذه للطموح والمجد هو ما أثنى عليه ميلتون في فيرفاكس وما دعا إليْهِ فيبوس (رب الشمس) في ليسيداس (76-84)، ويضيف كيرمود إن نبذ المجد ذو أهمية كبرى ومن هذه الزاوية يبدو لنا أن سكيپو هو النموذج الذي استند إليْهِ ميلتون (199/2-200، 34-35، 101، 103).

ولكن لوولسكي تنكر (242-249) أن صورة المسيح في عودة الفردوس مبنية على نموذج كلاسيكي واحد، بل تقيم الحجة على أنها تتكون من عناصر ومبادئ يشترك فيها الرواقيون، والأكاديميون، والمشاءون، خصوصًا في تعريف معنى السيطرة المثالية على النفس (457/2-483) مؤكدة أن بعض مواقفه غير أرسطية على الإطلاق، وتقول إنها تتفق مع الباحثة أيريني صمويل (69-95) في أن صورة المسيح صورة من يقيم أوثق العلائق بين ذاته وبين «الفيلسوف الأفلاطوني-السقراطي».

والعلاقة بين صورة المسيح في عودة الفردوس وبين الشاعر الذي أبدعها علاقة ما فتئت تثير الجدل بين المؤيدين والمعارضين، فالباحثة م. م. ماهود في كتابها عن الشعر والمذهب الإنساني (1950، 225-237) تقدم «قراءة» للقصيدة على ضوء ما تسميه شوق الشاعر الذي كاد يبلغ درجة «الهاجس المرضي» إلى الشهرة وذيوع الصيت في الماضي، ومن ثم تؤكد تأكيدًا شديدًا ما يبديه المسيح من نبذ لأمجاد الدنيا الزائلة، قائلة إن: «الموضوع الرئيسي لعودة الفردوس ينحصر في الاتجاه الجديد الذي سارت فيه «آخر مرحلة للوهن الذي أصاب ذهنًا نبيلاً»». بل إن تليارد عاد بعد ما يربو على عشرين عامًا من إصدار كتابه عن ميلتون إلى قبول «التعديل» الذي أدخله



هيوز على مدخله المعتمد على القراءة البيوغرافية للقصيدة، وأما أدق الدراسات التي عالجت عودة الفردوس باعتبارها سيرة ذاتية مُقَنَّعَةً فهي الدراسة التي نشرها و. منزيس في هذا الصدد عام *1948* وتقع في *33* صفحة، ويوضح فيها أن ميلتون يمثل لنفسه بالمسيح وإبليس معًا في عودة الفردوس، وينتهي منها إلى القول بأن المناظرة القائمة في القصيدة «ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالخبرة الشخصية للشاعر، وبحياته الماضية، وظروفه الواقعية». والنظرية التي يعرضها منزيس جذابة في ظاهرها بسبب الشواهد التي ينتقيها بعناية للتدليل على صحة حجته، ولكنه أحيانًا، كما ألمح بعض النقاد، يبدي بعض السذاجة، وهي التي نشهدها في تفسيره لنبذ المعارف الكلاسيكية بقوله: إن «ميلتون كان يجد تذكر اللغة اليونانية عملاً يزداد صعوبة يومًا بعد يوم».

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن هذه القصيدة فإن الدراسات التي تتناول بناءها تعتبر ضئيلة من حيث عددها وما أتت به من ثمار، باستثناء دراسة لوولسكي المذكورة آنفًا. وسوف ألخص أهمها في هذا الحيز الضيق، فأما ديك تايلور فيعرض في دراسة مطولة (*43* صفحة) رأيه الذي يقول فيه إن جميع القصائد الرئيسية التي كتبها ميلتون تشترك في نسق بنائي واحد يقوم على البدء باختبار البطل وإثبات صلابته، ويتلوه نَشْرُ الله لرحمته وغُفْرانه، مصطحبًا ذلك بحدث خارق. وأما أ. هـ. ساكتون فيشير في دراسة قصيرة (*12* صفحة) إلى كثرة حالات التوازي والتضاد في عودة الفردوس، فمشهد التعميد على سبيل المثال يُقَدِّمُ إلينا في ثلاث صور متضادة (*1/181-32*، *70-85*، *273-286*) والهجمات المتكررة وتكرار صدها في محاولات الإغواء في اليوم الثاني تمثل بناءً يقوم على التضاد؛ وذلك لأن إجابات المسيح ليست سلبية بل تتضمن عناصر إيجابية؛ إذ تقدم قيم الحق التي تعارض قيم الباطل (مثلما نرى في *2/ 466-467*، و*3/ 60-62*، *400-402*، و*4/143*، *145*، *288-292*). ويذهب أ. س. پ.

وودهاوس في دراسة قصيرة (15 صفحة) إلى القول بوجود التناظر في وضع محاولة الإغواء الرئيسية بين المحاولتين الصغريين، ويحاول ـ دون نجاح كبير ـ أن يثبت أن تقسيم الملحمة إلى أربعة كتب لا تلتزم بتقسيم «الحدث» إلى محاولات إغراء، حيلةٌ من جانب الشاعر لتفادي ظهور التناظر في صورة آلية أو مصطنعة، ويقول روي دانيلز في كتاب له عن ميلتون والنمطية وفن الباروك (1963، ص 194-208): إن هذه «العمارة» الشعرية التي تتكون من ثلاثة عناصر يسيطر عليها عنصر رئيسي يشبه هيكل بناء الكنيسة الباروكية. وكتب بعده ل. أ. أورانج دراسة قصيرة يقول فيها: إن استراتيجية الإغواء التي يتبعها إبليس تقوم على مفهوم الكبائر أو الخطايا المهلكات السبع، وإن هذه تمثل أساس بناء عودة الفردوس، ولكن معالجته لهذه الفكرة تنقصها الأدلة المُقْنِعَةُ، مثلما تفتقر إليْهِا حجة ل. س. كوكس الذي يقول إن بناء القصيدة يعتمد اعتمادًا كبيرًا على تطوير الصور الشعرية المتكررة للأطعمة والألفاظ، وتنتهي أيريني صمويل في كتابها أفلاطون وميلتون (ص 70-71) إلى أن ترتيب محاولات الإغراء يمثل عكس ترتيب سُلَّم أنواع البشر والحكومات، وهي خمسة أنواع، وفق ما يُنْسب إلى سقراط في جمهورية أفلاطون.

وعلى أية حال فنستطيع دون أن نضرب في هذه الشعاب أن نلمح خَطّا صاعدًا، في بناء عودة الفردوس ينتظم كل المحاولات التي ينتهي كل منها بذروة مستقلة، وعندما يصل هذا الخط تدريجيّا إلى ذروته في مشهد البرج، نجد أنه المقابل الذي يقيم التوازن مع البناء الثلاثي الأساسي. وأعتقد أن هذا يمثل الهيكل الرئيسي للبناء الذي يحفظ للقصيدة وحدتها، حتى ولو لم يتفق النقاد على أن البناء ثلاثي؛ إذ تقول لوولسكي مثلاً إنه لما كان الإغواء بالممالك يتناول أولاً موضوعات خاصة ثم ينتقل إلى موضوعات عامة (ويحدث الانتقال في السطر 152/3) فلنا أن نعتبر أن القصيدة تقوم على تقسيمات بنائية أربعة لا ثلاثة؛ أي أن نتبين انقسام مشهد

الإغواء المذكور إلى قسمين، ثم تستدرك (ص *330-331*) قائلة: إن لنا أيضًا أن نجد لونًا آخر من التضاد البنائي داخل هذا المشهد نفسه، وهو التضاد الذي يسيطر على هذا التقسيم الثنائي، وهو تضاد ينبع من تنظيم المشهد وفقًا للسُّلَّم الثُّلاثي التقليدي للقيم الأخلاقية، وهي التي تسميها الباحثة (قيم اللذائذ الحسية (المَتمثلة في الوليمة) وقيم العمل وبذل الجهد (الثروة والمجد وپارثيا وروما) وأخيرًا قيمة التأمل (أي العلم والمعرفة).

ولا يفوتني أن أذكر في سياق البناء ما ذكره هـ. هـ. پيتيت من اعتماد هيكل البناء على إطار رمزي مضمر أو دفين؛ إذ يقول في دراسة جد قصيرة (*4* صفحات) إنه لما كان المسيح يمثل آدم الثاني فإن مريم تمثل «حواء الثانية» (**الفردوس المفقود** *5/ 387*، و*10/ 183*) ومن ثم فإن التركيز هنا يَنْصَبُّ على تواضعها، وإيمانها وطاعتها في الكتاب الثاني من **عودة الفردوس**، بحيث يقيم التضاد مع كبرياء حواء الرعناء، وشكوكها وعصيانها في الكتاب التاسع من **الفردوس المفقود**، ويقول إن آخر سطر في الفردوس المفقود يترك آدم وحواء معًا، وهو ما يفعله السطر الأخير من عودة الفردوس إزاء آدم الثاني وحواء الثانية.

وقد تعرض تصوير ميلتون لموقف المسيح وأسلوب أحاديثه لبعض الانتقادات، وكان نورثروپ فراي «أفصح» الذين لخصوا هذه الانتقادات في دراسة مهمة على قصرها (*11* صفحة) يبدأ فيها بتعديد أوجه الشبه بين **عودة الفردوس** ومسرحية **كوموس** ثم يقول: إن صورة المسيح هنا تشترك مع صورة الليدي في **كوموس** في صفات مُنَفِّرَةٍ وتزيد من تنفير القارئ منها على امتداد العمل الأدبي «فهو راضٍ خائر العزم في مشهد الغواية بمُلْك پارثيا، ومتكبر إلى حد غير إنساني في مشهد الغواية بمُلْك روما، وبَرِمٌ غضوبٌ في دعوته إلى الجهد في مشهد الغواية بمُلْك أثينا». ويضيف قائلاً: «إن كوموس وإبليس يثيران اهتمامنا الدرامي بسبب

ما يبديانه من طاقة كبيرة وسعة حيلة، وأما اللذان يتعرضان للإغواء فهما ساكنان أو لا يتأثران على الإطلاق، ولا يقومان إلا بوظيفة درامية فظة تقتصر على قولهما «لا» . ومع ذلك، وبطبيعة الحال، فإن العلاقة الحقيقية تناقض العلاقة الظاهرة، فالمصدر الحقيقي للحياة والحرية والطاقة يكمن في الشخصية الباردة في مركز العمل» . ويورد كيرمود في كتابه «ميلتون الحي» (ص *124-137*) تعليق ناقد يدعى و. و. روبسون على ألفاظ المسيح الواضحة وغير الشعرية، وعلى القدر الأكبر من «الحضور» الذي تفصح عنه أحاديث إبليس. ويقول روبسون: إن التضاد بينهما أو الاختلاف مقصود؛ إذ كان ميلتون يقصد أن يجعل المسيح يصور المثل الكامل للفضيلة «المكفهرة» ، وهو ما يفسر إدانته للعامة (*50/3*) وللفلسفة اليونانية (*318-291/4*). وينتقد روبسون ذلك قائلاً: إن هذه الأحاديث وغيرها مما يرد على لسان هذه الشخصية تنم عن «أخطاءٍ» في الإحساس والتذوق، فإذا أضفنا إليْها النظم البارد الجاف الذي ينظمه المسيح في القصيدة، أدركنا فشل الشاعر في تجسيد تلك الشخصية، ويختتم روبسون دراسته قائلاً: إن ميلتون لم ينجح في الجمع بين الشخصية المقدسة والبطل الملحمي.

وقد رد عليه ف. و. بيتسون (كيرمود *138-140*) بالدفاع عن أسلوب ميلتون العاطل من الزخرفة والمحسنات في معظم أبيات عودة الفردوس وخصوصًا ما يسميه «فن التكثيف والاقتضاب» في الأبيات *497/1 - 502*، قائلاً: إن الرونق الأسلوبي لهذه الأبيات «ينشأ من سياقها، بل هو من وظائف هذا السياق» . ويقول ج. أ. ويلكيز في تفسيره لهذه الانتقادات: إن أحاديث المسيح تبدو غير جذابة، بل منفرة للنقاد؛ لأنها تصدر عن مواقف أخلاقية ثابتة، مُوَضِّحًا أن «الخطبة التي تُلقى من موقف أخلاقي معين» كانت تمثل أحد الأعراف السائدة لدى صغار الشعراء الدينيين في عصر النهضة، فنحن نجدها عند دو بارتاس (چوديث) وعند درايتون



(طوفان نوح) . ولكننا حتى إذا افترضنا أن ميلتون قد تأثر بتلك «الأعراف» - حسبما يسميها ويلكيز - فإن ذلك لا يلغي التساؤل عن إمكان الدفاع عن أسلوب «الخطب» الناجمة عن ذلك. وأما ما يزعمه لويس مارتز في كتابه الفردوس الباطن (*1964*) (ص *171-211*) من أن أسلوب معظم أبيات عودة الفردوس هو الأسلوب الذي كتب به ڤيرچيل أشعاره «الفِلاحية» ، بعد أن حوله ميلتون من النهج التعليمي إلى التأمل الديني، فهو زعم يصعب أخذه مأخذ الجد بسبب عدم تقديم الباحث لما يؤكد صحة زعمه من تحليلات ومقارنات، بل إن لوولسكي قد ردت على هذا الزعم ضمنًا (ص *38*) حين بينت أن الشكل الإيضاحي للقصائد الفِلاحية وإنكارها الصريح للنغمة البطولية والموضوع البطولي (*3/1-48*) يناقض تمامًا ما ترمي إليْه عودة الفردوس من شكل سردي/ درامي وأهداف بطولية.

واتجه بعض النقاد إلى التأويل، قائلين: إن عودة الفردوس قصة رمزية عن الكنيسة وأحوالها في ذلك العصر، وعلى رأسهم هاوارد شولتز في كتابه «ميلتون والمعرفة المحرمة»، ويقول فيه: إن إدانة المسيح للفلسفة الوثنية تمثل إسهامًا في الجدل الجاري آنذاك حول اكتساب الكهنة للعلم وتفاخرهم بمعارف العصر، وإن حجته هنا تشبه ما يقول به في مقال له بعنوان أرجح وسيلة لاستبعاد الأُجَرَاء من الكنيسة (*1659*) من أن المعارف (أو التعليم بلغة عصرنا الحالي) ليست جوهرية للكاهن، وعليه أن يقتصر على تعلم اللغات الأجنبية والكتاب المقدس. ويفسر شولتز مشهد الإغواء بالوليمة قائلاً إنه يمثل اقتران السلطة الكنسية بسلطة مدنية، وهو ما كان ميلتون يمقته مقتًا شديدًا. وقد عارض آخرون هذا «التضييق» من نطاق دلالة القصيدة، مثل أ. ل. ماريلا الذي يصر على أن عودة الفردوس «مستلهمة في المقام الأول من الاهتمام الدينامي بالمشكلات «العملية للعالم الدنيوي» ، وأنها تزكي الوعي الحاد والذي يجب ألَّا يفتر أبدًا بالدلالة الروحية للإنسان باعتبار ذلك سبيلاً لقهر تلك المشكلات.

والواقع أن ماريلا في هذا يعيد تأكيد ما قال هـ. ج. هانفورد منذ زمن بعيد، ولكن محاولات ربط دلالة القصيدة بسياق الجدل الديني في القرن السابع عشر لم تتوقف بعد شولتز؛ إذ عاد م. فيكسلر في كتابه ميلتون وممالك الله إلى اعتبار عودة الفردوس رَدَّ فِعْلٍ أو رفضًا لأسوأ تجاوزات المادية البيوريتانية التي تزعم الإحاطة بالغيب، قائلاً: إن الروح التي يعالج أو يتناول بها إبليس النُّبُوءاتِ المِسْيَانِيَّة (أي انتظار مجيء المسيح) هي روح المسيانية اليهودية في نظر أبناء ذلك العصر، على عكس التفسير المسيحي الصحيح لرموز الكتاب المقدس، وينتهي من ذلك إلى أن يقول: إن لنا أن نفهم من هذا أنه كان يمثل رأي ميلتون فيما شهده القرن السابع عشر من إحياء للمسيانية اليهودية (أي الدنيوية) وفي مدى تدخلها في الحياة الإنجليزية المعاصرة.

وأخيرًا نصادف أصحاب المنهج التاريخي من النقاد، ويمثلهم ناقدان هما ر. د. ميلر، ود. دوب، وهو المنهج الذي يؤكد السياق التاريخي لمحاولات الإغواء؛ إذ يقول هؤلاء النقاد: إن هذه المغويات كانت تشكل مشكلات حقيقية ليسوع التاريخي، ويقول دوب مثلاً: إن الباحثين المحدثين في الكتاب المقدس يميلون إلى الاعتقاد بأن القضية المطروحة؛ أي هل كان ينبغي ليسوع أن يتولي الزعامة السياسية ويحارب روما، أم كان الأحرى به اختيار القوة في ضعفه، قضية أدَّت دورًا بالغ الأهمية في حياته. ويقول دوب: إن المغويات كانت ذاتية أو داخلية، والرواية الواردة في الكتاب المقدس، بما فيها من شيطان حقيقي، مجرد صورة رمزية. ويرى ميلر أن ميلتون عندما قبل هذه الرواية بصورتها السطحية أساء فهم محاولات الغواية، قائلاً إنه يعرضها في عودة الفردوس لا باعتبارها سلسلة سيكولوچية، بل باعتبارها حيلاً نافعة من جانب شيطان واسع الحيلة، وينتهي من ذلك إلى أن يقول: وهكذا «تبدو شتى محاولات إبليس غَيْر مترابطة، وأساليبُ الانتقال مِنْ محاولةٍ إلى محاولةِ أساليبُ «عرجاء»، ووَحْدَةُ القصيدةِ مفقودة».



وأما الأسلوب الذي كتب به ميلتون قصيدته فيكاد النقاد يجمعون على أنه أقل ثراءً وتنوعًا من أسلوب الفردوس المفقود، ولكنه كما يقول كيري يزداد على امتداد القصيدة اقتضابًا، ويقل تعقيده، وكثيرًا ما يكتسب المزيد من «الرهافة» . ولما كانت سمات الأسلوب أقل جوانب النص ظهورًا في الترجمة، فقد حاولت جاهدًا أن أحافظ على ما يمكن نقله إلى العربية منها دون الإخلال بمصطلح العربية الفصيح. وأولى هذه السمات أن الجملة تميل الآن إلى القصر، ويقول بعض من أحصوا أطوال الجمل بالكمبيوتر إن متوسط الطول لا يزيد على سبعة أسطر، وأنا أَحْرِصُ على نقل الحيل الأسلوبية من حيث بناء الجملة وتركيبها ما دام ذلك يتسنى في الصياغة، وأما حين تطول الجملة إلى ما لا تحتمله العربية فقد كنتُ أُضْطَرُّ إلى التقطيع على نحو ما أفعل في أطول جملتين في القصيدة وهما الجملة التي يستهل بها إبليس المناظرة في جهنم (*1/44-69*) وتأملات المسيح في أحداث طفولته وصباه (*1/201-226*).

ولكن البناء النحوي للجملة يختلف عن بناء وحدات المعنى، فوحدة المعنى المعتادة لا تكاد تخرج في غير الشعر عن وحدة الجملة، ولكنها في الشعر قد تخرج عنها لتتضمن جملتين أو ثلاثًا من خلال بعض الروابط الأسلوبية المألوفة، وهذا ما نجده مثلاً في البانورامات التي يرسمها إبليس لروما وأثينا، وهنا توسلت بالحيلة البلاغية التي يتوسل بها ميلتون في مواضع كثيرة وهي في المصطلح الكلاسيكي «أنافورا» (*anaphora*) أي تكرار الصدارة، بمعنى تكرار الابتداء بالكلمة نفسها في كل جزء من أجزاء الجملة الطويلة أو في الجمل المتوالية، وقد تتحول هذه الحيلة إلى ما يسمى «ترادوكتيو» (*traductio*) أي التكرار المذكور مع تعديل اللفظِ صياغةً أو تعديل معناه، ففي وصف إبليس لمشهد روما (*4/61-79*) نصادف جملة طويلة بالإنجليزية تتكدس فيها الأوصاف التي يتلو بعضها بعضًا، خاضعة للفعلين اللذين

يأتيان في السطر الاستهلالي «ثم نقل بصرك منها... وانظر» (61/4) ومن المحال أن تستقيم جملة بالعربية تمتد إلى 19 سطرًا دون روابط داخلية من قبيل الأنافورا، وهكذا يبدأ السطر 65 بالفعل «وأبصر»، والسطر 77 بعبارة «ثم نقل بصرك» يتلوه في 78 الفعل «تشهد». ويصدق هذا نفسه على وصف أثينا الذي يمثل مشهد ذروة الإغراء (260-236/4) إذ تبدأ الجملة بالفعل «فلتلق نظرة أخرى» وفي السطر الذي يليه «وانظر»، بالإنجليزية، وطولها 25 سطرًا، فَكَرَّرْتُ «انظر» في السطر 244، والسطر 247، وتتلوها جملة موازية في البناء لم أكرر فيها الفعل إطلاقًا استنادًا إلى تأثير ما سبق حتى السطر 280.

ولكن هذه حالات قليلة بل ونادرة، فإن عودة الفردوس تتميز بإيجاز وحدات المعنى، وهو ما تتسم به ردود المسيح بصفة خاصة، وانظر مثلاً رَدَّ المسيح على إبليس في 441-421/1 حيث تجد ثماني جمل متوالية، تسرع كما يقول النقاد بالحدث الذهني الذي يدور في القصيدة. والأمثلة كثيرة: 335/1 - 336، 354/1، 496/1، 318-317/2، 322-321، 171/4، 485/4 - 486. وهذا واضح في الترجمة وضوحه في الأصل الإنجليزي، كما لاحظ محللو الأشكال الصرفية للألفاظ وأطوالها اختلاف عودة الفردوس عن الفردوس المفقود في نسبة تواتر الألفاظ ذات المقطع الواحد هنا، وكثرة الألفاظ ذات الأصل اليوناني أو اللاتيني في الفردوس المفقود وهو الذي دفع القدماء إلى القول بتأثر ميلتون في تلك الملحمة الكبرى باللغتين الكلاسيكيتين، وكأنما كانت تهمةً بشعةً هَبَّ فاولر لتفنيدها والدفاع عما أسماه الطابع الإنجليزي الصرف لِلُغَةِ ميلتون فيها، ولكننا نشهد على أية حال كثرة ورود السطور التي تتكون كل كلمة فيها من مقطع واحد، وأغلبها ذات أصول أنجلوسكسونية، ولن أضيع الوقت في تعدادها بل أكتفي بمثال واحد راعني وهو مشهد استدرار إبليس لرحمة المسيح، حيث نجد غلبة الألفاظ ذات المقطع الواحد، في 204/3، 206.

209، 220، 223، 224، وكلها أسطر لا تتضمن كلمة مركبة من أكثر من مقطع واحد، وعندما صادفتها سألت نفسي إن كان ميلتون يرمي إلى تسريع الإيقاع في هذا الموقف الدرامي أم ينفي عن نفسه تهمة التأثر باللاتينية؟ وأظنني بعد ثلاثين عامًا من معالجة أسلوب ميلتون أميل إلى قبول الإجابة الأولى.

ويلاحظ النقاد أن الأحاديث المنسوبة إلى إبليس وإلى المسيح بل والتي يقولها الراوي (المؤلف) لا تخلو من التلاعب بالألفاظ بشتى أشكاله، وأشهرها التورية اللفظية التي من المحال ترجمتها من لغة إلى لغة، وأحمد الله على أن أمثلتها قليلة بل ونادرة، على عكس ما يجده المترجم في كوميديات شيكسبير مثلاً، فالتوريات هنا لا تزيد على ثلاث أو أربع (وفقًا لاختلاف قراءات الشراح) وأما الغموض المتعمد، وهو ما أُفَصِّلُ القول فيه في الحواشي، على قلة حالاته، فيعتمد على ما يسميه كريستوفر ريكس «الإيحاءات التي تثري المعنى»، وقد وجدت أن أفضل وسيلة للحفاظ على ذلك الالتزام بالحرفية حتى من حيث البناء اللغوي داخل العبارات كل على حدة وفيما بينها أيضًا، وساعدتني في ذلك الترجمة المنثورة، ولو كنتُ اخْتَرْتُ النظم لغيرت في الأبنية الكثير وفق ما يمليه إيقاع النظم.

وسوف يلاحظ القارئ في نص ميلتون أهمية ما أشرت إليهِ من الأبنية اللغوية ودلالتها إذا عَنَّ له أن يقارن النص العربي بالترجمة، فأحيانًا ما يأتي ميلتون بكلمات تُعَدِّلُ من المعنى القائم في السطر أو تستكمله في أول السطر الذي يليه، فالجملة التي تبدأ في آخر السطر 323/1 ويستكملها ميلتون في السطر التالي تبدو كاملة في ذاتها «ما تجرأ فرد/ يومًا أن يعود من هذه الطريق إلا وسقط هنا» ولكن السطر التالي 325/1 يبدأ بكلمة تُعَدِّلُ المعنى، فإذا بالسقوط ليس سقوط المنهك مهدود القوى، بل سقوط الميت؛ إذ يبدأ بعبارة «جثة هامدة»، ويضاف إلى ذلك الكثير من الأمثلة

التي تقطع بأن للتراكيب عند ميلتون دلالاتها التي لا مناص من الحفاظ عليها في الترجمة لإخراج أكبر قدر ممكن من ظلال المعاني والمؤثرات البلاغية.

ويتجلى في الأسلوب ما يتسم به نص القصيدة من ندرة في الحركة الجسدية أو المادية، والطيران إلى قمة الجبل وذروة برج المعبد هما الاستثناءان البارزان، فالغالب أن الالتحام بين الخصمين التحام فكري تدور رحاه في الذهن، وتتكرر الإشارة إلى «ثبات» المسيح، والثبات الفكري أو النفسي يوحي ضمنًا، وفق ما يقوله كيري، بالثبات المادي، ويستعين ميلتون في ذلك بأسماء المفعول التي توحي في رأي هذا الناقد بتجميد الحركة، وأما اسم الفاعل، فإنه وإن كان أقل إيحاء بالثبات إلا أنه يحول الفعل السريع أو المفاجئ إلى فعل مستمر أو تدريجيٍّ، وأحيانًا ما يجتمع اسم الفاعل مع اسم المفعول لإحداث التوازن في العبارة الإنجليزية، وقد حاولت نقل التأثير المقصود من ذلك دون الالتزام بالصياغة النحوية المعادلة نظرًا لاختلاف مصطلح اللغتين عن بعضهما البعض.

ولكنني التزمت التزامًا دقيقًا بإحدى الخصائص الأخرى لأسلوب ميلتون في عودة الفردوس وهي الجمع بين صفتين أو اسمين أو فعلين بأحد حرفي العطف «و» و«أو»، وهو الذي يشيع كثيرًا في الكتاب الأول ولكنه يبرز أيضًا في الكتب التالية، خصوصًا في أحاديث إبليس. وهذه الخصيصة أبرز ما تكون عندما تقترب من الإطناب أو الحشو، مثل «هزيمته وقهره» (*6/1*) و«المُقَدَّرَةُ الثَّابِتَةُ» (*127/1*) و«الطرق أو السبل» (*322/1*)، ومثل «بلدة أو قرية» والأمثلة كثيرة. وأحيانًا ما يكون الجمع ثلاثيًا بين الصفات أو الأسماء أو الأفعال، وإن كانت هذه الظاهرة أقل وضوحًا من الجمع الثنائي، ومن أمثلتها «مغمورًا مطموسًا مجهولاً» (*25-24/1*) و«في الخير أو العدل أو الفضيلة» ومثل «القدوس الحكيم الطهور»، و«ذهبت إليْهِ وشاهدته واختبرته» (*131/2*) ومثل «أكواخ أو حظائر أغنام أو أبقار» (*288/2*) ومثل «الفضيلة والشجاعة والحكمة»



(431/2) ومثل «في المشاعر والرغبات والمخاوف» (467/2) والقائمة طويلة. وقد توحي كل من هاتين الحيلتين الأسلوبيتين ببطء الحركة أو اطمئنان المتحدث أو إطلاقه العنان للسانه للتعبير عما يجول بخاطره دون مراجعة، على نحو ما سوف نشهد بعد ما يربو على قرن كامل في شعر وليم وردزورث، الشاعر الرومانسي الأشهر، حين كان يؤلف ما يؤلفه في الهواء الطلق؛ أي كأنما يرتجله ارتجالاً، فخرج عدد كبير من قصائده ليمثل الصورة الصادقة لما دار في نفسه لحظة التأليف، ونعرف أنه كتب قصيدة كنيسة تنترن كلها، وهي التي يبلغ طولها *159* سطرًا، أثناء ذهابه من مدينة بريستول إلى لندن سيرًا على الأقدام، على مدى أربعة أيام، وأملاها على أخته عند وصوله فلم يغير كلمة واحدة، كما توحي قراءتنا لبعض أشعار أحمد شوقي، أمير الشعراء، بهذه الخصيصة، ويروي سكرتيره أنه كثيرًا ما كان يعود بعد نزهة على شاطئ النيل فيمليه القصيدة كاملة.

وميلتون، من الناحية الفنية الصرفة، أقرب إلى مذهب المحدثين من أهل المسرح، الذين يؤمنون بأن يكون الحديث مرآة صادقة لما يدور في النفس أو الذهن، بغض النظر عن إحكام الصوغ أو القصد في التعبير، والطريف أن نجد في عودة الفردوس أن الحوار حافل بالأشكال البلاغية الكلاسيكية المرتبطة بما يسميه بعض النقاد «التعبير الطبيعي». فإذا كان الشاعر يشير إلى «بلاغة الإقناع» (4/4) عند إبليس فإن أحاديث المسيح لا تقل في ما تحفل به من الأشكال البلاغية عن أحاديث إبليس، أو عن أحاديث ميلتون نفسه (الذي يروي القصة)، ولن تجد من يستخدم أشكال التكرار البلاغية المختلفة في عودة الفردوس بالحرية التي تستخدم بها في الفردوس المفقود أو في كفاح شمشون. فالفقرة الاستهلالية (7-1/1) تدين بترابطها الداخلي إلى أربعة من هذه الأشكال، وهي «ترادوكتيو»؛ أي التكرار مع التعديل، و«أنافورا»؛ أي تكرار الصدارة، و«أجنومينيشن» (*agnomination*)؛ أي التكرار مع

الزيادة، و«پلوسي» (*Ploce*)؛ أي التضفير بالتكرار. وهكذا نتابع هذه الحيل البلاغية في «يتغنى... عصيان رجل واحد... أتغنى... بني الإنسان كافة... طاعة رجل واحد... اختبار الغواية... المغوي». كما يأتي فيما بعد ببعض أشد الصور البلاغية انتظامًا في القصيدة، مثل السطور *12-9/2*، وهي التي تضم النموذج الساطع لما يسمى «أناديپلوسيس» (*anadiplosis*)؛ أي تماثل النهاية والبداية، والسطور *287/2-288* و*4/ 13*، و*4/ 565–571* التي تقوم على ما يسمى «إپاناليپسيس» (*epanalepsis*)؛ أي رد العجز على الصدر، وانظر كيف تسير الحركة الأسلوبية في هذه الأبيات «دَحْرِهِ... سُقُوطِهِ... وسَقَطَ... دَحْض... فَيَسْقُطَ... كي يُسْقِطَ» وأما «پلوسي» أو ما أسميته التضفير بالتكرار فهو أشد الأشكال البلاغية شيوعًا في عودة الفردوس، ويستخدمه الجميع بمن فيهم مريم (*233/1*، *238-239*). ويقول كيري إنها، مثل الحواريين، أشد اهتمامًا بالبلاغة من بليعال، الذي يتميز بأسلوبه الصريح ولا تزيد حيله البلاغية عن «أنافورا» متواضعة (*171-170/2*). وتتلو «الپلوسي» في عدد مرات استخدامها في النص صيغة «الترادوكتيو» التي تعتبر، مع «الپلوسي»، السلاح المعتاد في التراشق الفكري بين المسيح وإبليس. خذ مثلاً الأبيات *43/3-107* حيث يَرُدُّ المسيح على استخدام إبليس كلمة المجد ومشتقاتها خمس مرات في حديثه السابق بأن يستخدم المسيح هنا كلمة «المجد» أو «المجيد» إحدى عشرة مرة، ويتلوه إبليس باستخدامها هي ونقيضها ثماني مرات. ولا داعي للمزيد من الأمثلة على ذلك.

ويحاول إبليس استثارة المسيح بحيلة التصاعد البلاغي (*climax*) قائلاً: «وفعالك تتفق مع ألفاظك، وألفاظك/ تنطق بحقيقة مكنون قلبك السمح الكريم، وقلبك/ أفضل صورة وأكملها للخير والحكمة والبر» (*11-9/3*). فيرد المسيح عليه بمحاكاة ساخرة للحيلة البلاغية نفسها قائلاً: «لم تنجح في إقناعي بالسعي إلى



تحقيق الثروة/ لبناء إمبراطورية، أو السعي إلى بناء إمبراطورية/ في سبيل المجد. . . وهل المجد إلا الوهج الذي يشعه الصيت/ أي إطراء العامة، حتى لو كان إطراءً خالصًا على الدوام؟ وهل العامة إلا. . .» (*49-44/3*). وأما إذا أردنا التمييز بين بلاغة المسيح وبلاغة إبليس، إذا استطعنا التمييز بينهما على الإطلاق، فلنا أن نقول: إن المسيح يستخدم - في سبيل تحقيق غايات فكرية وابتغاءَ إقامةِ حجته - الأساليبَ البلاغيةَ نفسها التي يستخدمُها إبليسُ للتحريض أو للإثارة، والمثال على ذلك استخدام إبليس لتكرار النهاية (*epistrophe*) في إثارة المشاعر في *379-377/1*، واجتماع التضفير؛ أي «پلوسى» مع التكرار التعديلي («ترادوكتيو») والتوكيد اللفظى (*epizeuxis*) وهي الأساليب البلاغية التي تجعل من السطور *224-203/3* فقرة من أشد فقرات القصيدة التزامًا بالنمطية في كل عباراتها، وقارن هذين المثالين بالجملة الأولى التي يستهل بها المسيح رده على الإغواء بالعلم والمعرفة، وتمتد على سبعة أسطر (*292-286/4*) والتي قد تتضمن أكبر عدد من الأساليب البلاغية في أقل عدد من السطور؛ إذ نجد فيها مثالين على رد الإعجاز على الصدور (*epanalepsis*) في أربعة سطور فحسب (ولا نظير لهذا في القصيدة كلها).

وعندما يرسم إبليس صوره العريضة لأصقاع العالم ويتضاءل استعمال الحيل البلاغية البنائية؛ أي (القائمة على بناء الجملة) تكتسب القصيدة ثراءً من نوع جديد نفتقر إليْهِ في الأبيات الافتتاحية لكل كتاب من الكتب، وهو الثراء الذي ينبع إلى حد ما من شكل بلاغي آخر يسمى الكتالوج أو الحَشْد؛ إذ يقدم إبليس عددًا من الأسماء التي يحشدها حول كل محاولة من محاولات الإغراء والغواية الأخيرة (*347/2*، *360-361*؛ *293-270/3*، *321-316*؛ *79-70/4*، *257*، *259*، *271*)، ويقول الشراح: إن ميلتون قد اخترع، فيما يبدو، الاسم ميليسيچنيس للشاعر هوميروس (انظر الحاشية

على السطر 259/4) لمساعدة أثينا على التنافس مع روما فيما تزخر الأخيرة به من أسماء براقة. وأول نماذج هذا الحشد تقع في 20/2-24، ثم يتلوه نموذج آخر في 186/2-188 وهو الذي يتضمن حشد أسماء الحسناوات، وهو حشد يرمي إلى بث الروح في مجلس شياطين الجحيم، وتبين إجابات المسيح، كالعادة، قدرته على استعمال أسلحة إبليس نفسها وذلك باستغلال هذه الحيلة البلاغية لدحض دعاوي إبليس (446/2 و117/4-118) وحتى يثبت أن سعة المعرفة والخيال الخصب ليسا من مزايا الشيطان وحده.

وأما التشبيهات فلا تزخر القصيدة بها، بصفة عامة، وهي تزداد على امتداد القصيدة، وربما كان التشبيه الذي أتى به المسيح «مثل الطُفَيْليِّ المتمسح بسيده مَلَقًا (452/1) المثال الوحيد في الكتاب الأول، ويتلوه شجن الذكرى التي تراود بَلِيَّعَال عن نساءٍ «فائقات الحسن/ مثل السماء في الضحى» (155/2 - 156) ويكاد يكون التشبيه الوحيد في الكتاب الثاني، إذا استبعدنا عددًا من الصور المنسوجة على غرار رموز الكتاب المقدس، كقول إبليس: «ظل يبترد فيه/ ويتوسط بيننا كأنه سحابة صيف» (221/3-222) في الكتاب الثالث، وحين نصل إلى الكتاب الرابع يبدأ ثراء التشبيهات في تلوين النص، فإلى جانب التشبيه الملحمي في مستهل هذا الكتاب (10/4-20) وفي ذروته أيضًا (563/4-575) واستعمال المسيح للتشبيه بالدوحة والحجر، وهي صور من الكتاب المقدس، نجد الصورة التي يرسمها المسيح للمُنْكَبِّينَ على الكتب قائلاً إنهم «يجمعون التفاهات/ . . . مثلما يجمع الأطفال الحصى على شاطئ البحر» (328/4-330) ويعبر عن احتقاره لأصحاب البلاغة المصطنعة «من صفات بولغ في صوغها وحشدها/ مثل المساحيق والأصباغ الكثيفة على خد العاهرة» (343/4-344)، ونجد اعتراف إبليس بأن المسيح «مثل الصخرة الصلدة/ أو كالمحور الثابت راسخًا . . .» (533/4-534 وهي الصورة التي تسترجع تصوير المسيح



في صورة الصخرة في السطر 18/4)، ونجد صورة المعبد الخيالي «كالجبل/ المرمري الذي ترتفع فوقه قمم مستدقة ذهبية» (548-547/4) ونبوءة الملائكة بسقوط إبليس من السماء «مثل نجم الخريف/ أو البرق» (620-619/4). أضف إلى ذلك توسل ميلتون بحيلتين أسلوبيتين كلاسيكيتين هما «أسيندتون» (*asyndeton*)؛ أي الفصل بحذف حروف العطف، و«بوليسندتون» (*polysyndeton*)؛ أي الوصل البلاغي، وسوف أورد نموذجًا واحدًا للحيلة الأولى من الكتاب الأول وهي «طريدًا/ خاوي اللب زائغ النظرات لا يرثى له أحد» (413/1-414) والحيلتان يكثر ورودهما في الكتاب الثاني (81/2، 131، 422، 460، 464) ويبلغان أقصى حدودهما في الرابع (مثلاً 4/ 36–38، 386-388). وقد لا تظهر دلالة الحيلة الثانية بالإنجليزية عند ترجمتها إلى العربية، فنحن نستخدم حروف العطف المتوالية على أية حال بالعربية، ولكن حذفها جميعًا أو إيرادها جميعًا بالإنجليزية يعتبر من السمات البلاغية التي تساعد إما في تأكيد إيقاع معين (عند الحذف) وإما في الإيحاء بأن الفكرة غلابة أطاحت بالمألوف من طرائق القصد في التعبير (عند الوصل البلاغي).

ويلاحظ النقاد أن بناء القصيدة المتصاعد تساعد عليه عوامل أخرى في النسيج، وهو ما يتجلى أسلوبيّا فيما يسمى بالتجسيد البصري الخلاب؛ أي استخدام صور تفصيلية نابضة بالألوان والأشكال، وزيادة نسبة هذه الصور في النسيج على امتداد القصيدة وفقًا للتطور في البناء. وخير مثال على ذلك ازدياد اللمسات الواقعية في الصور التي يرسمها إبليس للمغويات - الوليمة، وجيش پارثيا، وروما وأثينا - بحيث نجد في تصوير الوليمة صورة تتناقض كل التناقض مع موقف التحدي وطلب تحويل الحجر إلى خبز في الفصل الأول (340/1 - 367). وإذا كانت صورة الوليمة تبدو «حقيقية» في الظاهر، فإن وصف ميلتون لها يوحي ببعدها عن عالم الحقيقة،

كما أن اختفاءها في لمحة خاطفة (403-402/2) والمكان الذي يوحي بعالم الخرافة «مسكن أرباب الغاب أو حوريات الغاب» (297/2) يساعدان على نقلها، في ذهن القارئ، إلى دنيا السراب والوهم، على الرغم من إصرار ميلتون على أنها ليست حُلمًا (337/2). ويذهب كيري إلى إظهار السخاء المبالغ فيه في الوصف قائلاً إنه من العوامل التي تسلبه انتماءه إلى الوجود الحقيقي: «حيوانات الطراد أو طيور الصيد/ وقد حُشِيَتْ في فطائر أو شُوِيَتْ أو «سُلِقَتْ»، «وكانت تسمع طوال الوقت ألحان أغانٍ شجية تعزفها/ الأوتار الرنانة أو النايات الساحرة»؛ إذ إن تكرار حرف «أو» يسمح لنا بأن نقرر ما نريد، وهكذا فبدلاً من رؤية صورة محددة نظل في شك إزاء ما كان يُرى ويُسمع في الواقع. ويضيف قائلاً إن الشمول التام يعود بنا إلى التعميم الذي يوحي باِسْم الجنس لا بأسماء أنواع محددة: «جميع أنواع الأسماك البحرية أو الساحلية/ من الَغدران أو الجداول ذات الخرير، ذوات الأصداف أو الزعانف» بحيث لا نستطيع أن نتصور نوعًا معينًا له صورة محددة كالبياض أو المحار ولكننا نتخيل صورة غائمة لجنس السمك وحسب، مثل الإشارة اللاحقة إلى «الفواكه والزهور». وقس على ذلك، في رأي كيري، التركيز على أسماء الأسماك، «ذوات الأسماء البديعة»، مع عدم ذكر هذه الأسماء في الوقت نفسه، وتحويل اهتمام القارئ من المائدة إلى أطلسه، «البحر الأسود، وخليج لوكرين وساحل إفريقيا»، ثم إلى الأساطير وأخيرًا إلى الرومانس، فهذه جميعًا حيلٌ أخرى يستخدمها ميلتون حتى يمنع المائدة من أن تتحوَّل إلى طعام يؤكل، في حين تشترك عبارات معينة مثل «وعلى مسافة أبعد»، و«ما تخيله الرواة»، و«ما روته الأساطير» في طمس أية حدود محددة للمشهد قبل أن يختفي آخر الأمر بفترة ما. بل إن الروائح، وهي التي كان يقال إنها مكمن قوة ميلتون الأعمى، تتناقض وتختلط، فأريج مطلع الربيع، «أوائل نفحات الشذا من ربة الأزهار»، تطغى عليها «العطور العربية» ذات العبير النفاذ. فإذا



اعترض معترض قائلاً: إن قاعدة اللياقة الملحمية تقضي بأن يصبح هذا الوصف كله نائيًا وعامًا، رُدَّ عليه بأن ذلك يعني تجاهل «الفطائر» اللائقة بالمطبخ، وهي - في رأي كيري - العنصر الوحيد من عناصر الوليمة الذي كان يمكن للمسيح أن يأكله.

وينطبق ما قيل هنا على المشاهد التالية التي يستدعيها أو يصورها إبليس، فالوصف المُفَصَّلُ لجيش پارثيا في الكتاب الثالث، على الرغم مما يتضمنه من التفاصيل المحددة «للأقواس الفولاذية» و«الدروع التي تكسو الجسم» و«الأفيال المدعمة بأبراج/ من الرماة» وهي التي ترسم صورة أدق من صورة المائدة السابقة، يظل إلى حد ما خارج مدى الرؤية المحددة بفضل بعض الحيل الصياغية السابقة التي لمحناها في النسيج؛ إذ إن ميلتون يعمد إلى الخلط هنا، على نحو ما فعل في حالة الروائح المذكورة، من خلال التناقض بين «كلهم فرسان» (*307/3*) وبين «لا تنقصه سحائب من جنود المشاة» (*327/3*) إلى جانب عدم التحديد بالإصْرار على تكرار الحرف «أو» في السطور *327/3* - *334*، ثم الخريطة الأولى (*316/3* - *321*) ثم الرومانسات (*343-337/3*) وهي التي تبتعد بتركيز العين على الجيش، مع إيحائها بجو من الروعة الغامضة والأبهة الغائمة. كما إن التفاصيل القليلة عن ملابس الجنود ودروعهم تقابلها تعميمات تمنع إظهار أي صورة دقيقة لتشكيلات الجيش «تشكيلات مربعة وكالإسفين ومثل الأهلة والأجنحة»، و«سحائب»، ولكنها تخرج بالوصف عن السياق الحربي المحدد. ويتعمد الشاعر إضفاء الغموض على بعض الأوصاف بحيل بلاغية كلاسيكية، فحينما يذكر الدروع التي تكسو الجسد، يستعمل ما يسمى العبارة الجامعة أو «زيوجما» (*zeugma*) في السطر «تكسوهم الدروع والكبرياء الحربية» (والأدق أن نصفها بأنها بروزيوجما (*prozeugma*) ما دام الفعل يسبق الفاعلين المختلفين نوعًا). وعبارة «أعداد لا تحصى» ترمي عَمْدًا إلى الحيلولة دون

أي تصور لأعداد الجيش، وعبارة «كان الميدان الذي انتشر فيه الحديد يشع بريقًا بُنّيَّ اللون» تكاد تطمس أية تفصيلات سابقة نجح القارئ في إدراكها بخيالها البصري، كما يصبح من العسير عليه إدراك حقيقة المعارك الحربية التي تدور رحاها في الوقت نفسه ولا تبدو متسقة أو تتفق مع المنطق. فما الذي يحدث للجيش البارثي؟ يقول إبليس إنه قد بدأ للتو يغادر مقره في ستيسيفون للزحف مسافة تبلغ ألفي كيلو متر تقريبًا حتى يصل إلى مقاطعة سوجديانا على الحدود، لملاقاة الإسقيثيين «المخربين» : فالجنود «ينطلقون» و«يتدفقون من أبواب المدينة» ، وهما التعبيران اللذان يؤيدان هذا الإحساس لدى القارئ. ولكننا بعد برهة يسيرة لا نراهم زاحفين بل «مصطفين في تشكيلاتهم القتالية» ومن خلفهم «من يطاردونهم» مشتبكين معهم، دون تحديد لهؤلاء المطاردين؛ أي إن القارئ عند بداية الوصف الجغرافي في *316/3* كان يشهد جيشًا خارجًا لتوه من مدينة موالية له، ولكنه عندما يترك ذلك الوصف الجغرافي يجد أمامه بعد ستة أسطر جيشًا مشتبكًا في موقعة حربية بتشكيلاته المعقدة (الغامضة) ثم إذا به يشهد كتائب الطلائع وقوافل معدات الجيش ومؤنه، وهي لا تزال تتقدم فيما يبدو مع صفوف الزاحفين للقتال.

وعلى النقيض من ذلك نجد أن البانوراما الرومانية (*85-27/4*) تقع في أماكن محددة، بل روعيت الدقة البالغة في رسم حدودها؛ إذ نبصر «سهلا آخر، سهلاً طويلاً وإن لم يكن عريضًا/ يطل على البحر جنوبًا، وتقع في الخلف شمالاً/ هضبة من التلال توازيه طولاً . . . ومن وسطها/ يتدفق نهر يقسمها قسمين». ولكن سرعة التصوير تتغير بسرعة إلى التعميم الشديد؛ إذ تبرز «الأروقة والمسارح والحمامات وقنوات المياه على القناطر/ والتماثيل وتذكارات الفوز وأقواس النصر/ والحدائق والخمائل» ، وهي التي تلغي تأثير الدقة المتوخاة في الاستهلال. ويوجه إبليس البصر إلى اثنين من المعالم المحددة كأنما ليعيد الدقة والتحديد إلى المشهد

قائلاً : سترى هناك مبنى الكابيتول» ، «وترى جبل پالاتين» ، وإن كانت الاستعارة «التشخيصية» المستخدمة في وصف الأول تمنع الشاعر من وصفه معماريّا ، والإشارات العامة إلى «الأبراج المدرجة وذات القمم المدببة المتلألئة» تضفي على الأخير جوّا عامّا من السحر والبهاء . وبعد ذلك تتفتت هذه الصورة القلقة في إشارات أسطورية مثل «منازل الأرباب» وخيالية مثل «الميكروسكوب الهوائي الذي أعدته» ، وتنتقل إلى المواد الأولية التي استخدمت في البناء مثل «خشب الأرز أو الرخام أو العاج أو الذهب» ، ثم تضيع آخر الأمر في الأوصاف الجغرافية الطريفة ، قبل أن نلمح أخيرًا «وجوهًا سمراء وعمامات بيضاء تكلل الرءوس» في الطرقات .

وأما الرؤية الأخيرة ، رؤية أثينا (*280-238/4*) ، فإنها على عدم مجاراتها الرؤى السابقة في البهاء تزيد عنها في الدقة والوضوح . ويستمر التحديد في كل جزء من أجزائها بانتظام «فلتلق نظرة أخرى . . . / إلى جهة الغرب ، أو إلى أي مكان أقرب في الجنوب الغربي ، وانظر / المدينة القائمة على ساحل بحر إيجه» ، «وانظر خميلة الزيتون في متنزه الأكاديمية» ، و«انظر هناك تلال هايميتس المكسوة بالزهر» ، و«هناك يتدفق ماء إليسوس» ، «وها هو متنزه ليسيوم ، والرواق الكبير ذو الرسوم الملونة» ، «سقراط وانظر حيث يقيم الرجل» . وعلى خلاف التناقض ما بين الروائح في الرؤيا الأولى ، نجد هنا اتساقًا وتآلفًا ما بين الأصوات الثلاثة في أثينا ، بحيث يؤدي التوافق النغمي إلى تعميق متعة المشاهد ، مثل طنين النحل على تلال هايميتس ، وهمسات النهر ، والبلبل الذي يغرد «بذبذبات ألحانه الثرية طيلة فصل الصيف» .

والانتقال من البعيد إلى القريب ، ومن الغائم إلى المحدد الملامح ، على امتداد الرؤى الأربعة ، يزيد من وضوح ما تراه العين وتسمعه الأذن في القصيدة ، وهو يجاري ، إلى حد ما ، اخضرار وجه الصحراء وتفتح زهرها ، ما بين الكتاب الأول

والكتاب الأخير، فلقد رأينا الصحراء أَوّلاً باعتبارها بلقعًا من «الظلال والصخور الدكناء» (194/1) و«الأحجار» (343/1)، «بريةً قاحلةً» (354/1)، ونراها أخيرًا «خضراء نَضِرةً» (435/4)، ونباتها وشجرها يتساقط منه القطر، والطيور تغرد «بين الخمائل والأزهار» (437/4)؛ أي إن جنة عدن «أنشئت في البرية القاحلة». ومع ذلك فإن تصوير البَرِّيَّةِ لا يفصل بينها فصلاً كاملاً وبين غيرها، فالمسيح في السطر 354/1 يصفها بأنها «قاحلة»، وكانت الكلمة إن وصفت بها الأرض في القرن السابع عشر تعني، وفقًا لما يقوله معجم أوكسفورد الكبير: «الأرض التي لا ينمو فيها النبات إلا قليلاً، أو لا ينمو على الإطلاق؛ الأرض غير الخصبة، أو السَّبِخَةُ، أو الجرداء». وعندما يعود ميلتون إلى استخدام هذه الصفة فإنه يطلقها على الصحراء الفارسية في السطر 264/3 مردفًا أنها «مجدبة لا نبع فيها ولا ماء». ويقول: إن المسافرين في الصحراء يموتون من «لذع الجوع والعطش» (325/1) والمسيح يقول إنه يعاني فيها من «الظمأ والجوع» (120/4 - 121). ومع ذلك فإن هذه البَرِّيَّةَ تكثر فيها الأشجار (306-305/1، 502، 246/2، 263، 4/-416 417) وتكثر فيها الأنداء بل وتسقط الأمطار (306/1، 318، 406/4، 412-411) وهي التي تتيح لأعداد كبيرة من الطيور والحيوانات البرية أن تحيا (313-310/1، 502-501) وهي تزخر بالكلأ (282/2) كما إنها فيما يبدو ملائمة لتربية الأغنام (315/1، 287/2). ومن ثم فهي تشبه الغابة التي تتجول الليدي فيها في مسرحية كوموس، فكلاهما تمثل رحلة روحية كأنها الحج، وبكل منهما من يتظاهر بأنه راع، وكل منهما يوصف بأنه متاهة (عودة الفردوس 246/2: «هذه المتاهة بأشجارها اللَّفَّاء»، وكوموس 180: «المتاهات المغلقة في هذه الغابة المتشابكة الأشجار») والليدي تستريح فوق «ربوة من الكلأ» (كوموس 279) والمسيح يرقد فوق «فراش من الكلأ» (عودة الفردوس 282/2). وإذا كان بعض

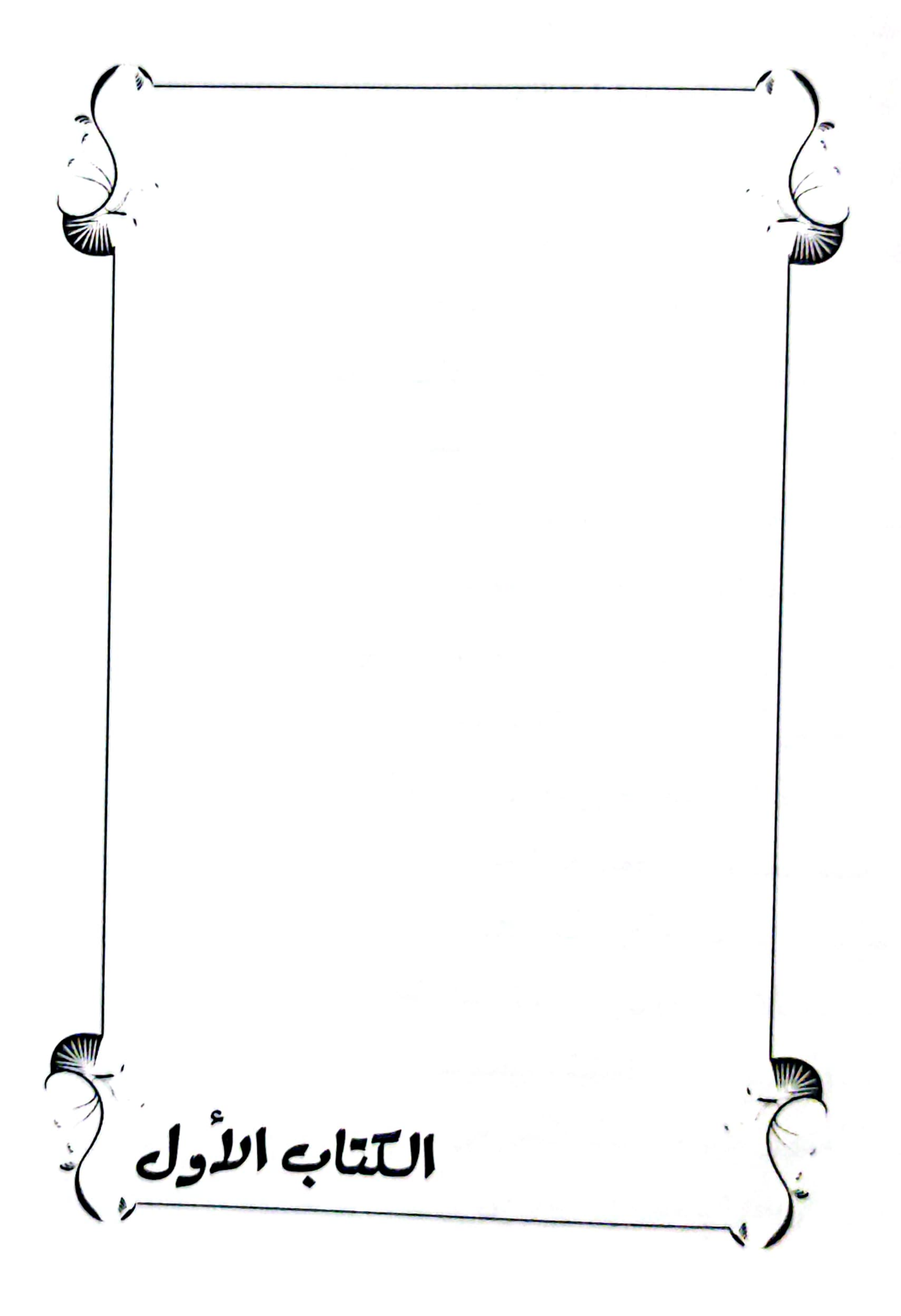




النقاد يرون أن ميلتون حاول أن يدمج المتاهة ذات الأشجار اللَّفَّاء بما ترمز له في الصحراء الصخرية الجرداء التي تزهر وتنبت ما تنبت فيما بعد ولكن ملامح كل منهما اختلطت بملامح الأخرى، فإن المحدثين يقولون: إننا ما دمنا سلمنا بالرمزية في كل منهما فإن غاية الشاعر لابد أن تكون رمزية، ألا وهي اختلاط الخير بالشر في الدنيا، واستحالة الفصل عمليًا بين مظاهرهما، وهو ما يمثل الكفة الأخرى للميزان الذي نرى فيه المسيح يمثل الخير كله وإبليس يمثل الشر الخالص. ومن الطبيعي في الملحمة (في أي ملحمة) أن نجد صورة البطل الملحمي الذي يختلف عن البطل التراچيدي، وأن نجد كذلك من الخصائص ما يميز الملحمة عن المأساة، وأعتقد أننا، لشدة ابتعاد عهدنا بهذا النوع الأدبي، أصبحنا نطبق أحيانًا أحكام الشعر المسرحي على الشعر الملحمي، بل وقد وجدنا من يطبق أحكام الرواية النثرية على الملحمة الشعرية، وأما الصحيح فهو الحكم على كل نوع أدبي بالمعايير التي تنبع من هذا النوع دون سواه، ولذا ينبغي أن ننشد في الملحمة المعايير التي يُحكم بها على الملحمة، وأهمها أنها شعر قصصي، إلى جانب ما ذكرته من ملامح أخرى في مقدمتي للفردوس المفقود، وهذا هو السبيل الوحيد إلى الحكم على مدى نجاحها.



عودة الفردوس



الكتاب الأول

ها أَنَذا، مَنْ كان إلى عَهْدٍ جِدٍّ قريبٍ يَتَغَنَّى بِجَنَّةِ الهَناءِ التي أَضاعَها عِصْيَانُ
رجلٍ واحدٍ، أتغنَّى الآنَ
بعودةِ الفِرْدَوْسِ إلى بَني الإنسانِ كَافَّةً،
إذْ أَعادَتْها طاعةُ رَجُلٍ واحدٍ بَعْدَ اجْتيازِهِ
الاختبارَ كَاملاً، وهو اختبارُ الغِوَايَةِ والإغْراءِ، وانْدِحَارُ 5
المُغْوي وإحباطُ أحابيلِهِ وهَزيمتِهِ وقَهْرِهِ،
وأَتَغَنَّى بِقِيَامِ جَنَّاتِ عَدْنٍ في فَيَافِي البَرِّيَّةِ القَاحِلَة.
ها أَنَذا أدعوكَ أيها الروحُ! يا مَنْ هَدَيْتَ ذلك الرَّاهِبَ
المجيدَ في البَيْدَاء، إذ كانت الفَلاةُ ميدانَ انْتِصارِهِ
على عَدُوِّهِ الرُّوحِيِّ، وأَتَيْتَ بِهِ مِنْ تلكَ الأَصْقَاعِ 10
مُثْبِتًا أنّه ابنُ اللهِ لا شَكَّ فيه، ها أَنَذا أَدْعُوكَ
إلى إِلْهَامِ أَنْشُودَتِي كما أَسْلَفْتَ فَلَوْلاكَ ما نَطَقَ لِسَانِي،
وأنْ تطيرَ بها في أَرْجاءِ الكَوْنِ طُولاً وعَرْضًا
بجناحٍ خَفَّاقٍ رُدَّ إليْهِ ريشُهُ، حتى تَحْكِيَ عَنْ أَفْعَالٍ
تَتَجاوَزُ صِفَةَ البُطُولَةِ وإنْ وَقَعَتْ في الخَفَاءِ، 15
ولَمْ يَتَغَنَّ شاعرٌ بها على مَدَى عُصُورٍ كثيرةٍ
وهي الجديرةُ بألاَّ تُتْرَكَ دونَ إنْشَادٍ طيلةَ تِلْكَ الحِقْبَة.
الآنَ وبعد أنْ سُمِعَ الداعيةُ العظيمُ، وبصوتٍ
تفوقُ رَهْبَتُهُ دَوِيَّ الأبواقِ، يَدْعُو النَّاسَ إلى
التَّوْبَةِ، ويُبَشِّرُ باقترابِ مَمْلَكَةِ السَّمَاءِ مِنْ 20

كُلَّ مَنْ عُمِّدَ، وبعدَ أنْ أُهْرِعَ الناسُ زُمَرًا إلى تَعْميدِهِ
العظيم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ في رَهْبَةٍ وخُشُوعٍ، أتى مَعَهُمْ
مِنَ النَّاصِرَةِ مَنْ افْتُرِضَ أنه ابنُ يُوسُفَ
إلى نَهْرِ الأُرْدُنِّ، مَغْمُورًا
مَطْمُوسًا مَجْهُولاً، ولكنَّ المعمدانَ سَرْعَانَ ما 25
لَمَحَهُ بعدَ أنْ بَشَّرَهُ الله به، وسَرْعَانَ ما أتى بالبُرْهَانِ
على أنَّهُ الأجلُّ الأَكْرَمُ، وأرادَ أنْ يَكِلَ إليْهِ
مُهِمَّتَهُ السماوية، ولَمْ يَطُلْ به انتظارُ
تأكيدِ ما شَهِدَهُ، إذْ رأى مَنْ سَبَقَ تعميدُه
والسماءُ تَنْفَتِحُ مِنْ فوقِهِ، وإذْ بما يُشْبِهُ الحمامة 30
تَتَنَزَّلُ عليه الرُّوحُ، وكانَ صوتُ الأبِ
يُعْلِنُ في السَّمَاءِ أنه ابْنُهُ الذي يُحِبُّه.
وكان خَصْمُهُ يُصْغِي، في أثناءِ تَجْوَالِهِ الدائم
في أرجاءِ العَالَمِ، ولَمْ يَشَأْ أنْ يتأَخَّرَ عن
تلك المُقَابَلَةِ الشهيرة، وقد أصابَهُ الصَّوْتُ الرَّبَّانِيُّ 35
بما يُشْبِهُ صَعْقَ الرَّعْدِ، حينَ أَبْصَرَ الرَّجُلَ السَّامِي
الذي تَلَقَّى تلكَ الشهادةَ العُلْيَا، فجعلَ يَرْمُقُهُ بُرْهَةً
في دَهْشَةٍ، وإذا بِهِ يَطِيرُ مُثْقَلاً بالحَسَدِ والغَضَبِ
قاصدًا مَنْزِلَهُ، ويأبى الانتظارَ بل يَعْمَدُ في أجوازِ الهَوَاءِ
إلى استدعاء جميعِ أقرانه الجبابرةِ إلى الاجتماع بهِ 40
في طَيَّاتِ السُّحُبِ الكَثِيفَةِ والظُّلْمةِ المُضَاعَفَةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ،

ويا لَهُ من مَجْلِس شيوخ حالِكٍ! ثم إذْ بهِ يَنْهَضُ وَسْطَهُمْ
وقد عَلَتْ وَجْهَهُ غَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، ويُخَاطِبُهمْ قائلاً:
يا قُوَى الهَوَاءِ العَتِيدَةَ وقُوَى هذا العَالَمِ الشَّاسِعِ!
وأنا أَشَدُّ قَبُولاً واطْمِئْنَانًا لِذِكْرِ الهَوَاءِ، بَعْدَ أنْ 45
فَتَحْنَاهُ منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، مِنْ أنْ أَذْكُرَ جَهَنَّمَ -
- مَوْطِنَنَا الكَرِيهِ! تعلمونَ حَقَّ العِلْمِ
كَمْ مِنْ عُصُورٍ كثيرةٍ، مما يَعُدُّهُ البَشَرُ سَنَوَاتٍ،
مَرَّتْ عَلَيْنَا مُنْذُ امْتَلَكْنا هذا الكَوْنَ، وأَمْضَيْنَا حُكْمَنَا
بالأُسلوبِ الذي تُمْلِيهِ مَشِيئَتُنَا في شُئونِ الأَرْض 50
منذُ أنْ فَقَدَ آدمُ وزَوْجَتُهُ حواءُ السَّاذَجَةُ
الفِرْدَوْسَ بِفَضْلِ خِدَاعِي، وإنْ كنتُ منذُ تلكَ الآونَةِ
أنتظرُ في رُعْبٍ ذلكَ الجُرْحَ القَاتِلَ الذي
سوفَ يُصِيبُ واحدٌ مِنْ ذُرِّيَةِ حَوَّاءَ به
رَأْسِي، فما أَطْوَلَ ما يتأَخَّرُ تنفيذُ أحكامِ السَّمَاءِ 55
إذْ تَرَى الرَّدْحَ الطَّويلَ بُرْهَةً قَصِيرةً.
والآنَ نُدْرِكُ أَنَّهُ سَرْعَانَ ما دَارَتْ السَّاعَاتُ دَوْرتَها
فَأَتَتْ بذلك الوَقْتِ الذي نَخْشَاهُ، وهو الذي
لابُدَّ أنْ نتحمَّلَ فيه الضَّرْبَةَ التي طالما تَهَدَّدَتْنَا،
أو على الأَقَلِّ إنْ استَطَعْنَا، وأما شَجُّ الرأس 60
فلا يُقْصَدُ به كَسْرُ شَوْكَتِنا وضَيَاعُ قُوَّتِنا كُلِّهَا
أو انْتِزَاعُ حُرِّيَّتِنا أو الانْتِقَاصُ مِنْ وُجودِنا

في هذه المَمْلَكَةِ الجَمِيلةِ المُكْتَسَبَةِ، مَمْلَكَةِ الأَرْضِ والهَوَاءِ.
إذْ إنَّنِي أَحْمِلُ إِلَيْكُمْ هذا النَّبَأَ السَّيِّئ، وهو أنَّ ابْنَ المَرْأَةِ
الذي قُدِّرَ له أنْ يتولَّى هذا، قد وَلَدَتْهُ امرأةٌ أخيرًا، 65
فأكَّدَ مَوْلِدُهُ مُبَرِّرَاتِ خَوْفِنَا تأكيدًا كبيرًا،
ولكنَّهُ نَمَا وتَرَعْرَعَ الآنَ فبلغَ زَهْرَةَ العُمْرِ في الشَّبَابِ، وتَجَلَّى
فيهِ كُلُّ ما يَلْزَمُ مِنْ فَضِيلَةٍ وكَرَمِ نَفْسٍ وحِكْمَةٍ لِتَحْقِيقِ
أَسْمَى وأَعْظَمِ ما يُرَامُ، وهُوَ ما يُضَاعِفُ مِنْ خَوْفِي.
ومِنْ قَبْلِ مَجِيئِهِ أُرْسِلَ نَبِيٌّ عَظِيمٌ كَيْمَا يُعْلِنَ 70
مَجِيئَهُ ويُبَشِّرَ بِهِ، وهَا هُوَ ذَا يَدْعُو الجميعَ
إِلَى القُدومِ إِلَى النَّهْرِ المُقَدَّسِ حيثُ
يَزْعُمُ أنَّه يَغْسِلُ بمائِهِ خَطَايَاهُمْ، حتى يُصْبِحُوا صَالِحِينَ
بَعْدَ التَّطَهُّرِ لاستِقْبَالِ الرَّجُلِ الأَطْهَرِ، أو بالأَحْرَى
لِتَشْرِيفِهِ بِوَصْفِهِ مَلِكًا عَلَيْهِمْ. وقد أتى الجَمِيعُ، 75
وكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ ذلكَ الرَّجُلُ نَفْسُهُ، ثم تَعَمَّدَ،
لا حتى يَزْدَادَ طُهْرًا بالتعميد بلْ حتى يَتَلَقَّى
شَهَادَةَ السَّماءِ، بحيثُ تتأكَّدُ هُوِيَّتُهُ
ولا تَسْتَرِيبُ بها الأُمَمُ جميعًا بَعْدَهَا. وشاهدتُ
النَّبِيَّ يُعْرِبُ عن إجْلالِهِ إِيَّاهُ، وعندما قامَ خارجًا 80
مِنَ المَاءِ، إذا بالسَّمَاءِ مِنْ فَوْقِ السَّحَابِ
تَفْتَحُ أبوابَها البَلُّورِيَّةَ، ومِنْها تَتَنَزَّلُ على رَأْسِهِ
حمامَةٌ يَزِينُها الكَمَالُ، مَهْمَا تكُنْ دَلالَتُها،

وسَمِعْتُ صوتَ السَّيِّدِ يُدَوِّي في السَّماءِ
هذا ابْنِي المحبوبُ، وأنا به مسرور. 85
أُمُّهُ إذَنْ مِنَ البَشَرِ الفانين، ولكنَّ وَالِدَهُ
مَنْ في يَدِهِ ملكوتُ السَّماءِ وهَلْ يتأخَّرُ
عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ لإعْلاَءِ شأنِ ابْنِهِ؟
نَحْنُ واثقونَ أنه أولُ مَنْ أَنْجبَ، وهو ما أَشَعْرَنَا بالأسىَ
عندما دَوَّى رَعْدُهُ ضَارِيًا فألْقَى بِنَا في الخِضَمِّ السحيق؛ 90
ولابُدَّ لنا أنْ نَعْرِفَ مَنْ يكون، إذْ يَبْدُو بَشَرًا
في كُلِّ ملامِحِه، وإنْ كانتْ تَسْطَعُ في مُحَيَّاهُ
بَوارِقُ تُنْبِئُ عَنْ مَجْدِ أَبِيهِ.
وها أَنْتُمْ تَرَوْنَ الخَطَرَ الذي يكمُنُ على شَفَاهُ
الهَلاكُ، ولا يَسْمَحُ بإجْرَاءِ مُنَاظَرَةٍ مُطَوَّلَةٍ، 95
بل لا بُدَّ مِنْ مُعارَضَتِهِ والتَّصَدِّي لَهُ فورًا،
لا بالقُوَّةِ، بل بالخِداعِ الذي أُحْكِمَ إخْفَاؤُهُ، وبالشِّرَاكِ
التي أُحْكِمَ نَسْجُهَا، قبلَ أنْ يَتَبَوَّأَ مَوْقِعَهُ فوقَ الأُمَمِ
مَلِكًا وزَعِيمًا لها، والأَعْلَى والأَسْمَى في الأرض.
كنتُ وَحْدِي مَنْ تجاسرَ، عندما لم يَتَجَاسَرْ أحدٌ، 100
على القِيَامِ بالرِّحْلَةِ الرَّهِيبَةِ للعُثُورِ على
آدمَ وإسْقَاطِهِ، وكُلِّلَتْ مُغَامَرَتِي
بالنَّجاحِ، ولكنَّ أَمَامِي الآنَ رِحْلَةً أَشَدَّ هُدُوءًا
أَطِيرُ على جَنَاحِها، والأُسْلُوبُ الذي نَجَحَ مِنْ قَبْلُ

أفضلُ ما نرْجو بهِ تحْقيقَ نَجاحٍ مُماثِلٍ. 105

وانتهى من خِطابِهِ وقد فَعلَتْ كلماتُه فِعْلَها

وأَدْهَشَتْ صُحْبَةَ الجَحيمِ دَهْشَةً بالِغَةً، فَغدَوْا

ذاهلينَ بَعْدَ أنْ فُوجِئوا بِهَذِهِ الأَنْباءِ التي أَكْرَبَتْهُمْ كَرْبًا

عَظيمًا وأَحْزَنَتْهُمْ حُزْنًا شَديدًا، ولكنَّ الوقتَ لمْ يكنْ يسمحُ

بالاسْتِغْراقِ طَويلاً في المَخاوِفِ والأَتْرَاحِ، 110

إذْ أجمعوا على أنْ يَعْهَدُوا بِتَوَلِّي أَمْرِ

هذهِ المُهِمَّةِ الكُبْرى وفِعْلِ ما تَقْتَضِيهِ

إلى زعيمهم المُسْتَبِدِّ العَظيم، مِنْ بَعْدِ أنْ نَجَحَتْ حِيلَتُهُ

أَوَّلَ الأَمْرِ نَجاحًا رَائعًا ضِدَّ أَبْناءِ البَشَرِ

وحَقَّقَتْ سُقُوطَ آدمَ، وبَعْدَ أنْ قادَ مَسيرَتَهُمْ 115

مِنْ قَبْوِ الجَحيمِ العَميقِ إلى أَصْقَاعِ الضِّياءِ حيثُ يُقِيمُونَ

سادَةً وحُكَّامًا ومُلُوكًا بل وأربابًا

على الكَثيرِ مِنَ المَمَالِكِ البَهيجَةِ والأَقْطَارِ العَريضَةِ.

وهكذا تَوَجَّهَ إلى سَاحِلِ الأُرْدُن يَخْطُو

خُطُواتٍ مُيَسَّرَةً، مُرْتَدِيًا أَحَابيلَ ثُعْبَانِيَّةً، 120

إلى أَرْجَحِ مَكَانٍ يَعْثُرُ فيه على هذا الذي أُعْلِنَ أخيرًا

أنه رَجُلٌ مِنَ الرِّجَالِ، وقيلَ إنه ابنُ الله،

حتى يحاولَ إغْواءَهُ وخِداعَهُ بشَتَّى الوسائلِ،

والإِطَاحَةَ بِمَنْ كانَ يَرَى أنه أُرْسِلَ

لإِنْهاءِ عَهْدِ حُكْمِهِ الذي طَالَ تَمتُّعُه بِهِ في الأَرْضِ، 125

ولكنَّهُ، على العَكْسِ، ودُونَ أنْ يَدْرِي، كانَ يُحَقِّقُ
المشيئةَ المَقْصُودَةَ المُقَدَّرَةَ الثابتة
لِلأَعْلَى، وهو الذي حَشَدَ الحَشْدَ النُورانِيَّ كُلَّه
مِنَ المَلائِكَةِ، ثُمَّ طَفِقَ يَقُولُ باسمًا لِجْبريلَ:
يا جِبْرِيلُ! لَسَوْفَ تَرَى اليَوْمَ وتَشْهَدُ البُرْهَانَ، 130
أنتَ وجميعُ الملائكةِ الذين يُحيطون في الأرضِ
بِأَمْرِ الإنسانِ أو بشُئونِ البَشَرِ، كيفَ أَشْرَعُ
في تحقيقِ الرِّسَالَةِ الصَّادِقَةِ التي أَرْسَلْتُكَ بِهَا
منذ عَهْدٍ قَرِيبٍ إلى العَذْرَاءِ الطَّاهِرَةِ
في الجَلِيلِ، أَلاَ وهِيَ أَنَّها لابُدَّ أنْ تَحْمِلَ طِفْلاً 135
ذا صِيتٍ عَظِيمٍ، ويُدْعَى ابْنَ الله، ثُمَّ شَرَحْتَ لَهَا
وهي تَسْتَرِيبُ فيمَا تَسْمَعُ أَنَّى يكونَ لَهَا غُلامٌ
ولم يَمْسَسْها بَشَرٌ، قائلاً إنها سَوْفَ تَتَلَقَّى
الرُّوحَ القُدُسَ، وإنَّ سُلْطَانَ رَبِّكَ الأَعْلَى يُظِلُّها
بِظِلِّه، وقد وُلِدَ هذا الرَّجُلُ ونَمَا واشْتَدَّ عُودُهُ، 140
وَحَتَّى أُثْبِتَ أنَّ هذا الرَّجُلَ جديرٌ بمولِدِه الرَّبَّانِيِّ
وحَمْلِ النُّبُوَّةِ السَّامِيَةِ، سَأَجْعَلُهُ يَتَعَرَّضُ منذُ الآنَ
لإِبْلِيسَ: فَلْيُطْلِقْ إِبليسُ سَهْمَ غوايَتِهِ ولِيَبْذُلْ الآنَ
أَقْصَى ما لَدَيْهِ مِنْ مَكْرٍ ودَهَاءٍ، ما دامَ يَزْهُو
ويَتَفَاخَرُ بِعَظَمَةِ ذلك الدَّهَاءِ أمامَ حَشْدِ 145
المَارِقِينَ مِنْ أَتْبَاعِهِ: وكانَ يَنْبَغِي أنْ يتعلَّمَ

كيف يَقصِدُ في غَطْرَسَتِهِ منذ أنْ فشلَ في إغْوَاءِ أيُّوبَ
الذي صَمَدَ وثَبَتَ فاسْتَطَاعَ صُمُودُهُ أنْ يَقْهَرَ
كلَّ ما تمكَّنَ إبليسُ بخُبْثِهِ وقَسْوَتِهِ مِنْ ابتكارِه.
ولسوفَ يعلمُ الآنَ أنني أستطيعُ أنْ أَخْلُقَ رَجُلاً 150
في رَحِمِ امْرأةٍ، أَشَدَّ قُدْرَةً على مُقَاوَمَةِ
شَتَّى أحابيلِ إبليسَ البارعةِ، وفي آخرِ المطافِ
جميعِ قواتِهِ العَرَمْرَمِ، وإرغامِهِ على العودةِ إلى جَهَنَّمْ،
حَتَّى يَسْتَعِيدَ بالغَلَبَةِ ما فَقَدَهُ أولُ إنسانٍ
بأُكْذُوبَةٍ فَاجَأَتْهُ. ولكنَّني أعتزمُ أوَّلاً أنْ أَجْعَلَهُ 155
يُثْبِتُ مَعْدِنَهُ عَمَلِيًا في البَرِّيَّةِ،
وفيها سوفَ يصوغُ العناصرَ الأُولى
لِحَرْبِهِ العُظْمَى قبلَ أنْ أَبْعَثَ بِهِ غازِيًا
لِيَقْهَرَ الخَطِيئَةَ والمَوْتَ، وهما أَلَدُّ الأَعْدَاءِ،
مِنْ خِلالِ الإذْلالِ والمُعَانَاةِ الشَّدِيدَةِ، 160
إذْ إنْ ضَعْفَهُ سوفَ يَتَغَلَّبُ على القُوَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ
وعلى العَالَمِ بأَسْرِهِ، ودُنْيا الجَسَدِ الخَاطِئِ،
وذلكَ حتى يَتَبَيَّنَ للملائكةِ والقُوَى الأثيريةِ جمعاءَ
صِدْقَ ما تَعْرِفُهُ الآنَ وما سوفَ يُدْرِكُهُ البَشَرُ فيما بَعْدُ
مِنْ مَدَى كَمَالِ الشَّمَائِلِ التي اخْتَرْتُ منها 165
هذا الإنسانَ الكَامِلَ، وهو الذي يُدْعى ابْنِي عن جَدَارَةٍ،
كيما يَكْتَسِبَ الخلاصَ لأَبْنَاءِ البَشَرِ.

بهذا تكلَّمَ الأَبُ البَاقِي، فَوَقَفتْ السَّماوَاتُ كُلُّها
بُرْهَةً مِنْ فَرْطِ الإعجاب، ثُمَّ انطَلَقتْ تُنْشِدُ
التَّرَانِيمَ وتَخْطُو في رَقَصَاتٍ سَمَاوِيَّةٍ، 170
وإذْ بالملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يَتَغَنَّوْنَ وأياديهمْ
تَتَغَنَّى على الأَوْتَارِ مع أَصْوَاتِهِمْ، وفيما يلي مَوْضُوعُ النشيد:
فَلْيُكْتَبِ النَّصْرُ والغَلَبَةُ لابْنِ الله الذي
شَرَعَ في مُنَازَلَةٍ عُظْمى، لا بالسلاح
بَلْ بالحِكْمَة حتى يَهْزِمَ الأحابيلَ الجَهَنَّمِيَّةِ! 175
والأب يَعْرِفُ الابن حَقَّ المَعْرِفَةِ، ولذلك يَشْرَعُ الابْنُ
مُطْمَئِنًا في بَذْلِ قُوَّةِ بُنُوَّتِهِ، وإنْ لَمْ تُخْتَبَرْ مِنْ قَبْلُ،
في التَّصَدِّي لِكُلِّ ما مِنْ شأنِهِ الإغْرَاءُ أو الغِوَايَةُ
أو الفِتْنَةُ أو الإرْهَابُ أو التَّقْوِيضُ!
ولْيُكْتَبِ الإحْبَاطُ لكُنَّ يا دَسَائِسَ الجَحِيمِ جَمِيعًا 180
وليُكْتَبِ الفَشَلُ الذَّرِيعُ للمَكَائِدِ الشَّيْطَانِيَّةِ!
وهكذا تَوافَقَتْ في السَّمَاءِ تسابيحُهُمْ وأَنَاشِيدُ لَيْلِهِم،
وإذْ ذَاكَ كانَ ابْنُ الله لا يَزَالُ يُقِيمُ عِدَّةَ أيامٍ
في «بَيْتَ عَنْيَا» حيثُ كان يُوحَنَّا يُعَمِّدُ،
ولا يزالُ يتفكَّرُ ويُطِيلُ التَّأَمُّلَ في قَلْبِهِ ناظرًا 185
في أَفْضَلِ ما عَسَاهُ يَبْدَأُ بِهِ مُهِمَّتَهُ الجَبَّارَةَ في
تَحْقِيقِ الخَلاصِ لِلْبَشَرِيةِ، وأَفْضَلِ سَبِيلٍ يَبْدأُ بِهِ
الدَّعْوَةَ لِرِسَالَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ التي آنَ أَوَانُها، ثُمَّ

خرجَ ذاتَ يوم يَسيرُ وَحْدَهُ، يَهْدِيهِ الرُّوحُ
وأفكارُه العميقَةُ، وذلكَ أنسَبُ للائتِناسِ 190
بالعُزْلَةِ، حتى ابْتَعَدَ كثيرًا عن مَسالِكِ البشر،
والأفكارُ تتتابَعُ في رَأْسِهِ، وخُطُواتُهُ تتوالى قُدُمًا،
فإذا بهِ يَدْخُلُ الصَّحْراءَ المُتاخِمَةَ القاحِلَةَ التي
كانتْ تُحيطُ بها الظِّلالُ والصُّخُورُ الدَّكْناءُ،
وإذا بهِ يُتابِعُ تأمُّلاتِهِ القُدْسِيَّةَ على النَّحْوِ التَّالي: 195
ما أَعْجَبَ حَشْدَ الأَفْكارِ الكَثيرةِ التي تَجْتَمِعُ معًا
وتَصْحُو معًا في نَفْسي، عندما أَنْظُرُ فأرَى
ما أَشْعُرُ بأنَّنِي عَلَيْهِ في أَعْماقِي، وأَسْمَعُ
ما يَصِلُ إلى أُذُني كثيرًا مِمَّا حَوْلي،
وهو الذي لا يَتَّفِقُ مع حالي الحاضِرَةِ إنْ قُورِنَ بها. 200
فعندما كنتُ طِفْلاً، لمْ تكُنْ أَلْعابُ الأَطْفالِ
تَسُرُّني، إذْ كانَ ذِهْنِي مُنْصَبًّا انْصِبابًا
جادًّا على العِلْمِ والمعرفةِ، ومِنْ ثَمَّ على القيامِ
بكلِّ ما من شأنِهِ أنْ ينفَعَ الناسَ، وكنتُ أرى أنَّني
وُلِدْتُ لهذا، وُلِدْتُ لتعزيزِ كُلِّ ما هو حَقٌّ 205
وكُلِّ ما هو صالحٌ بارٌّ، ومن ثَمَّ كنتُ أَكْبَرَ مِنْ سِنِّي،
أَقرأُ شريعةَ الله، وأَجِدُها عَذْبَةً حُلْوَةً
فَأَنْشُدُ فيها مُتْعَتِي وبَهْجَتِي، وهكذا دَرَجْتُ عليها ونَشَأْتُ
فحقَّقْتُ مِنَ الكَمالِ دَرَجَةً جَعَلَتْني أَخْطُو إلى داخِلِ المَعْبَدِ مِنْ قبلِ

أنْ أَبْلُغَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي، وفي عِيدِنا الأكبرِ 210
وَقَفْتُ أستمعُ إلى أَسَاتِذَةِ القَانُونِ لَدَيْنَا
وأَقْتَرِحُ بَعْضَ ما مِنْ شأنِهِ
أنْ يَرْقَى بمَعَارِفِي أو يَرْقَى بِمَعَارِفِهِمْ.
وكانَ الجميعُ يُبْدُونَ دَهْشَتَهُمْ مِنِّي، وإنْ لمْ يكُنْ ذلك
كُلَّ ما كانتْ رُوحِي تَرْنُو طامحةً إليْهِ، بل كانت الفِعَالُ الظَّافِرَةُ 215
تَتَوَقَّدُ في قلبي، فِعَالٌ بطوليةٌ، يَتَمَثَّلُ أَحَدُهَا
في إنْقَاذِ بَنِي إِسْرَائيلَ مِنَ النِّيرِ الرُّومانيِّ،
ومِنْ ثَمَّ أنْ أَقْهَرَ وأَقْمَعَ في شَتَّى أَرْجَاءِ الأَرْضِ
أَحْدَاثَ العُنْفِ الغَاشِمِ وجَبَرُوتَ الطُّغْيانِ المُسْتَكْبِرِ،
حتى يَتَحَرَّرَ الحقُّ ويعودَ العدلُ والإنصافُ: وكنتُ 220
أرى أنه مِنَ الأقربِ إلى الرَّأْفَةِ وشِرْعَةِ السَّمَاءِ أنْ نَبْدَأَ
بِغَزْوِ القُلُوبِ الرَّاغِبَةِ بِأَلْفَاظٍ تَسْتَمِيلُها وتكْسِبُها
وأنْ نُتِيحَ للإِقْنَاعِ القِيَامَ بما يَقُومُ به الخَوْفُ،
وعَلَيْنا أنْ نُحَاوِلَ، عَلَى الأَقَلِّ، أنْ نُعَلِّمَ الروحَ الضَّالَّةَ
لا الرُّوحَ التي تَتَعَمَّدُ الإِسَاءَةَ، أيْ التي ضَلَّتْ طَرِيقَهَا دُونَ 225
وَعْيٍ، وألاَّ نَقْمَعَ إلاَّ المُعَانِدَ والمُكَابِرَ.
وسرعانَ ما أَدْرَكَتْ والدتي نَمَاءَ هذه الأفكارِ في ذِهْنِي
مُعْرِبَةً عَنْ فَرْحَتِها الباطِنَةِ بكلماتٍ تُلْقِيها بَيْنَ الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ،
ثم اخْتَلَتْ بي وقالتْ: «أفكارُكَ سَامِيَةٌ
يا وَلَدِي! لكنْ عَلَيْكَ أنْ تَرْعَاهَا حتى تُحَلِّقَ 230

إلى أَعْلَى ذِرْوَةٍ يمكنُ للفضيلَةِ القُدْسِيَّةِ والجَدَارَةِ الحَقَّةِ
أن تَرْفَعَاها إليْها، حتى وإنْ تكُنْ بلا نظيرٍ في سَمَائِها،
ولكنَّ أبَاكَ الذي لا مَثِيلَ لَهُ يَتجلَّى في فِعَالٍ لا مثيلَ لها.
ولِتَعْلَمْ أنَّكَ لَسْتَ ابْنَ أَحَدٍ مِنَ البَشَرِ الفانين
235 ورغم أنَّ الناسَ يَرَوْنَ أنك خفيضُ النَّسَب
فإنَّ أبَاكَ هُوَ المَلِكُ الأزَلِيُّ، حَكَمُ
السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ والمَلائِكِ وأَبْنَاءِ البَشَرِ،
وجاءَ مِنْ عِنْدِ الله رسولٌ يَتَنَبَّأُ بِمَوْلِدِكَ
وبأنْ أَحمِلَكَ في رَحِمِي وأنا عَذْرَاءُ، وتَنَبَّأَ
240 بأنْ تُصْبِحَ عَظِيمًا وتَجْلِسَ على عَرْشِ دَاوُدَ،
وأنْ تَغْدُوَ مَمْلَكَتُكَ بلا نِهَايَةٍ.
وعند ميلادِكَ قامَ فريقُ المُنْشِدِينَ ذَوِي البَهَاءِ
مِنَ الملائكةِ في حُقُولِ بيتِ لَحْم بالغِنَاءِ
لِلرُّعَاةِ الذين كانوا ساهِرينَ عِنْدَ حَظَائِرِهِمْ لَيْلاً
245 وقالوا لهم إنَّ المسيحَ قد وُلِدَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ
وأشارُوا لَهُمْ إلى حيثُ يَرَوْنَهُ، فَجَاءُوا إليْكَ،
مُهْتَدِينَ إلى المِذْوَدِ الذي كُنْتَ ترقُدُ فيه،
إذْ لَمْ يكُنْ قد بَقِيَ في الخَانِ مكانٌ أفضلُ.
وظَهَرَ في السَّمَاءِ نجمٌ لَمْ يُشَاهِدْهُ أحدٌ مِنْ
250 قبلُ فأَرْشَدَ الحُكَمَاءَ إلى ذلك المَكَانِ مِنَ الشَّرْقِ
حتى يُكَرِّمُوكَ بالبَخُورِ والمُرِّ والذَّهَبِ،

وكانوا قد اتَّبَعُوا مَسَارَ النَّجم الوَضَّاءِ فَعَثَرُوا على المكانِ
الذي أكَّده نجمُك الذي شُقَّ مَوْضِعُهُ لِلتَّوِّ في السَّمَاء،
وعَرَفُوا بِهِ أنَّكَ مَلِكُ بني إسْرَائيلَ الذي وُلِدَ آنئذٍ.
وجاء سِمْعَانُ البارُّ والنَّبِيَّةُ حَنَّةُ، اللذان كانت 255
الرؤيا قد بَشَّرَتْهما، إلى المَعْبَدِ حيثُ عَثَرَا عليكَ وتَحَدَّثَا
أمامَ المَذْبَحِ وأمامَ الكاهِنِ بِزِيِّهِ الرَّسْمي
حَدِيثًا مُمَاثِلاً عنك إلى جميعِ الذين وَقَفُوا يَشْهَدُون».
وعندما سَمِعْتُ مِنْ وَالِدَتِي ذلك عُدْتُ فَوْرًا إلى تَأَمُّلِ
الشَّرْعِ وأَقْوَالِ الأنْبياء، باحِثًا فيما كُتِبَ 260
عَنِ المَسِيحِ، وهو ما كانَ النُّسَّاخُ لَدَيْنا
يَعْرِفُونَ طَرَفًا منه، وسَرْعَانَ ما أدركتُ أنَّ مَنْ يتحدثونَ عنه ليسَ
سوايَ، وعَرَفْتُ أسَاسًا أنَّهُ لا مَنَاصَ مِنْ أنْ أسْلُكَ سَبِيلاً غاصًّا
بالمَشَاقِّ بلْ وحتى المَوْتِ،
مِنْ قَبْلِ أنْ أتَمكَّنَ مِنَ الفَوْزِ بالمَمْلَكَةِ المَوْعُودَةِ 265
أو آتيَ بالخَلاص لأَبْنَاءِ البَشَرِ، وأنَّ خَطَايَاهُم
لا مَنَاصَ مِنْ وُقُوعِ ثِقْلِها جميعًا على رَأْسِي.
ولكنَّ ذلكَ لم يَفُتَّ في عَضُدِي ولمْ يُصِبْني بأيِّ كَرْبٍ
إذْ جَعَلْتُ أنْتَظِرُ الوقتَ المُحَدَّدَ سَلَفًا، وها هو ذا
المعمدانُ يأتي (بعد أنْ سَمِعْتُ كثيرًا عَنْ مَوْلِدِهِ 270
دونَ أنْ أعْرِفَ له صُورَةً) وهو الذي قُدِّرَ له القُدُومُ
قبلَ المَسِيحِ وتمهيدُ الطَّرِيقِ لمَقْدمِهِ.

وجئتُ مع الجَميعِ حتى أَحْظَى بِتَعْميدِهِ لي مِثْلهم
إذ كنتُ أُومِنُ أنْ تعميدَه عُلْويٌّ، ولكنَّه
عَرَفَنِي على الفَوْرِ وأَعْلَنَ بأَعْلَى صَوْتٍ ذلكَ قائلاً 275
إنَّه أنا (إذْ كانَتْ السَّماءُ قد بيَّنَتْ لهُ ذلك)
وأنَّهُ ما جاءَ إلا لِيُبَشِّرَ بِمَقْدمي، ورَفَضَ أوَّلَ الأَمْرِ
أنْ يَقُومَ بتعميدي مُحْتَجًا بأَنَّني
أعظمُ منه ولم يَقْتَنِعْ بذلك إلا بِصُعُوبةٍ.
ولكنْ حَدَثَ أثناءَ نُهوضي بعد الاغْتِسَالِ في النَّهْرِ 280
أنْ فَتَحَتْ السَّمَاءُ أبوابَها السَّرْمَدِيَّةَ، ومنها
تَنَزَّلَتِ الرُّوحُ عليَّ مثلَ حَمَامَةٍ،
ثُمَّ جاءَ أخيرًا ما يُلَخِّصُ كُلَّ شيءٍ، وهو صوتُ الأَبِ،
الذي سَمِعْتُهُ بوضُوحٍ في السَّماءِ يُعْلِنُ أَنَّني أَنْتَمِي إِلَيْهِ
وأَنَّني ابْنُهُ المَحْبُوبُ، وأنَّهُ لا يَجِدُ في سِوَايَ 285
سُرُورَهُ الكبير، وأَدْرَكْتُ من هذه الآيَةِ أنَّ الوقتَ
قد حانَ، وأنَّهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيَّ أنْ أَحْيا مَغْمُورًا
بلْ أنْ أَبْدَأَ رِسَالَتِي عَلَنًا، فذلكَ أَفْضَلُ ما يُنَاسِبُ
السُّلْطَةَ التي أَسْتَمِدُّها مِنَ السَّماءِ.
وها أنذا أَجِدُ في نَفْسِي ما يَدْفَعُنِي دَفْعًا إلى 290
وُلُوجِ هذه البَرِّيَّةِ، لِغَايَةٍ
لم أَعْرِفْها إلى الآنَ، ورُبَّما لا حَاجَةَ بي لأنْ أَعْرِفَهَا،
فاللهُ يَكْشِفُ لي عَمَّا أحتاجُ إلى مَعْرِفَتِهِ.

كان ذلك ما قاله كَوْكَبُ صَبَاحِنا، في لَحْظَةِ إشْرَاقِهِ آنَذَاكَ،

وعِنْدَمَا أَرْجَعَ البَصَرَ فيما حَوْلَهُ لم يُبْصِرْ سوى 295

مَهْمَهٍ لا سُبُلَ فيها، وتَطْمِسُها ظلالٌ شائكة.

ولَمْ تكُنْ الطريقُ التي أَتَى مِنْها مُحَدَّدَةَ المَلاَمِحِ، فَأَصْبَحَتِ العَوْدَةُ

عَسِيرَةً، كما لَمْ تَطَأْ تلكَ الطَّرِيقَ مِنْ قبلُ أَقْدَامُ البَشَرِ.

وظَلَّ يسيرُ مهتديًا بذلكَ الدَّافعِ وإنْ كانتْ تَصْحَبُهُ الآنَ أفكارٌ

عَمَّا مَضَى وعَمَّا يأتي مِنْ أُمُورٍ 300

تَسْكُنُ في صَدْرِهِ، من اللَّوْنِ الذي يُزَكِّي

مِثْلَ تلكَ العُزْلَةِ ويَرْفَعُها فوقَ أَفْضَلِ صُحْبَةٍ.

وقَضَى أربعين يَوْمًا كاملةً، لا نَعْرِفُ إنْ كان يَرْتَقِي فيها التلالَ

أو يَهْبِطُ في بَعْضِ الوُدْيَانِ الظَّلِيلَةِ، مُلْتَجِئًا كُلَّ لَيْلَةٍ

إلى مَكْمَنٍ تحتَ بَعْضِ أشجارِ البَلُّوطِ العَتِيقَةِ 305

أو أَشْجَارِ الأَرْزِ، للاحْتِمَاءِ من الأَنْدَاءِ،

أَوْ يَأْوِي إلى أَحَدِ الكُهُوفِ، فذلك مِمَّا لَمْ يُكْشَفْ عنه غِطَاء،

بلْ وما ذاقَ طَعَامًا بَشَرِيًّا أَوْ أَحَسَّ الجُوعَ

حَتَّى انقَضَتْ تلك الأَيَّامُ، وعندها شَعَرَ بالجوعِ أخيرًا

وَسْطَ الوُحُوشِ، وهي التي غَدَتْ لِمَرْآهُ لطيفةً، 310

فَلَمْ تُؤْذِهِ في صَحْوِهِ أَوْ مَنَامِه، وكانَ إذَا سَارَ

فَرَّ أَمَامَهُ الثُّعْبَانُ المُسْرِعُ والأُفْعُوَانُ السَّامُّ

وحَدَّقَ فيه عَنْ بُعْدٍ الأَسَدُ والبَبْرُ الضَّارِي.

ولكنه لَمَحَ آنذاك شَيْخًا هَرِمًا يرتدي مَلاَبِسَ رِيفيةً

يَقْتَفِي فيما يبدو آثارَ نَعْجَةٍ من نِعَاجِه ضَلَّتْ فهبَّ يطلبُها ، 315
أوْ يَجْمَعُ بَعْضَ عيدانِ الحَطَبِ الذَّابِلَةِ ، وهي التي قد تَنْفَعُهُ
في يوم مِنْ أيام الشِّتَاءِ حينَ تَهُبُّ الرِّيَاحُ الصَّرْصَرُ العَاتِيَةُ ،
فَيَسْتَدْفِئُ بها حينَ يَعُودُ من الحَقْلِ في المَسَاءِ وقد بَلَّلَهُ المَطَرُ ،
ثم شَاهَدَهُ يقتربُ منه ، ويَتَطلَّعُ إليْهِ مَلِيًا بِعُيونٍ
مُسْتَطْلِعَةٍ ، ثم يُخَاطِبُهُ بالكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ : 320
يا سيدي ! ما سوءُ الحَظِّ الذي أتى بكَ إلى هذا المَكَانِ
وهو أبعدُ ما يكونُ عَنْ الطُّرُقِ أو السُّبُلِ التي يَسْلُكُها البَشَرُ
بل إنهم لا يَسِيرُون فيها إلا جَمَاعَاتٍ أو قَوَافِلَ ، فما تَجرَّأَ فَرْدٌ
يومًا أنْ يَعُودَ مِنْ هذه الطريقِ إلاَّ وسَقَطَ هنا
جُثَّةً ذَوَتْ من لَذْعِ الجُوعِ والعَطَشِ فَهَمَدَتْ ؟ 325
إنِّي أَطْرَحُ السُّؤَالَ وأُعْرِبُ عن دَهْشَةٍ أَكْبَرَ ،
إذْ تَبْدُو لِعَيْنِي الرَّجُلَ الذي قامَ أخيرًا
نَبِيُّنَا المعمدانُ الجَديدُ ، في مَخَاضَةِ نهر الأُرْدُنِ ،
بِتَكْرِيمِهِ وتَشْرِيفِهِ ، ودَعَاكَ ابنَ الله ،
ولقد رأيتَ ذلك وسَمِعْتُه ، فأحيانًا ما يَحْدُثُ لنا ، 330
نحنُ المقيمين في هذه البَرِّيةِ ، حينَ تُرْغِمُنَا الحَاجَةُ ، أنْ نَخْرُجَ
إلى بَلْدَةٍ أو قَرْيَةٍ قَرِيبَةٍ (وأَقْرَبُهما مِنَّا بَعِيدَةٌ)
حيثُ نَسْمَعُ بَلْ ونَحْنُ نَحْرِصُ على أنْ نَسْمَعَ أَنْبَاءَ
كُلِّ حادثٍ جَديد ، كما تَصِلُ الشَّائِعَاتُ إلى سَمْعِنا .
وأَجَابَهُ ابْنُ الله قَائِلاً : إنَّ مَنْ أَتَى بي إلَى هَذا المَكَانِ 335

سوف يُخرِجُني منه، وأنا لا أَنْشُدُ هَادِيًا سواه.

وردَّ الراعي قائلاً: قَدْ يُخرِجُكَ بِمُعْجِزَةٍ وحَسْب،

ولا أرى غَيْرَ ذلك سَبِيلاً، فَنَحْنُ في هذا المكانِ

نَقْتَاتُ بالجُذُورِ والجُذُولِ الخَشِنَةِ، وقد اعْتَدْنَا العَطَشَ أَكْثَرَ من الجَمَلِ،

ونَرْحَلُ مسافاتٍ طويلةً لِنَشْرَبَ الماءَ، 340

فَلَقَدْ فُطِرْنا على تَحَمُّلِ البُؤْسِ الشَّدِيدِ والمَشَاقِّ الهَائِلَةِ.

لكنك إنْ كُنْتَ ابْنًا لله، فَلْتَأْمُرْ أنْ يُصْنَعَ

لَكَ خُبْزٌ مِنْ هذه الأَحْجَارِ الصُّلْبَةِ.

وبذلك تُنْقِذُ نَفْسَكَ وتُخَفِّفُ عَنَّا ما نُعَانِي

بِذَلكَ الطَّعَامِ؛ إذْ يَنْدُرُ أنْ نَتَذَوَّقَهُ نَحْنُ البُؤَسَاءَ. 345

وسَكَتَ فَأَجَابَهُ ابْنُ الله قائلاً:

أَتَظُنُّ أنَّ لِلْخُبْزِ مِثْلَ هذه القُوَّةِ الكبيرةِ؟ أَلَمْ يُكْتَبْ

(إذ أُدْرِكُ أنَّكَ تَخْتَلِفُ في الحقيقةِ عما تَبْدُو عليه)

أنَّ الإنسانَ لا يَحْيَا بالخُبْزِ وَحْدَهُ، بل بِكُلِّ كَلِمَةٍ

صَادِرَةٍ مِنْ فَمِ الله، فهو الذي أَطْعَمَ 350

آباءنا هنا بالمَنِّ والسَّلْوَى، ولقد مَكَثَ مُوسى

في الجَبَلِ أَرْبَعِين يومًا، لَمْ يَأْكُلْ فيها أو يَشْرَبْ،

وظل إيليَّا دُونَ طعام أربعينَ يَوْمًا

يَتَجَوَّلُ في هذه البَرِّيَّةِ القاحِلَةِ، مِثْلِي الآن:

فلماذا تُوحِي لي إذَنْ بِأَنْ أَرْتَابَ، 355

ما دُمْتَ تَعْرِفُ مَنْ أنا، مثلما أَعْرِفُ مَنْ أَنْت؟

وإذَا بالشَّيطَانِ الأكْبرِ يَنزِعُ تنكُّرَهُ ويُجيبُه قائلاً :

صَدَقْت! فإنني أنا الروحُ الذي ساءَ حَظُّهُ

إذْ تَكَاتَفْنا أنا ومَلاَيينُ سِوايَ في تَمرُّدٍ أرْعَنَ أَخْرَقَ

ولَمْ أُحَافِظْ على مَكَانَتِي الهَانِئَةِ، بَلْ طُرِدْتُ 360

مَعَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم إلى الخِضَمِّ الذي لا قَاعَ لَهُ،

وإنْ لَمْ ألبَثْ حَبِيسًا في ذَلِكَ المَكَانِ البَشِعِ

بفَضلِ قُوَّتِي التي لا تَغْفُلُ، بل إنَّنِي كَثِيرًا ما

أُغَادِرُ مَحْبَسِيَ المؤلمَ حتى أَتَمَتَّعَ

بالانطلاقِ حُرًا أجوبُ أَرْجَاءَ هذه الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ، 365

أو أُحَلِّقُ في أَجْوَازِ الفَضَاءِ، بلْ إنَّ سماءَ السماواتِ

لم يكن يُغْلِقُها في وَجْهِي أو يحولُ بيني وبينَها أحيانًا.

ولقد جئتُ بينَ أَبْنَاءِ الله يَوْمًا، وعندها

وَضَعَ بَيْنَ يَدَيَّ أَيُوبَ في أرض عُوصَ

حتى أَبْتَلِيَهُ، وأُبَيِّنَ عمليًا مَنْزِلَتَهُ السامية؛ 370

وعندما سألَ كُلَّ ملائكتِه عَمَّنْ يستطيعُ أنْ

يُغْرِيَ أَخْآبَ، الملكَ المتكبرَ، على الخُروجِ إلى الخَدِيعَةِ

والسُّقُوطِ في رَامُوتَ، وتقاعَسَ الجميعُ وتَرَدَّدُوا،

قُمْتُ أنا بالمُهِمَّةِ، ونَجَحْتُ في أنْ أجعلَ أَلْسِنَةَ

جميعِ أنبيائه المُدَاهِنينَ ذاتَ ذرابَةٍ في الكَذِبِ 375

فتحقَّقَ هلاكُه، وَفْقَ ما تَعَهَّدْتُ له بإنجازِهِ.

إذْ إنَّني أفعلُ كُلَّ ما يطلُبُه مِنِّي، وعلى الرغم مِنْ فُقْدَانِي كثيرًا

مِنْ بَهَاءِ بَرِيقِي الأَصِيلِ، وفُقْدَانِي
حُبَّ الله لي، فإنَّني لَمْ أَفقِدِ القُدْرَةَ على
أَنْ أُحِبَّ، أو على أَنْ أتأمَّلَ وأُعْجَبَ 380
بكُلِّ ما أراهُ ممتازًا في الخَيْرِ أو العَدْلِ
أو الفَضِيلَةِ، وإلاَّ لكُنْتُ في عِدادِ مَنْ فَقَدَ عَقْلَهُ كُلَّهُ.
وكيفَ يُخَامِرُني إحساسٌ يَقِلُّ عَنْ الرَّغْبَةِ
في أنْ أراكَ وأقْتَرِبَ منكَ وأنا أَعْلَمُ
ما أُعْلِنَ منْ أنَّكَ ابنُ الله، وأنْ أُصْغِيَ بانْتِبَاهٍ 385
إلى حِكْمَتِكَ وأَشْهَدَ أَعْمالَكَ الرَّبَّانِيَّةَ؟
الناسُ عُمُومًا يَرَوْنَ فِيَّ العَداءَ إلى حَدٍّ بعيدٍ
لِلْبَشَرِيَّةِ جمعاءَ، فما الذي يُوجِبُ عَلَيَّ عَدَاءَهُمْ؟ إنهمْ
لمْ يُسِيئُوا إليَّ يومًا أو يَعْتَدُوا عليَّ، ولمْ يكونوا السببَ
في فُقْدانِي ما فَقَدْتُ، بل إنهم كانوا السببَ في 390
اكْتِسَابي ما اكْتَسَبْتُ، وأنا أعيشُ مَعَهُمْ
فأشارِكُهمْ الحياةَ في أَصْقَاعِ هذا العالَمِ
إنْ لمْ يكُنْ التَّصرُّفَ فيها، وكثيرًا ما أُقَدِّمُ لهم العَوْنَ
أو المَشُورَةَ بالنُّذُرِ والدَّلاَلاَتِ
والإجاباتِ والنُّبُوءَاتِ والبَشَائِرِ والأَحْلاَمِ، 395
وهي التي قد تُسَاعِدُهُمْ على رَسْمِ مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ.
وهُمْ يقولونَ إنَّ دافعي هو الحَسَدُ؛ أيْ إنَّني أَبْغي اكتسابَ
رفاقٍ لي في شَقَائِي وآلامِي، ورُبَّما كانَ ذلكَ

صَحيحًا في البدَايَةِ، ولكنَّ طولَ صُحْبَتِي للألَم

ومَعْرِفَتي بهِ عَنْ كَثَب تجعلُني أشعرُ الآنَ بالحَصَانَةِ تُجاهَهُ، 400

وأنَّ الصُّحْبَةَ في الألَمِ لا تُوَزِّعُ الإحْسَاسَ بالألَمِ بَيْنَ الأصْحَابِ،

ولا تُخَفِّفُ مِنْ ثِقَلِ الألَمِ الذي يتحملُهُ كلُّ فَرْدٍ على حِدَةٍ.

ما أَهْوَنَ عَزَائِي وسَلْوَتِي إذَنْ لوْ كانَ الإنْسَانُ رَفيقًا وصَاحِبًا،

وأَشَدُّ ما يَجْرَحُنِي (وكيف لا؟) أنْ يستطيعَ الإنسانُ الذي

هَبَطَ مِنَ الجَنَّةِ أنْ يعوَد إليْها، ولَنْ أَقْبَلَ هذا قَطُّ. 405

وأجابَهُ مُخَلِّصُنا إجابةً صارمَةً قائلاً:

إنك تستحقُّ ما تُكَابِدُهُ مِنْ أَحْزَانٍ، يا مَنْ تَشَكَّلْتَ مِنْ أكاذيبَ

مُنْذُ البدَايَةِ، وسوفَ تَنْتَهِي كذلكَ بأكَاذِيبَ.

إنَّك تَتَفَاخَرُ بأنَّك أُطْلِقَ سراحُك مِنَ الجَحيمِ فتركْتَها وأتيتَ

إلى سَمَاءِ السَّمَاوَاتِ، ولا شَكَّ أنك أتيتَ إليْها، ولكنْ 410

باعْتِبَارِكَ عَبْدًا أَسيرًا شَقِيًّا مِسْكِينًا

يَأْتِي إلى المَكَانِ الذي كانَ يتربعُ فيه جالسًا

في بهاءٍ بين الكِبَارِ المُقَدَّمِين، بَعْدَ أنْ خُلعَ فَغَدا طريدًا

خاوِيَ اللُّبِّ زائغَ النَّظراتِ لا يَرْثِي لهُ أحدٌ ويتحاشاهُ الكُلُّ،

صورةً للانْهيارِ أو الاحْتِقَارِ 415

في أَعْيُنِ المَلأِ الأَعْلَى جميعًا، بل إنَّ مَرْتَعَ الهَنَاءِ

لا يأتيكَ بِهَنَاءٍ، ولا يبعثُ فيك الفَرَحَ،

بلْ يُلْهِبُ عذابَك الأليمَ؛ إذْ يُمَثِّلُ لَكَ ويُذَكِّرُكَ

بالنَّعيمِ المَفْقُودِ الذي حُرِمْتَ مِنْهُ الآنَ

وإذنْ فلَنْ ترَىَ في الجَحِيم أبدًا ما رَأيْتَهُ في الجَنَّةِ. 420

ولكنك تَخْدُمُ الآنَ مَليكَ السَّماء.

فَهَلْ تَنسبُ إلى الطاعةِ الأفْعَالَ التي يَدْفعُكَ الخَوْفُ

قَسْرًا علَيْها أو لَذَّةُ الإساءَةِ والإيذاء؟

وما الذي دَفعَكَ سِوَى خُبْثِكَ على سُوءِ تَقْديرِ

صَلاَحِ الصَّالِحِ أيُّوبَ، ثم إلى ابْتِلائِهِ بِقَسْوَةٍ 425

بِصُنُوفِ الآلامِ جميعًا، ولكنَّ صَبْرَهُ فازَ أخيرًا؟

والخِدْمَةُ الأُخْرَى كانت تُمَثِّلُ مُهِمَّتَكَ المختارة؛ أيْ

أنْ تُمارِسَ الكَذِبَ في أفْواهِ أربعمائةِ رَجُلٍ،

إذْ إنَّ الكَذِبَ قِوَامُ حَيَاتِكَ، وغِذَاؤُكَ.

ولكنك تزعمُ قَوْلَ الحَقِّ، وأَنَّ جميعَ المُتَنَبِّئِينَ 430

يَسْتَقُونَ نُبُوءاتِهِم منك، فما الذي ثَبَتَ أنه الأصدقُ

بين الأُمَمِ؟ وأمَّا حيلتُكَ فكانتْ أنْ تَخلِطَ

بَعْضَ الصِّدْقِ بِنُبُوءَاتِكَ حتى تَزِيدَ مِنْ أكاذيبِكَ.

ولكنْ بِمَ كنتَ تجيبُ السائلين، إلاَّ أقْوَالاً مُبْهَمَةً

غامضةً تَخْدَعُ السَّامِعَ بما تَحْمِلُهُ مِنْ مَعَانٍ مُزْدَوَجَةٍ 435

نادرًا ما كانَ سَائِلُوكَ يَفْهَمُونَهَا

وما لا يَحْسُنُ فهمُه لا تزيدُ قيمتُه عما هو مَجْهُول؟

مَنْ ذا الذي قَصَدَ مَزَارَكَ لِلْمَشُورَةِ

فَعَادَ أعْلَمَ أو أحْكَمَ أو أقْدَرَ على

تَفَادِي أمْرٍ جَلَلٍ أو اتِّباعِ ما يأتيهِ بالخيرِ 440

بلْ وسُرْعَانَ ما انْقَلَبَ فَوَقَعَ في الشَّرَكِ القَاتِلِ؟

إذْ إنَّ اللهَ على حَقٍّ في تَرْكِ الأُمَم
لأَوْهَامِها الخَادِعَةِ، وهُوَ مُحِقٌّ لأنَّ هذه الأُمَمَ غَدَتْ
وثَنِيَّةً، ولكنه حينَ تَقْضِي مشيئتُه بأنْ
يُعْلِنَ عنْ عِنَايَتِه الإلهيةِ بيْنَ أفرادِها، 445
وهي التي تَجْهَلُها أنتَ، فأنتَ تَسْتَقِي من ذلك
ما تَأْتِي بهِ مِنَ الصِّدْقِ، إمَّا مِنْ عِنْدِ الله أو مَلائِكَتِهِ التي
تَرْأَسُ كُلَّ مُقَاطَعَةٍ، فما دَامَتْ الملائكةُ تَأْنَفُ
الاقترابَ مِنْ مَعَابِدِكَ، فإنها تَمْنَحُكَ العِلْمَ، وأنت رأسُ المَعْبَدِ،
بكُلِّ ما سوفَ تَقُولُهُ، وبأَقْصَى قَدْرٍ مِنَ الدِّقَّةِ، 450
لِلَّذينَ يَعْبُدُونَكَ. وأنتَ تُطِيعُها مُرْتَعِدًا في فَرَقٍ،
أو مثل الطُّفَيْليِّ المُتَمَسِّحِ بِسَيِّدِهِ مَلَقًا،
ثم تَنْسِبُ لنفسكَ ما تَنَبَّأْتَ بِهِ مِنَ الصِّدْقِ.
ولكنَّ مَجْدَكَ هذا سَرْعَانَ ما يَنْطَمِسُ اليومَ
ولنْ تستطيعَ بَعْدَ الآنَ أنْ تَخْدَعَ بالنُّبُوءَاتِ أَبْنَاءَ 455
الأُمَمِ، والنُّبُوءَاتُ تتوقفُ منذُ اليَوْمِ،
ولَنْ تَقْدِرَ بَعْدَ اليَوْمِ أنْ تَشْهَدَ البَهْرَجَةَ والأُضْحِيَاتِ
التي يُقَدِّمُها طَالِبُو التَّنَبُّؤِ في دِلْفُوسْ أو غَيْرِهَا،
أو سوفَ يَذْهَبُ ذلك عَبثًا، لأنهم سيجدونك أَبْكَمَ.
لقد أَرْسَلَ اللهُ الآنَ نُبوءَتَهُ الحَيَّةَ 460
في هذه الدنيا، لِتَعْلِيمِ مَشِيئَتِه النهائية،
وهو يُرْسِلُ رُوحَ الحَقِّ مِنْ لَدُنْهُ منذُ هذه اللحظة

لِتَسْكُنَ في قُلُوبِ الأتقياء، وهي نُبُوءَةٌ باطنةٌ
تأتي بِكُلِّ ما سوفَ يَعْرِفُهُ النَّاسُ مِنَ الحَقِّ.
كان ذلك ما قاله مُخَلِّصُنا، ولكنَّ الشيطانَ الداهيةَ، 465
رغمَ ما يَلْدَغُهُ في الباطِنِ مِنْ غَضَبٍ وحَنَقٍ،
تَظَاهَرَ بغير ذلك وأَجَابَهُ هذه الإجابَةَ المَعْسُولَةَ:
لَكَمْ أَصْرَرْتَ على تأنيبي تَأْنيبًا حادًا،
ولُمْتَني لَوْمًا شديدًا على فِعَالي فما انْتَزَعْتَ مِنِّيَ الإرادةَ
بلْ انتزعتَ مِنْ نَفْسي الشَّقَاءَ وحَسْب؛ إِذْ إِنِّي 470
يَتَيَسَّرُ لَكَ أَنْ تَجِدَ كائِنًا شَقِيًّا
لا يُضْطَرُّ كثيرًا إلى الابْتِعَادِ عَنِ الحَقِّ،
فَرُبَّما وَجَدَ فَائِدَةً أكبرَ في الكَذِبِ، أو
في القَوْلِ والإنكار، أو التَّصَنُّعِ، أو المَلَقِ أو الحِنْثِ؟
ولكنَّكَ في مَرْتَبَةٍ أَسْمَى مِنِّي، فأنتَ سَيِّدٌ، 475
وأستطيعُ بلْ يَجِبُ أَنْ أَحْتَمِلَ مِنْكَ مُسْتَسْلِمًا
التأنيبَ أو اللَّوْمَ، ويَسُرُّني أنِ اقْتَصَرَ إبراءُ ذِمَّتي على ذلك.
ما أَشَقَّ سُبُلَ الحَقِّ وأَشَدَّ وُعُورَتَها على السَّائِرِ فيها،
وما أَرَقَّ كلماتِهِ على اللِّسَانِ وأَعْذَبَ وَقْعَهَا في الأُذُنِ!
وما أَجْمَلَ جَرْسَهَا، كأنها لَحْنُ النَّايِ أو الأُغْنِيَةِ في الخَمِيلَةِ، 480
ولا غَرْوَ إِذَنْ أَنْ أَبْتَهِجَ لِسَماعِ ما تُمْليهِ
رَبَّةُ الحَقِّ على لِسَانِك! فمعظمُ الناسِ يُعْجَبُونَ بالفضيلةِ
وإنْ لَمْ يَتَّبِعُوا ما تُوصِي بهِ؛ وإِذَنْ فاسْمَحْ لي

أنْ أَسْمَعَكَ حين آتي (ما دامَ البَشَرُ لا يأْتُونَ)

وأنْ أتكلَّمَ على الأقَلِّ، على الرَّغمِ مِنْ يأْسِي مِنْ تحقيقِ شيءٍ! 485

إنَّ أبَاكَ، وهو القُدُّوسُ الحكيمُ الطَّهُورُ

يَسْمَحُ للكاهِنِ المُنَافِقِ أو المُلْحِدِ بأنْ

يَطَأَ أرْضَ بُيُوتِهِ المُقَدَّسَةِ، وأنْ يُمَارِسَ الشَّعَائِرَ

في هَيْكَلِهِ، وأنْ يَتَناوَلَ المُقَدَّسَاتِ بِيَدَيْهِ،

وبالصَّلاةِ وحِلْفِ الأَيْمَانِ، بلْ وتكَرَّمَ بإعَارَةِ صَوْتِهِ 490

للفاسِقِ بَلْعَامَ، وهو بَعْدُ نَبيٌّ يُوحَى إليْهِ،

وإذنْ فلا تَسْتَهْجِنْ لِقَائي بك أو تَحْتَقِرْهُ.

وأجابَهُ مُخَلِّصُنا دونَ أنْ يَتَغَيَّرَ تعبيرُ مُحَيَّاهُ قائلاً:

إنَّ قُدُومَكَ إلى هُنا، وإنْ كنتُ أعرفُ غايَتَكَ،

أمرٌ لا أَطْلُبُه ولا أَمْنَعُه، فافعَلْ ما تَجِدُ أنَّه 495

مَسْمُوحٌ لَكَ بِهِ مِنَ الله، ولَنْ تَستطيعَ سِوى ذَلك.

ولمْ يُضِفْ شيئًا إلى هذا، فانْحَنَى إبليسُ راكعًا

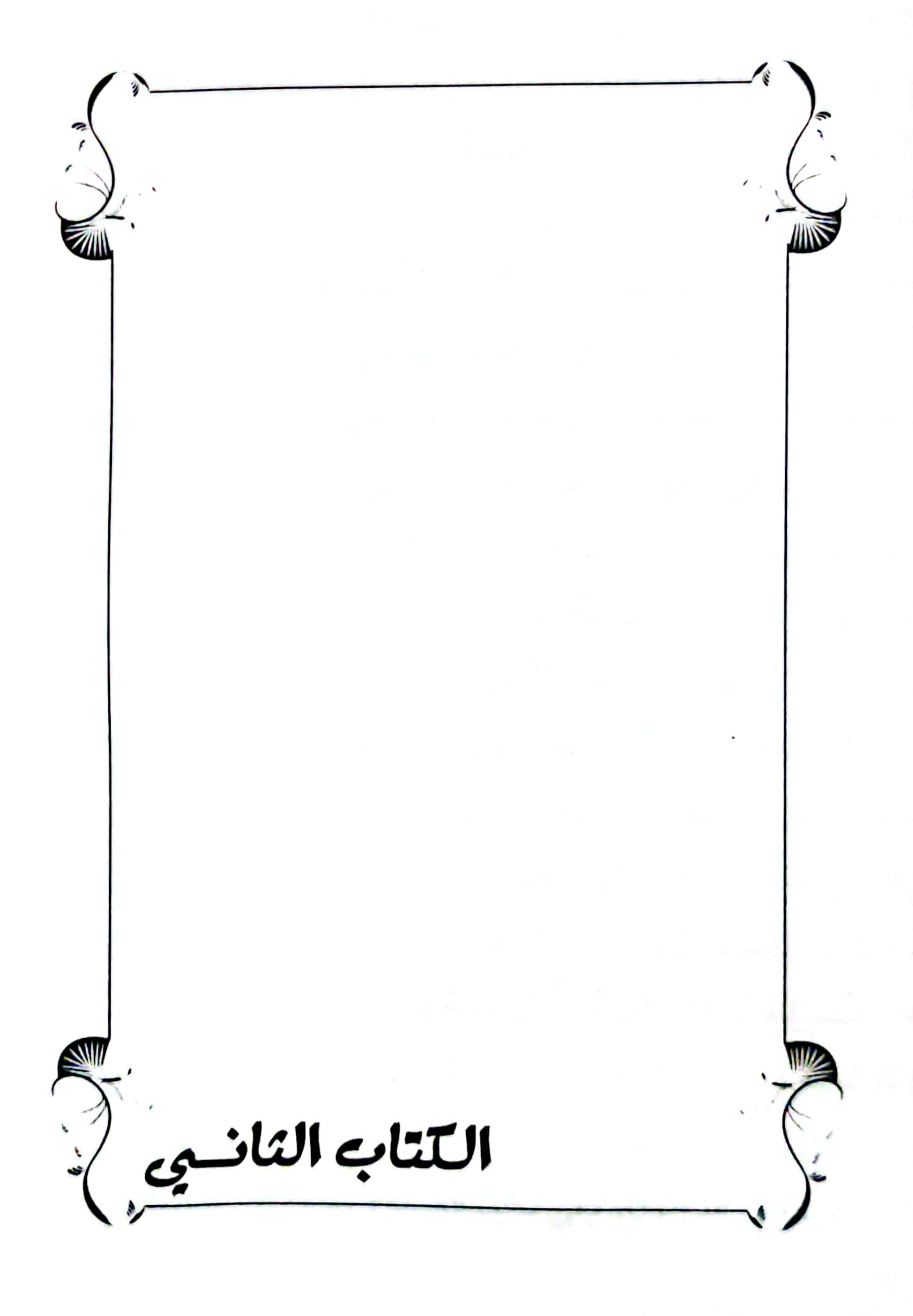
في إيماءَةِ تَصَنُّعٍ باهتةٍ، ثم اخْتَفَى

ذائبًا في أرَقِّ ذَرَّاتِ الهَوَاءِ؛ إذْ كانَ اللَّيْلُ قد

هَبَطَ بِجَنَاحِه الأدْكَنِ لِيُلْقِيَ بالظِّلَالِ الكثيفة 500

على الصَّحْرَاءِ، وأَوَتِ الطُّيُورُ مُلْتَحِفَةً بأَعْشَاشٍ من الصَّلْصَالِ،

وانْطَلَقَتِ الوُحوشُ البَرِّيَّةُ تتجولُ في الغَابَاتِ.



الكتاب الثانــي

وفي أثناءِ ذلكَ ظَلَّ اللّذانِ عُمِّدا لِتَوِّهِمَا
عِنْدَ نَهرِ الأُرْدُنِ مَعَ المعمدان، وكانَا قَدْ شَاهَدَا
الرَّجُلَ الذي سَمِعَا منذ آونَةٍ قَريبةٍ مَنْ يَدْعُوهُ صَرَاحَةً
يَسُوعَ المَسِيحَ ويُعْلِنُ أَنَّهُ ابْنُ الله،
ولمّا كان المُتَحَدِّثُ من الثِّقاتِ العُلْيَا صَدَّقَاهُ 5
وتَحَدَّثَا معه، وأقامَا معه، وأَعْنِي بهما
أَنْدرَاوِسَ وسِمْعَانَ، وهما اللَّذَانِ اشْتَهَرا فيما بَعْدُ وعُرِفا
مع آخَرِينَ وإِنْ لَمْ تَرِدْ أَسْمَاؤُهُمْ في الكِتَابِ المُقَدَّسِ،
والآنَ غابَ عَنْ بَصَرِهِما فَغَابَ الفَرَحُ الذي تَأَخَّر مَجِيئُهُ؛
إِذْ ما أَشَدَّ ما تَأَخَّر في الوُصولِ وأَشَدَّ ما فَاجَأَهُمْ بالرَّحِيلِ، 10
وتَسَرَّبَ الشَّكُّ إِلَيْهِمَا، وساوَرَهُما الارْتِيَابُ أَيَّامًا كَثِيرَةً،
وكُلَّما كَرَّتْ الأَيَّامُ ازْدَادَ الشَّكُّ عِنْدَهُما،
فأحيانًا كانا يَظُنَّانِ أَنَّهما لَمْ يُشَاهِدا إلا صُورَتَه
وأَنَّه رُفِعَ إلى الله وَقْتًا مَعْلُومًا، مثلما حَدَثَ ذاتَ يَوْمٍ
عِنْدَما كانَ مُوسَى في الجَبَلِ وغَابَ رَدحًا طَويلاً، 15
ومِثْلَ التِّشْبِيِّ العَظِيمِ الذي امْتَطَى عَجَلَةً مِنْ نَارٍ
صَعَدَ فيها إلى السَّمَاءِ، كَيْما يَعُودَ ثانيًا بَعْدَها.
وهكذا فَمِثْلَمَا قامَ أولئك الأَنْبِيَاءُ الشُّبَّانُ بالبَحْثِ
عنْ إيليَّا المفقودِ بدِقَّةٍ بالغة، قامَ هؤلاءِ بالبَحْثِ في كُلِّ مكانٍ
قريبٍ مِنَ بَيْتِ عَنْيَا، في أَرِيحا 20
مدينةِ النخيلِ، وفي عَيْنِ نُونٍ، وفي سَاليمَ العريقةِ،

وفي مخايروسْ، وفي كل بَلَدٍ ومدينةٍ مُسَوَّرَةٍ
على هذا الجَانِبِ مِنْ بَحْرِ الجَلِيلِ الرَّحِيبِ،
أو في بِيرْيا، ولكنَّهمْ عَادُوا دونَ أنْ يَجِدُوه.
وعندما انْتَهَوْا إلى شَطِّ نهر الأُرْدُن، إلى جوارِ رافدٍ صغيرٍ 25
تَلْهُو فَوْقَهُ النسائمُ بِذَوَائِبِ القَصَبِ والصَّفْصَافِ الهامِسِ،
أوىَ هؤلاء الصَّيَّادُونَ البسطاءُ، فالناسُ لا يَدْعُونَهُمْ بأَسْمَاءٍ أَفْخَمَ،
إلى كوخٍ قريبٍ مُتَوَاضعٍ وجَعَلُوا يَنْفُثُونَ معًا إحْسَاسَهُمْ
بالفُقْدَانِ الذي لم يَتَوَقَّعُوهُ ويَجْأَرُونَ بِشَكْوَاهُمْ قائلين:
وا أَسَفَا! ما أَعْجَبَ ما سَقَطْنَا من قِمَمِ الآمالِ العُلْيَا 30
إلى هُوَّةٍ نَكْسَةٍ لَمْ نكُنْ نُرِيدُها، إذْ شَاهَدَتْ عُيُونُنا
قدومَ المَسِيحِ حقًّا وقَطْعًا، وهو الذي طالَ
انتظارُ آبائِنا له، ولقد سَمِعْنا كَلِمَاتِهِ،
وسَمِعْنَا حِكْمَتَهُ الحافلَةَ بالرَّحْمَةِ والحَقِّ،
وقُلْنَا: الآنَ باتَ الخَلاَصُ وَشِيكًا ولا شَكَّ، 35
ولابُدَّ أنْ تَرْجِعَ مملكةُ بَنِي إسْرَائِيل،
وغَمَرَنَا الفَرَحُ بذلك، ولكنْ سَرْعَانَ ما تَحَوَّلَ فَرَحُنَا
إلى الحَيْرَةِ والارتباكِ والتَّخَبُّطِ مِنْ جَدِيدٍ إذْ جَعَلْنَا
نتساءلُ أينَ مَضَى؟ أَيَّةُ حادِثَةٍ وَقَعَتْ
فاخْتَطَفَتْهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينا؟ هل يَتَوارى الآنَ 40
بعد ظُهُورِهِ، حتَّى يُطِيلَ مَرَّةً أُخْرى
انْتِظَارَنا لَهُ؟ ندعوكَ يا إلهَ بَنِي إسْرَائِيلَ

أنْ تُرْسِلَ مَسيحَكَ إلينَا فلقد حانَ الوَقْتُ ؛
وانظُرْ مُلوكَ الأَرْض وكيف يَقْمَعُونَ ويَظْلِمُونَ
مَنْ اصْطَفَيْتَهُمْ ، وانْظُرْ إلى أيةِ ذِرْوَةٍ يَرْفَعُونَ جَبَرُوتَهُم 45
الظالمَ ويُلْقُونَ وَرَاءَهُم ظِهْرِيًا
كُلَّ خَوْفٍ مِنْك ! ندعوك أنْ تقومَ لإعْلاَءِ شَأْنِ
مَجْدِكَ ، وتَحْرِيرِ شَعْبكَ مِنْ نيرِهِمْ ،
ولكنْ فَلْنَنْتَظِرْ ، لقد أدَّى جانبًا مِنْ رِسَالَتِه ،
إذْ أَرْسَلَ مَنْ مُسِحَ بالزَّيْتِ المُقَدَّسِ على رأْسِهِ وكشَفَ لنا 50
عَنْهُ نَبِيُّهُ العظيمُ ، بلْ وأشارَ إليْهِ وعَرَضَهُ علينا
علنًا ، بلْ ولقد تَخاطَبْنَا مَعَهُ .
فَلْنَسْعَدْ بذلكَ ونَفْرَحْ ، ولْنَثِقْ أنَّ مَخاوِفَنا جَمْعَاءَ
سوف تُبَدِّدُها عِنَايَتُهُ الإلهية ، إذْ لَنْ يَخْذُلَهُ الآنَ
ولَنْ يَقْضِيَ بِعَوْدَتِه إليْه الآنَ أو يَسْتَدْعِيه إليْهِ ، 55
ولَنْ يَخْدَعَنا بِمَرْآهُ المُبَارَكِ مَرَّةً ثم يَخْتَطِفَهُ مِنَّا إليْهِ
وسرعانَ ما نَشْهَدُ عَوْدَةَ أَمَلِنا ورُجُوعَ فَرْحِنَا .
وهكذا اسْتَمَدُّوا في غَمْرَةِ شَكَاوَاهُمْ أملاً جَدِيدًا في
العُثورِ على مَنْ وَجَدُوهُ بينَهم أوَّلَ الأمرِ دونَ بَحْثٍ أو سَعْيٍ .
ولكنْ فَلْنَعُدْ إلى أُمِّهِ مَرْيَمَ ؛ إذ إنَّها حينَ رَأَتْ 60
عَوْدَةَ الآخرينَ مِنَ التعميد ، دُونَ أنْ يَعُودَ وَلَدُهَا ،
أوْ يَبْقَى عِنْدَ نهرِ الأُرْدُن ، ودُونَ أَيَّةِ أنباءٍ عَنْهُ ،
أَحَسَّتْ في صَدْرِها ، رَغْمَ اطْمِئْنَانِها ، ورَغْمَ طَهَارَةِ صَدْرِها ،

بِبَوَاعِثِ قَلَقِ الأُمِّ ومَخَاوِفِها، وخَامَرَتْها

بَعْضُ أفكارِ كَدَرٍ واضْطِرَابٍ، فَكَسَتْهَا تَنَهُّدَاتٍ قائلةً: 65

ماذا أَفَدْتُ الآنَ مِنْ ذلكَ الشَّرَفِ الرفيع

الذي نِلْتُهُ حينَ قَضَى الله بحَمْلي، أو مِنَ التَّحِيَّةِ التي قالت

إنه اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ على نِسَاءِ العَالَمين،

إذا كنتُ قد سِرْتُ طَويلاً في طريقِ الأحزانِ

والمخاوفِ فتَفَوَّقْتُ في هذهِ وتلكَ على ما نَالَتْهُ 70

نساءُ العَالَمين، بِسَبب ما وَضَعْتُ مِنْ حَمْلِي،

وهو الذي جاءَ في وَقْتٍ لا أكادُ أَجِدُ فيه

سَقِيفَةً تُؤْوِيهِ أو تُؤْوِيني وتَقِيني وإِيَّاهُ

شَرَّ الهواءِ الكئيبِ، فَطَلَبْنَا الدِّفْءَ في حَظِيرَةٍ

وطَلَبَ هُوَ الدِّفْءَ في مِذْوَدٍ، وسَرْعَانَ ما اضْطُرِرْنَا إلى 75

الفِرَارِ إلى مِصْرَ، والانتظارِ حتى يَمُوتَ المَلِكُ السَّفَّاحُ

الذي كانَ يُرِيدُ قَتْلَ وَلَدِي، ولمَّا لَمْ يَعْثُرْ عَلَيْه

مَلأَ شَوَارِعَ بَيْتِ لَحْمٍ بِدِمَاءِ الأَطْفَالِ الرُّضَّعِ.

وعُدْتُ إلى وَطَنِي مِنْ مِصْرَ، واتَّجَهْتُ إلى النَّاصِرَةِ

حيثُ أَقَمْتُ سنواتٍ كثيرةً، وحيثُ ابْتَعَدَ في حَيَاتِهِ 80

عَنْ النَّاسِ، مُفَضِّلاً السُّكُونَ والهُدُوءَ والتَّأَمُّلَ،

وهي صفاتٌ لا تكادُ تثيرُ الرِّيبةَ في قلبِ أيِّ مَلِكٍ، ولكنه الآنَ

قد بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، واعْتَرَفَ بِهِ، كما سَمِعْتُ،

يُوحَنَّا المعمدان، كما أَثْبَتَ على المَلأِ أنه

الابنُ الذي يَنْتَمِي لِلسَّماءِ بِشَهادَةِ صَوْتِ أبيه نَفْسِه . 85
وتَوَقَّعْتُ تَغَيُّرًا عَظيمًا ، فهلْ كانَ التَّحَوُّلُ إلى التكريم؟ لا
بل إلى المتاعب ، على نحو ما تنبَّأَ به سِمْعَانُ الهَرِمُ صَرَاحَةً ،
قائلاً إنه جُعِلَ لِسُقُوطِ الكثيرين وقِيَامِ الكثيرين
مِنْ بَنِي إسرائيل ، وإنَّهُ سَيُصْبِحُ آيَةً
تُقَاوَمُ ، وبأنَّ ذَاتِي نَفْسَها سَوْفَ 90
يَخْتَرِقُها سيفٌ ما ، وذلك إذنْ ما اصْطُفِيتُ لَهُ ؛
أيْ ارتفاعي إلى ذِرْوَةِ العَذَابِ والآلام ؛
وربما أكونُ مُعَذَّبَةً ، فيما يبدو ، ومُباركةً ؛
ولَنْ أجادِلَ في هذا أو أَتَبَرَّمَ به ،
ولكنْ أينَ تُراهُ الآنَ ولماذا تأخَّرَ؟ لابُدَّ أنَّ غايةً عُظْمى 95
تُخْفيه عَنْ بَصَرِي ، فعندما لَمْ يَكُنْ قد أَتَمَّ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ
افْتَقَدْتُهُ ولكنني حينَ وَجَدْتُهُ أدركتُ بوضوحٍ
أنه مِنَ المحالِ أنْ يَفْقِدَ نَفْسَهُ ، بل يَجْتَهِدُ في أمْرٍ
مِن أُمُورِ أبيه ، وحينما قالَ لي ذلك دَهِشْتُ وإنْ كنتُ
أفهمُ ما قاله الآنَ . فالأرجَحُ أنَّ غِيَابَهُ الطويلَ 100
عَنِّي الآنَ له غايةٌ عُظْمى لا يَوَدُّ الإفصاحَ لي عَنْها .
ولكنَّنِي اعْتَدْتُ الانتظارَ صَابِرَةً ،
ولَطَالَمَا اخْتَزَنَ قَلْبِي أمورًا كثيرةً
وأقوالاً تراكَمَتْ تُبَشِّرُ بوُقُوعِ أحداثٍ غَرِيبَةٍ .
ما أكثرَ ما كانَ ذلكَ يَشْغَلُ بالَ مَرْيَمَ ، وما أكْثَرَ 105

ما كانتْ تَستَدْعِي لِذَاكِرَتِها أحداثَ المَاضي البَارِزَةَ
مُنذ أنْ سَمِعَتِ التحيةَ أولَ مَرَّةٍ، إلى جانب أفكارٍ
صاغَتْها بِتَوَاضُعٍ وتَتَوَقَّعُ تَحْقيقَها:
وكانَ وَلَدُها في هذه الأثْناءِ يَذْرَعُ الفَلاَةَ البَرِّيَّةَ
وَحِيدًا ولكنْ تَغْذُوهُ أَقْدَسُ التَّأَمُّلاَتِ، 110
وغاصَ في بَاطِنِ ذَاتِه فَشاهَدَ على الفَوْرِ
العَمَلَ العَظِيمَ الذي يَنْتَظِرُهُ بكلِّ تَفَاصِيله مَرْسُومًا أمامَهُ؛
فكيفَ يبدأُ، وما أَفْضَلُ سُبُلِ تَحْقِيقِ الغَايَةِ
مِنْ وُجُودِهِ على الأَرْضِ، وإبلاغِ رِسَالَتِهِ العُلْيا:
إذْ إنَّ إبليسَ الذي أَشَارَ إشارةً خَبِيثَةً إلى عَوْدَتِهِ 115
تَرَكَهُ في فراغٍ حِينَ رَحَلَ مُسْرِعًا طَائِرًا
إلى المِنْطَقَةِ الوُسْطَى مِنَ الهَوَاءِ الكثيفِ حيثُ كانَ
جميعُ المُقَدَّمِينَ مِنَ الزُّعَمَاءِ مُجْتَمِعِينَ في المَجْلِسِ،
فَوَقَفَ بينَهُم لا يُبْدِي دَلِيلاً على التَّفَاخُرِ أو على الفَرَحِ
وشَرَعَ يتحدثُ إليْهِم بنبراتِ الحَذِرِ الوَجِلِ الحائرِ قائلاً: 120
أيها الأُمَرَاءُ! يا أَبْنَاءَ السَّمَاءِ ذوي العَرَاقَةِ، وذوي العُرُوشِ الأثيرية،
يا مَنْ أَصْبَحْتُمْ الآنَ أَرْوَاحًا شيطانيةً، تَنْتَسِبُونَ إلى العَنَاصِرِ
التي خُصِّصَتْ لِحُكْمِ كُلٍّ مِنكُمْ، والأَصَحُّ أنْ أَدْعُوَكُمْ
قُوَى النَّارِ والهَوَاءِ والمَاءِ والترابِ من تَحْتِنا،
ولْيُكْتَبْ لنا أنْ نَحْتَفِظَ بِمَنْزِلَتِنا وهذه المَقَاعِدِ اللَّطِيفَةِ 125
دونَ مَتَاعِبَ جَدِيدَةٍ! لقد بَرَزَ عَدُوٌّ لدودٌ لنا،

وقامَ لِيَغْزُونَا بل إنه يُهَدِّدُنا بما لا يَقِلُّ
عن طَرْدِنا وإقْصَائِنَا وإسْقَاطِنَا في الجَحِيم؛
لقد قُمْتُ بالمُهِمَّةِ، وَفْقَ ما تَعَهَّدْتُ بِهِ، وبِنَاءً على التَّصْوِيتِ
الذي وَافَقْتُمْ فيه بالإجْمَاعِ على تَخْوِيلِي تلكَ السُّلْطَةَ، 130
فَذَهَبْتُ إليْهِ، وشاهَدْتُهُ، واخْتَبَرْتُه، ولكنني اكتشفتُ
أنَّ أمامي عَملاً آخَرَ يختلفُ اختلافًا بيِّنًا
عمَّا قمتُ بِهِ مع آدمَ، أوَّلِ البَشَرِ،
فَرَغْمَ أنَّ آدمَ قد سَقَطَ بفضلِ غِوَايَةِ زَوْجَتِهِ،
فإنه يَقِلُّ كثيرًا في المَكَانَةِ عنْ هذا الرَّجُلِ، 135
فإن هذا الرَّجُلَ، وإن كانَ بَشرًا، بالانْتِسَابِ لأُمِّهِ على الأقَلِّ،
قد زُيِّنَ بِشَمَائِلَ مِنَ السَّماءِ تَفُوقُ مَوَاهِبَ البَشَرِ،
فَلَهُ صِفَاتُ كمالٍ مُطْلَقَةٌ، ومَنَاقِبُ رَبَّانِيَّةٌ،
ولَدَيْهِ سَعَةٌ في النَّفْسِ شَاسِعَةٌ تَطْلُبُ أعظمَ الفِعَالِ،
ومن ثَمَّ فقد عُدْتُ إلَيْكُم، كيلا تَخْدَعَكُمْ الثِّقَةُ في أن 140
أَسْتَطِيعُ مجاراةَ نَجَاحِي مع حَوَّاءَ في الفِرْدَوْسِ
أو تَقْتَنِعُوا اقْتِنَاعًا مُبَالَغًا فيهِ بِأَنْ أتمكَّنَ
من إحْرَازِ نَجَاحٍ مماثلٍ في هذهِ المَرَّةِ، ولكنَّنِي أَدْعُوكُمْ جَمِيعًا
أنْ تَتَجَهَّزُوا وتَتَأَهَّبُوا لِلْمُسَاعَدَةِ، بِقُوَّةِ السَّاعِدِ
أو بإسْدَاءِ المَشُورَةِ، حتى لا أَجِدَ أنَّنِي، مِنْ بَعْدِ أنْ 145
ظَنَنْتُ أنه لا كُفْءَ إليَّ ولا نَظِيرَ، أُوَاجِهُ خَصْمًا أَفْضَلَ.
وانتهى الثعبانُ القديمُ مِنْ خِطَابِهِ الذي بيَّن فيه شُكُوكَهُ،

ولكنه لَقِيَ مِنَ الجَميع تأكيدًا شَديدَ الجَلَبَةِ بتقديم أَقْصَى العَوْنِ
تَحْتَ إمْرَتِه، وإذَا بشَيْطَانٍ يقومُ مِنْ وَسْطِ الحَشْدِ يُدْعَى
بَلِيَّعَال، وكانَ أَشَدَّ الشَّيَاطِينِ التي سَقَطَتْ فِسْقًا وفُجُورًا، 150
وأَشَدَّهَا انْهِمَاكًا في المَلَذَّاتِ الحِسِّيَّةِ، ولا يَفُوقُهُ إلا أَصْمُدَايَ
في اسْتِغْرَاقِهِ في الكوابيس الشَّهْوَانِيَّةِ، فَقَدَّمَ المَشُورَةَ التالية:
أَلْقِ النِّسَاءَ في عَيْنِهِ وأَثْنَاءَ سَيْرِه،
وانْتَقِ من بَنَاتِ البَشَرِ أَجْمَلَهُنَّ قاطبةً،
ففي كُلِّ مِنْطَقَةٍ كثيراتٌ فائقاتُ الحُسْنِ 155
مِثْلَ السَّمَاءِ في الضُّحَى، وهُنَّ أَشْبَهُ بالرَّبَّاتِ
مِنْهُنَّ بالمخلوقاتِ الفَانِيَةِ، يَمْتَزْنَ بالرَّشَاقَةِ والحَصَافَةِ، فَهُنَّ
خبيراتٌ بفُنُونِ العشقِ والهَوَى، سَاحِراتُ اللِّسَانِ قادراتٌ
على الإقْنَاعِ، يَتَحَلَّيْنَ بجَلالِ العُذْرِيَّةِ الذي تُلَطِّفُهُ الرِّقَّةُ
والحَلاوَةُ، ويَبْعَثْنَ الرَّهْبَةَ فِيمَنْ يتودَّدُ إليْهِنَّ، 160
ماهراتٌ في التَّمَنُّعِ، وبالتَّمنُّعِ والخَجَلِ يَأْسِرْنَ
القلوبَ ويُوقِعْنَهَا في شِرَاكِ الغَرام التي لا تَنْفَكُّ عُقَدُها.
إنَّ مثلَ هذه الفِتْنَةِ ذاتُ قُوَّةٍ على تَلْيِينِ وتَرْوِيضِ
أَقْسَى الطِّباعِ، وانْفِراجِ أَسَارِيرِ أَشَدِّ النَّاسِ تَجَهُّمًا، وصرَامَةً،
وإضْعَافِ أَشَدِّ الصُّدورِ رُجُولَةً وأَقْوَاهَا عَزْمًا وتَصْمِيمًا، 165
بَلْ وإذابَتِها ذَوْبًا بآمَالِ الوِصَالِ، واجْتِذَابِ القُلُوبِ
بجَعْلِهَا تُصَدِّقُ إمْكَانَ تحقيقِ رَغَائِبِها مِثْلَمَا
يَجْتَذِبُ المِغْنَطِيسُ أَصْلَبَ ضُرُوبِ الحَديدِ إلَيْه.

لقد أَفْلَحت النِّساءُ فيما أَخفقَ فيه سِواهُنَّ فأَغْوَيْنَ قَلْبَ
سُلَيْمانَ أَحْكم الحُكَماءِ، وجَعَلْنَهُ يَبْني ما بَنَي، 170
وجَعَلْنَهُ يركَعُ عابِدًا آلِهَةَ زَوْجاته.

وأَسْرَعَ إِبْليسُ بالرَّدِّ عَلَيْهِ قائلاً:

يا بَلِيَّعالُ! ما أَشَدَّ اخْتلالَ الميزانِ الذي تَزِنُ فيه
جَميعَ الآخرينَ بما أَنْتَ عَلَيْه، فلمَّا كُنْتَ مِنْ قَديمِ الزَّمانِ
تَفْتَتِنُ أَنْتَ نَفْسُكَ بالنِّساءِ، وتُبْدِي الإِعْجابَ 175
بأَشْكالِهِنَّ وأَلْوانِهِنَّ ورَشاقَتِهِنَّ الجَذَّابَةِ، أَصْبَحْتَ
تَظُنُّ أَنَّ الجميعَ يَصْبُونَ دونَ اسْتِثْناءٍ إلى هذه التَّفاهاتِ.
ولقد قُمْتَ قَبْلَ الطُّوفانِ باصْطِحاب رِفاقك الشَّبِقينَ الذين
كانوا يُدْعَوْنَ كَذِبًا أَبْناءَ الله، وطُفْتُمْ معًا بأَرْجاءِ الأَرْضِ
فأَلْقَيْتُمْ نَظَراتِ اشْتِهاءٍ على بَناتِ البَشَرِ، 180
وعاشَرْتُموهُنَّ فأَنْجَبْتُمْ مِنْهُنَّ سُلالَةً خاصَّة.
أَوَلَمْ نَشْهَدْ أو نَسْمَعْ مَنْ رَوَى مِنَ الرُّواةِ كيف
تَخْتَبِئُ في القُصورِ والغُرَفِ المَلَكِيَّةِ،
أو في غابَةٍ ما أو خَميلَةٍ بِجِوارِ نَبعٍ مُعْشَوْشِبٍ
أو في الوُدْيانِ أو المُروجِ الخَضْراءِ مُتَرَبِّصًا 185
بحَسْناءَ نادرةِ المثالِ، مِثْلَ كاليسْتو أو كِلِيمين،
أو دافْنِي أو سِيمِيلي، أو أَنْتيُوبا،
أو أَمِيموني، أو سِيرِنْكس، وغيرُهُنَّ كثيراتٌ فالقائمةُ
بالغةُ الطُولِ، وكيفَ مَنَحْتَ خِصالَكَ لِبَعْضِ الأَسْماءِ المَعْبُودَةِ

مثلَ أَبولُّلو، أو نيبتُون، أو جُوبيتر، أو پَانَ، 190
فَأصْبَحُوا يُوصَفُون بالجَدْي أو العَنْزِ البَشَرِيِّ أو ابْنِ الغَابْ؟
ولكنّ هذه الصِّفَاتِ لا تُبْهِجُ الجَميعَ، فما أكثرَ أبناءَ البَشرِ
الذين لا يُلْقُونَ بَالاً إلى الجَمَال، ويَبْتَسِمُونَ
هازئينَ بكُلِّ حبائلِ فِتْنَتِهِ، وما أَيْسَرَ ما أَبْدَوْا ازْدِرَاءَهُمْ
لهَجَماتِ الفِتْنَةِ جَمْعَاءَ، قاصدينَ ما هُوَ أَسْمَى وأَكْرَمُ! 195
واذْكُرِ الإسكندرَ الأكبرَ، الفاتحَ المَوْلُودَ في پيلا،
وكيفَ كانَ يَسْتَخِفُّ وهو شابٌّ بجَميعِ جَميلاتِ الشَّرْقِ
مُسْتَهْزِئًا بِهِنَّ وغَيْرَ مُلْتَفِتٍ إلَيْهِنَّ؛ واذكرْ كيفَ
أَنَّ سكيپْو الذي يُدْعَى الإفْريقي لمْ يكترثْ
في رَبيعِ شَبَابِهِ للجَارِيَةِ الإسْپَانِيَّةِ الجَميلَةِ. 200
وأما سُلَيْمانُ فكانَ يَحْيَا مُنَعَّمًا حَيَاةً عامرَةً
بالشَّرَفِ والثَّرَاءِ والطَّعَامِ الفَاخِرِ فلَمْ يكُنْ لهُ مَقْصِدٌ
أَسْمَى مِنَ التَّمَتُّعِ بأَطَايِبِ العَيْشِ وسُلْطَانِهِ،
ومِنْ ثَمَّ كانَ مُعَرَّضًا لِلْوُقُوعِ في أَشْرَاكِ المَرْأَةِ،
ولكنَّ الرَّجُلَ الذي نُحاوِلُ إغْوَاءَهُ أَحْكَمُ كثيرًا 205
مِنْ سُلَيْمانَ، ويَتَمَتَّعُ بعَقْلٍ أَسْمَى وأَرْفَعَ،
إذ خُلِقَ بعَزْمٍ وتَصْميمٍ راسِخٍ على إنْجَازِ
أَسْمَى الفِعَالِ، ولَنْ تَجِدَ امْرَأَةً مهما نَقَّبْتَ
ولَوْ كانتْ أُعجوبَةَ هذا العَصْرِ وتُحْفَتَهُ المَرْمُوقَةَ
يُلْقِي عليها في سَاعَةِ فراغٍ نَظْرَةَ 210

اشْتِهَاءٍ حَمْقَاءَ! بَلْ ولَنْ تستطيعَ مهما تَبْلُغْ ثِقَتُها بِذَاتِها،
كَالمَلِكَةِ الجَالِسَةِ على عَرْشِ الجَمَالِ التي يَعْبُدُها النَّاسُ،
ومَهْمَا تَهْبِطْ مِنْ عَرْشِهَا بِجَميعِ مَفَاتِنِها الغَلاَّبة، أنْ تُحَاصِرَهُ
فَتُوقِعَهُ في غَرَامِها، مثلما نَجَحَ إزَارُ ڤينوسَ ذاتَ يَوْم
في إحْداثِ ذلكَ الأثَرِ في جُوڤ، وَفْقَ ما يَرْوِيهِ الرُّوَاةُ. 215
وكيفَ يتأتَّى لِرَجُلٍ أنْ ينظرَ مِنْ جَبْهَةِ جلاَلِهِ،
جالسًا على قِمَّةِ تَلِّ الفَضِيلَةِ،
إلاَّ أنْ يَسْتَهْجِنَها ويَحْتَقِرَها، بلْ وأنْ يَقْهَرَ ويُشَتِّتَ شَمْلَ
جُنُودِ زِينَتِهَا المُصْطَفَّةِ، فَيَطْعَنَ كِبْرِيَاءَ الأُنْثَى ويُكَدِّرَهُ
أو يُحِيلَهُ إلى رَهْبَةٍ إجْلاَلٍ لَهُ! إذْ إنَّ الجَمَالَ لا يَلْقَى 220
الإعْجَابَ إلاَّ مِنَ النُّفُوسِ الوَاهِنَةِ التي وَقَعَتْ في الأَسْرِ
فَأَذْعَنَتْ واقْتِيدَتْ! وإذا كَفَفْتَ عَنِ الإعْجَابِ انْكَمَشَ رِيشُ الأُنْثَى
الزَّاهِي وانْطَوَى واسْتَحَالَ أُلْعُوبَةً تافِهَةً،
يُصِيبُها الخَجَلُ الشَّدِيدُ في كُلِّ إيماءَةِ اسْتِخْفَافٍ بالجَمَالِ:
وإذنْ فإنَّ عَلَيْنَا أنْ نَسْتَعِينَ بِغَايَاتٍ أَشَدَّ رُجُولَةً في 225
زَلْزَلَةِ ثَبَاتِهِ، غَايَاتٍ يَتَجَلَّى فيها المَزِيدُ مِنْ آياتِ
الجَدَارَةِ والشَّرَفِ والمَجْدِ ومَدَائحِ النَّاسِ،
فَمَا أَكْثَرَ ما تَحَطَّمَتْ على هذه الصُّخُورِ سُفُنُ أَعْظَمِ الرِّجَالِ
أو نستعينُ بما يَبْدُو لَنَا في الظَّاهِرِ قَادِرًا علَى إشْبَاعِ
رَغَبَاتِ الطَّبِيعَةِ المَشْرُوعَةِ ولا يَتَجاوَزُها. 230
وأنا أَعْلَمُ الآنَ أنَّهُ جائعٌ في مكانٍ لا يُوجَدُ فيه

طعامٌ، في فَيَافِي البَرِّيَّةِ الشَّاسِعَةِ؛
فاعْهَدُوا إلى باسْتِكْمَالِ العَمَلِ ولَنْ أَدَعَ فُرْصَةً تَفُوتُ
دُونَ اغْتِنَام، ودُونَ تكْرَار التَّصَدِّي لِقُوَّتِه.
وَتَوَقَّفَ عَنِ الحَدِيثِ فَسمِعَ مُوَافقَتَهم هُتَافًا وتَصْفيقًا عاليًا، 235
ومَا لَبِثَ أَنْ اصْطفَى مِنْهُمْ عُصْبَةً مُخْتَارَةً
مِنَ الشَّيَاطِينِ الأكثر شَبَهًا بِهِ في الدَّهَاءِ والحِيلَةِ
وأَمَرَهُمْ أَنْ يَظلُّوا بالقُرْبِ مِنه، وأَنْ يَظْهرُوا فَوْرَ اسْتِدْعَائِهِ لَهُمْ،
إِنْ دَعَتْ الحَاجَةُ إلى عَرْضِ مَشْهَدٍ تَمْثِيلِيٍّ حيٍّ
يُشَارِكُ فيه عِدَّةُ أَفْرَادٍ ويَحْفَظُ كُلٌّ مِنْهُمْ دَوْرَهُ، 240
ومِنْ ثَمَّ انْطَلَقَ إلى الصَّحْرَاءِ في صُحْبَتِهِمْ،
حيثُ كانَ ابْنُ اللهِ قَائِمًا لا يَبْرَحُ، لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَة،
ولا يَزَالُ في صَوْمِه الذي اسْتَمَرَّ أربعينَ يَوْمًا
وإنْ أَحسَّ الجُوعَ أَوَّلَ مَرَّةٍ في هذه اللَّحْظَةِ فقالَ في نَفْسه:
إلى أَيْنَ ينتهي بي هذا؟ إِنِّي قَضَيْتُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا 245
في تَجْوَالي في هَذِهِ المَتَاهَةِ بِأَشْجَارِها اللَّفَّاء، لم أَذُقْ
فيها طَعَامًا بَشَرِيًا بلْ ولَمْ تُواتِني شَهِيَّةُ الطَّعَام،
ولستُ أَنْسِبُ ذلك الصَّوْمَ إلى الفَضِيلَةِ، ولاَ أَعُدُّهُ جَانِبًا
مِمَّا أُعَانِيهِ هُنا، فإذا لَمْ تكُنْ الطبيعةُ في حاجَةٍ،
أو إذا دَعَمَ اللهُ الطبيعةَ دونَ طَعَام 250
وإنْ كانتْ تحتاجُه، فأيّ فَضلٍ تُمتدح بِهِ المُعَانَاةُ؟
لكنّني الآنَ أُحِسُّ الجُوعَ، وهو ما يُعْلِنَ

أَنَّ الطَّبيعَةَ تَحْتَاجُ إلى ما تَطْلُبُهُ، ومعَ ذلكَ فاللهُ
قَادِرٌ على إشْبَاعِ تلكَ الحَاجَةِ بأُسْلُوبٍ آخَرَ،
حَتَّى ولوْ ظَلَّ الجوعُ قَائِمًا؛ وإذنْ فإذا اسْتَمَرَّ الجوعُ 255
دونَ أنْ يَذْوِيَ جَسَدِي بِتُّ رَاضِيًا،
ولَمْ أَخْشَ ضُرًّا مِنْ عَضَّةِ نَابِ الجُوعِ،
بَلْ ولَمْ أكْتَرِثْ لَهَا، ما دُمْتُ أَغْتَذِي بأفكارٍ أَفْضَلَ تُشْبِعُ
جُوعِي الأَشَدَّ إلى تَحْقِيقِ مَشِيئَةِ أَبِي.
كانتْ ساعةُ اللَّيْلِ قد حَلَّتْ حينما حادَثَ الابْنُ 260
نَفْسَهُ بذلك في مِشْيَتِهِ الصَّامِتَةِ، ثم اتَّجَهَ لِيَرْقُدَ
في ظِلِّ خَمِيلَةٍ قَرِيبَةٍ تَدْعُوهُ إلى حِمَاهَا
مِنَ الأَشْجَارِ الكَثِيفَةِ المُلْتَفَّةِ، وجَاءَهُ النُّعَاسُ فيها،
وجَاءَتْهُ الأَحْلَامُ؛ إذْ صَوَّرَتِ الشَّهِيَّةُ لَهُ في المَنَامِ ما اعْتَادَتْهُ
من صُوَرِ اللُّحومِ والمَشْرُوبَاتِ، أَعْذَبِ مُنْعِشَاتِ الطَّبِيعَةِ؛ 265
ورَأَى في مَنَامِهِ أنَّهُ يَقِفُ على شَاطِئِ جَدْوَلِ كِرِيث
ويَرَى الغِرْبَانَ بِمَنَاقِيرِها الصُّلْبَةِ تَأْتِي
بالطَّعَامِ إلى إيلِيَّا مَسَاءً وصَبَاحًا، وعَلَى ما بِها مِنْ
شِدَّةِ الجُوعِ كانتْ تُؤْمَرُ أنْ تَمْتَنِعَ عن الْتِهَامِ ما تُحْضِرُهُ،
ورأى أيضًا كيف فَرَّ ذلكَ النَّبِيُّ 270
إلى الصَّحْرَاءِ، وكيف نام فيها تحتَ شَجَرَةٍ
من أَشْجَارِ العَرْعَرِ، وكيف شاهدَ عندما اسْتَيْقَظَ
عَشَاءَهُ وقد اكْتَمَلَ طَهْوُهُ فَوْقَ الجَمْرِ المُوقَدِ،

وكيفَ دَعَاهُ الملاكُ إلى أنْ يَنْهَضَ ويَأْكُلَ،
وأنْ يأْكُلَ مَرَّةً ثانيةً بَعْدَ الرَّاحَةِ، 275
فاكْتَسَبَ مِنَ القُوَّةِ ما كَفَاهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا؛
وكانَ أحيانا ما يُشَارِكُ إيليَّا ذلك
أو يُشَارِكُ دَانْيَال طَعَامَهُ مِنَ البُقُول.
وهكذا انْقَضَى الليلُ، وانْطَلَقَتِ القُبَّرَةُ بشيرةُ الصَّباح
مِنْ وَكْرِهَا على الأَرْض، فَطَارتْ وحَلَّقَتْ عَالِيًا تَسْتَطْلِعُ 280
مَقْدِمَ الصُّبْحِ وتُحَيِّيه بأُنْشُودَتِها.
وخَفَّ مِنْ نَوْمِهِ مِثْلَها مُخَلِّصُنَا ناهضًا من فِرَاشِ الكَلأِ
الذي كان يَنَامُ فيه فَوَجَد أنَّ ذَاكَ كُلَّه كانَ حُلْمًا،
إذْ أوَى للنَّوْمِ صَائِمًا ونَهَضَ مِنَ النَّوم صَائمًا.
وسَرْعَانَ ما ارْتَقَى أَحَدَ التِّلَال صَاعِدًا إلَى 285
قِمَّتِهِ السَّامِقَةِ حتَّى يَسْتَطْلِعَ المكانَ مِنْ حَوْلِه
لِيرَى إنْ كانتْ ثَمَّ أكْوَاخٌ أو حظائرُ أغْنام أو أَبْقَارٍ،
لكنَّه لَمْ يَرَ أكواخًا أو أبقارًا أو حَظَائِرَ أَغْنَام،
بل لم يَرَ في أَحَدِ القِيعَانِ سِوَى خَمِيلَةٍ جَمِيلَةٍ 290
تَصْدَحُ فيها الطُّيورُ المُغَرِّدَةُ بأنْغام عَالِيَةٍ،
فاتَّجَهَ إليْها، عَاقِدًا العَزْمَ على أنْ يَجْعَلَها
مُسْتَرَاحَهُ عِنْد الظَّهيرَةِ، وسَرْعَانَ ما اكْتَنَفَتْهُ ظِلَالُ
السَّقِيفَةِ العَالِيَةِ وما تَحْتَها مِنْ دُرُوبٍ ومَسَالِكَ غَبْرَاءَ
تُؤَدِّي إلى دَغَلٍ مُلْتَفٍّ في وَسَطِهَا بَدا لِعَيْنِه

مِنْ صُنعِ الطَّبيعَةِ (فالطبيعةُ تُعَلِّمُ الفَنَّ لِلْمَخْلُوق) 295
وعَيْنُ مَنْ يُؤْمِنُ بالخُرَافَاتِ ترَى فيه مَسْكَنًا
لأَرْبَابِ الغَابِ أو حُورِيَّاتِ الغَابِ؛ وأجالَ بَصَرَهُ في الدَّغَلِ
وإذا بِرَجُلٍ وَاقِفٍ أمامَه على غَيْرِ انتظار،
لَمْ يكُنْ يَرْتَدي مَلاَبِسَ ريفيةً كما سَلَفَ بل مَلاَبِسَ أنيقةً
مِثلَ رجالِ المَدِينَةِ أو البَلاَطِ أو مَنْ نَشَأُوا في القُصور، 300
وشَرَعَ الرَّجُلُ في الحديثِ إليْهِ بِنبَراتٍ مُهَذَّبَةٍ مُنَمَّقَة قائلاً:
ها أنَذا أعودُ، حَريصًا على إرْضَائِك بَعْدَ أنْ أَذِنْتَ لي،
ولكننى أَعْجَبُ أَشَدَّ العَجَبِ من أَنَّ ابْنَ الله
قد أَقَامَ هذه المُدَّةَ الطويلةَ في هذه العُزْلَةِ في البَرِّيَّةِ
مَحْرُومًا مِنْ كُلِّ شيءٍ، كما أَعْلَمُ حَقَّ العِلْم 305
أنَهُ لَمْ يَنْجُ مِنَ الجُوع. ولقد روَى لنا الرُّوَاةُ
أنَّ بَعْضَ نَابِهِي الذِّكْرِ الآخَرينَ وَطَأُوا أَرْضَ هَذِهِ البَرِّيَّةِ
مِثْلَ الجَارِيَةِ الطَّرِيدَةِ وابْنِها المَنْبُوذِ
المَدْعُو نَبَايُوتَ، وهو الذي وَجَدَ الغَوْثَ رغم ذلك
مِنْ مَلاَكٍ مِفْضَالٍ كَريم، وكانَ يمكنُ لجميعِ أفرادِ بَني 310
إِسْرائيلَ أَنْ يَهْلِكُوا جُوعًا هنا لولا أَنَّ الله أَنْزَلَ عليهم
المَنَّ والسَّلْوَى مِنَ السَّمَاءِ، كما إنّ ذلكَ النَّبيَّ الجَسُورَ
المَوْلُودَ في تَابَاصَ، بعد أنْ طَالَ تَجْوَالُه هنا،
تَناوَلَ الطَّعَامَ مَرَّتَيْنِ حينَ دَعَاهُ صَوْتٌ ما إلى الطَّعَامِ.
ولكنَّ أَحَدًا لَمْ يَأْبَهْ لَكَ طِيلَةَ هذه الأيامِ الأَرْبَعِين، 315

أربعين يومًا ازدادَ حقًّا فيها هَجْرُكَ وحِرْمَانُك.
وأجابَهُ يسوعُ قائلاً: ماذا تَسْتَنْبِطُ مِنْ ذَلِكَ؟
كانُوا جَميعًا في حَاجَةٍ لكنَّني كما تَرَى لاَ أَحْتَاجُ إلى شَيْءٍ.
وردَّ إبليسُ قائلاً: وكيفَ جَاءَكَ الجُوعُ إذَنْ؟
قل لي: لو رَأَيْتَ الطعامَ مَمْدُودًا الآنَ أَمَامَكَ 320
أَفَلاَ تَأْكُلُ؟ وأجابَهُ يسوعُ قائلاً: هذا يَتَوَقَّفُ على
حُبِّي لمن يُقَدِّمُهُ لي. وقال الشيطانُ الماكرُ:
ولِماذا يَتَسَبَّبُ ذلك في رَفْضِكَ؟
أَفَلاَ تَتَمَتَّعُ بالحَقِّ في جميعِ الأَشْيَاءِ المَخْلُوقَةِ،
أَفَلاَ تَدِينُ جَميعُ المخلوقاتِ لَكَ، كما يَقْضِي الحَقُّ المُنْصِفُ، 325
بأَدَاءِ الواجبِ والخِدْمَةِ، وبألاَّ تَنْتَظِرَ مِنْكَ الطَّلَبَ
بَلْ تُبَادِرَ بِتَقْدِيمِ كُلِّ سُلْطَانِها؟ وإنْ كنتُ لا أَذْكُرُ
اللُّحومَ التي تُعْتَبَرُ نَجِسَةً في نَظَرِ الشَّرْعِ، ولا التي كانتْ تُقَدَّمُ
إلى الأَصْنَامِ، كالتي جَازَ لِدانْيَالَ الشَّابِّ أنْ يَرْفُضَهَا؛
ولا التي يُقَدِّمُها عَدُوٌّ لكَ، وعلى أَيَّةِ حالٍ فَمَنْ ذا الذي 330
يَجِدُ في ذلك حَرَجًا تحتَ ضَغْطِ الحَاجَةِ؟ انْظُرْ كَيْفَ
شَعَرَتِ الطبيعةُ بالخَجَلِ، أو بتعبيرٍ أَفْضَلَ، كيف
تَكَدَّرَتْ مِنْ جُوعِكَ فاقْتَطَفَتْ وقَدَّمَتْ
مِنْ جَميعِ عَنَاصِرِها أَفْخَرَ أَلْوَانِ الزَّادِ
كَيْمَا تُعامِلَكَ المُعَامَلَةَ اللاَّئِقَةَ، ولمَّا كُنْتَ سَيِّدَها 335
الذي تَشْرُفُ بِهِ، فما عَلَيْكَ إلاَّ أنْ تَتَنَازَلَ بأنْ تَجْلِسَ وتَأْكُلَ.

ولمْ يكُنْ ما تَحدَّثَ به ضَرْبًا مِنَ الأحلام، فعندما انتهى
مِنَ الكلامِ رفَعَ مُخلِّصُنا بَصرَهُ فشاهَدَ مائدَةً مَمْدُودَةً،
في بُقْعَةٍ فَسِيحَةٍ تحتَ ظِلٍّ مِنْ أعْرَضِ الظِّلالِ،
مُجهَّزَةً تَجْهيزًا فاخرًا باذخًا بالأسْلُوبِ المَلَكيِّ، 340
ومِنْ فوْقِها صَحائفُ الطَّعامِ الكَثيرَةُ ولُحُومٌ مِنْ أرْقَى الأصْنافِ وأشْهاها مَذاقًا،
مِنْ حيَوَانَاتِ الطِّرَادِ أو طُيُورِ الصَّيْدِ،
وقد حُشِيَتْ في فَطَائرَ، أو شُوِيَتْ أو سُلِقَتْ،
مُعَطَّرَةً ببُخَارِ العَنْبَرِ، وجميعُ أنواعِ الأسْماكِ البَحْريَّةِ أو السَّاحِلِيَّةِ،
مِنَ الغُدْرَانِ أو الجَداوِلِ ذاتِ الخَريرِ، ذَوَاتُ الأصْدافِ أو الزَّعانفِ 345
وذواتُ الأسماءِ البديعةِ التي كان الصَّيَّادُونَ مِنْ أَجْلِها يَنْزَحُون
مياهَ البَحْرِ الأَسْوَدِ وخَليجَ لُوكْرينَ وساحِلَ إفريقيا.
ألاَ ما أَشَدَّ سَذَاجَةَ تلكَ التُّفاحَةِ الطَّازَجَةِ التي
أغْوَتْ حَوَّاءَ إنْ قُورِنَتْ بهذه الأَطَايبِ النَّادرَةِ المِثَالِ!
وعِنْدَ صِوَانِ سَفَرٍ ذي أُبَّهَةٍ كانتْ كُئُوسُ النَّبيذِ 350
التي تُشيعُ في الجَوِّ عَبيرًا فَوَّاحًا في أَيْدي صَفٍّ مُنْتَظِم
من اليَافِعينَ الطِّوَالِ القَامَةِ بمَلابِسِهم البَاذِخَةِ، ولَوْنِ البَشَرَةِ
الذي يَفُوقُ في جَمَالِهِ لَوْنَ جانِيميد أو هِيلاَسَ، وعلى مَسَافةٍ أَبْعَدَ
تحتَ الأَشْجَارِ كانتْ تَخْطُو برَشَاقةٍ أو تَقِفُ بوَقَار
حُورِيَّاتٌ مِنْ حَاشِيَةِ دِيَانَا، وحُورِيَّاتٌ بَحْرِيَّةٌ أخرى 355
يَحْمِلْنَ الفَوَاكِهَ والزُّهُورَ مِنَ قَرْنِ أَمالْثِيا الفَيَّاض
وجَوَارٍ من حَدِيقَةِ هِسْپيريديز، في صُورَةٍ يفوقُ

جمالُها ما تَخيَّله الرُّوَاةُ في سالفِ العُصور، أو رَوَتْهُ الأساطيرُ
على مَرِّ الأيام عن عَذارَى الجنِّ التي كان يُقَابِلُهُنَّ في الغاباتِ
الشَّاسعَةِ فرسانُ لُوجْرِيَا، أو فُرْسَانُ لَيُونِيسْ، 360
مثل لانْسِيلُوتَ أو پيليَاسَ، أو پيلينُورَ،
وكانت تُسْمَعُ طُوالَ الوَقْتِ ألحانُ أغَانٍ شَجِيَّةٍ تَعْزِفُها
الأَوْتَارُ الرَّنَّانَةُ أو النَّايَاتُ السَّاحِرَةُ، وكانت الرِّيَاحُ
تَأْتِي بأَلْطَفِ النَّسمَاتِ التي تَنْشُرُ في الجَوِّ العُطُورَ العَرَبِيَّةَ
مِنْ أَجْنحَتِها النَّاعِمَةِ، وأَوَائِلَ نَفَحاتِ الشَّذَا مِنْ رَبَّةِ الأَزْهَارِ. 365
وعِندَما بَلَغَتِ الرَّوْعَةُ أَوْجَها عادَ المُغْوِي إلى
تَجْدِيدِ دَعْوَتِه بنَبَراتٍ جادَّةٍ قائلاً:
ما الذي يَسْتَرِيبُ به يسوعُ فلا يَجْلِسُ ويأْكُلُ؟
ليستْ هذه فواكهُ مُحَرَّمةٌ، ولا يُوجَدُ أَمْرٌ
يَنْهَي عَنْ مَسِّ هذه اللُّحوم الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ، 370
ومَذَاقُها لا يأْتِي بأية مَعْرفَةٍ، ولَيْسَ بالشَّرِّ على الأقل،
ولكنه يَحْفَظُ الحياة، ويَقْضِي على عَدُوِّ الحَيَاةِ،
ألا وهو الجُوعُ، ويُدْخِلُ في النَّفْسِ بَهْجَةَ انْتِعَاشٍ جَمِيلَةً.
ما هؤلاء جميعًا إلا أرواحُ الهواءِ والغَابَاتِ والينَابِيعِ،
خَدَمُكَ المُهَذَّبُونَ، وما جَاءُوا إلاَّ لِتَقْدِيمِ 375
البَيْعَةِ لَكَ، والإِقْرَارِ بأنَّك سَيِّدُهُمْ.
ما الذي تَسْتَرِيبُ بِهِ يا ابْنَ اللهِ؟ اجْلِسْ وكُلْ.
وأجابَهُ يَسُوعُ بِنبَراتِ الحَلِيمِ الرَّزِينِ قائلاً:

أَلَمْ تَقُلْ إِنَّنِي أتمتعُ بالحَقِّ في جَمِيعِ الأَشياءِ؟
مَنْ ذا الذي يَمْنَعُنِي إذنْ مِنَ الانْتِفَاعِ بهذا الحَقِّ؟ 380
أَتَرَانِي أَقْبَلُ أنْ أُهْدَى شيئًا وأَنَا أَقْدِرُ أنْ
آمُرَ أنْ يَأْتِيَنِي ذلك في أَفْضَلِ وَقْتٍ أَرْجُوهُ وخَيْرِ مَكَانٍ أُحِبُّه؟
لا تَسْتَرِبْ قَطُّ في قُدْرَتِي على أنْ آمُرَ بمائدةٍ تَأْتِينِي
في هذهِ البَرِّيَّةِ وَقْتَمَا أريدُ وبِسُرْعَةِ إحْضَارِ مائِدَتِكَ،
وعلى أنْ أَسْتَدْعِيَ أَسْرَابًا مِنَ المَلائِكَةِ لِخِدْمَتِي 385
فَأَجْعَلَها تَنْتَظِمُ في صُفوفٍ ذات بَهَاءٍ تَسْقِينِي ما أَشْرَبُ:
لماذا إذَنْ تَتَطَفَّلُ بِبَذْلِ هذا الجُهْدِ والكَدِّ
عبثًا؛ إذ لا يُمْكِنُ أنْ يَجِدَ لَدَيَّ قَبُولاً،
وما شَأْنُكَ أنتَ بما أُحِسُّهُ مِنْ جُوعٍ؟
إنِّي أَزْدَرِي ما تُقَدِّمُ بتَفَاخُرٍ مِنْ لَذَائِذِ الطَّعَامِ 390
ولا أَعْتَبِرُ هَدَايَاكَ ذاتَ المَظْهَرِ الخَدَّاعِ هَدَايَا بل حَبَائِلَ.
ورَدَّ عليه إبليسُ في اسْتِيَاءٍ قائلاً:
لقد رأيتَ أَنَّنِي أتمتعُ أيْضًا بالقُدْرَةِ على العَطَاءِ،
فإذا سَخَّرْتُ هذه القُوَّةَ في أنْ أُقَدِّمَ لَكَ طَوْعًا
ما كانَ يُمكِنُنِي أنْ أَمْنَحَهُ لأيِّ فَرْدٍ أَشَاءُ، 395
واخْتَرْتُ في هذا المَكَانِ وفي الوَقْتِ المُنَاسِبِ
أنْ أُشْبِعَ حاجَتَكَ البَادِيَةَ لِلْعُيُونِ
فَلِمَاذَا لا تَقْبَلُ ما آتَيْتُكَ بِهِ؟ ولكنَّنِي أرَى
أنَّ ما أَقْدِرُ أنْ أَفْعَلَهُ أو أُقَدِّمَهُ مُشْتَبَهٌ فيه؛

وإذَنْ سَتَحُلُّ أشياء أُخرَى بِسُرْعَةٍ مَحَلَّ هذه، 400

مِنْ بَعْدِ أنْ بَذَلْتُ الجُهْدَ في إحْضَارِ هذه الأَطَايِبِ الفَذَّةِ.

وما إنْ قالَ هذا حَتَّى اخْتَفَتِ المائدةُ تمامًا بما عليها

وَسْطَ أَصْوَاتِ خَفْقِ أجنحةِ طُيُورِ الهَارْپِي وإطْبَاقِ مَخَالِبِها،

ولَمْ يَبْقَ قَائمًا سِوَى المُغْوِي المُلِحِّ المُلْحِفِ،

ومن ثَمَّ واصَلَ غِوَايَتَه بالكلماتِ التاليةِ: 405

لا يستطيعُ الجوعُ القادرُ على تَرْوِيضِ كُلِّ مخلوقٍ آخَرَ

أن يَمْسَسْكَ بِضُرٍّ ولذلك فَأَنْتَ لا تَتَأَثَّرُ به،

ولَدَيْكَ ما لا يُقْهَرُ من الصَّبْرِ على سِوَى ذَلِكَ أَيْضًا،

إذْ لا يَسْتَسْلِمُ أي إغْوَاءٍ للشَّهِيَّةِ،

وقَلْبُكَ لا يُكِنُّ إلا العَزْمَ على تَحْقِيقِ غاياتٍ سَامِيَةٍ، 410

وفِعَالٍ سَامِيَةٍ، ولكنْ ما سَبِيلُكَ إلى تَحْقِيقِها؟

إنَّ الفِعَالَ العُظْمى تَتَطَلَّبُ لِتَحْقِيقِها وَسَائِلَ عُظْمى،

وأَنْتَ مَجْهُولٌ، لا أَصْدِقَاءَ لَكَ، ووَضِيعُ المَوْلِدِ،

ونَعْرِفُ أنَّ وَالِدَكَ نَجَّارٌ، وأَنَّكَ قد نَشَأْتَ

في فَقْرٍ وإمْلاقٍ وضِيقِ ذاتِ اليَدِ في المَنْزِلِ؛ 415

وأَنْتَ تائهٌ في هذه الصَّحْرَاءِ، وقد عَضَّكَ الجُوعُ بِنَابِهِ،

فأيُّ سبيلٍ أمَامَكَ أو أيُّ أَمَلٍ تَبْنِي عَلَيْهِ طُمُوحَكَ

إلى العُلا؟ مِنْ أيِّ مَصْدَرٍ تَسْتَمِدُّ السُّلْطَانَ،

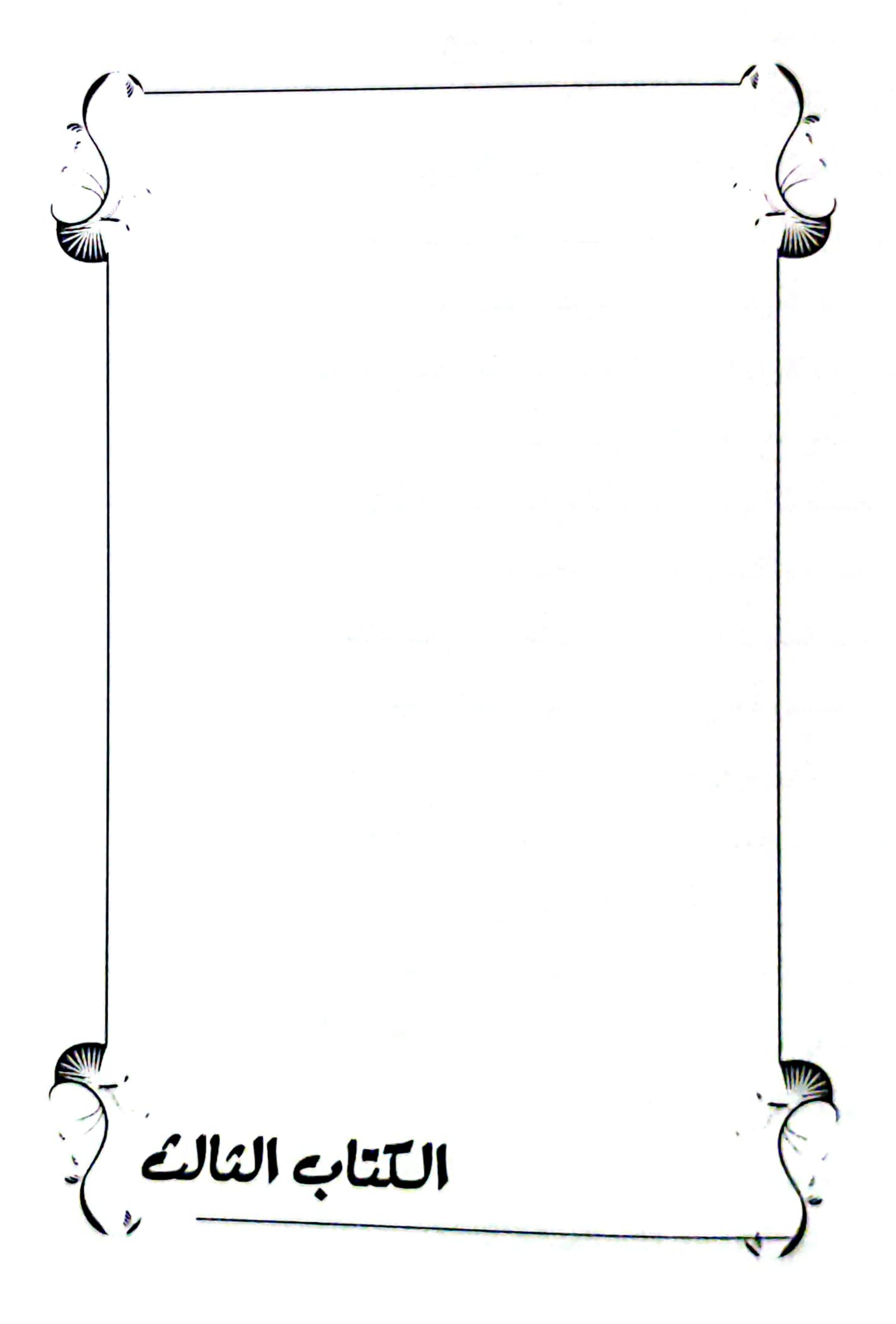
أو مَنْ أَتْبَاعُكَ، أو أَيُّ حاشِيَةٍ تستطيعُ أنْ تَفُوزَ بها،

أمْ أنَّ العَامَّةَ الحَائِرِينَ يَصْطَفُّونَ في أَعْقَابِكَ صَفًّا 420

أَطْوَلَ مِنْ أنْ تَسْتَطِيعُ إطْعَامَهُ على حِسَابِك؟
المالُ يأتي بالشَّرَفِ والأَصْدِقَاءِ والفُتُوحاتِ والمَمَالِكِ؛
ما الذي رَفَعَ أَنْتِيبَاطِر سليلِ عِيسُو،
ورَفَعَ ابْنَهُ هِيرُودَ فأجْلَسَهُ على عَرْشِ يَهُوذا؛
(عرشك) إن لمْ يكن الذَّهَبُ قد أَكْسَبَهُ أَصْدِقَاءَ أَقْوِيَاءَ؟ 425
ومِنْ ثَمَّ فإنْ كنتَ تَوَدُّ تحقيقَ مُنْجزاتٍ عُظْمَى
عَلَيْكَ أَوَّلاَ باكْتِساب الثَّرَوَاتِ والاغْتِنَاءِ واكْتِنَازِ الكُنُوز
ولَيْسَ ذلك صَعْبًا إنْ أَصْغَيْتَ إليّ،
فَلَدَيَّ الثَّرَوَاتُ والكنوزُ في يَمِينِي
والذين أُحِبُّهُمْ يُثْرُونَ بسرعةٍ وتَزْدَهِرُ أَحْوَالُهُمْ، 430
بينما تقيمُ الفَضِيلَةُ والشَّجَاعَةُ والحِكْمَةُ في فَاقَةٍ وعَوَزٍ.
ورَدَّ عليه يَسُوعُ بِنَبَرَاتِ الصَّبْرِ قائلاً:
ولكنَّ الثَّرْوَةَ إذا افْتَقَدَتْ لهذه الخِصَالِ الثَّلاَثِ باتَتْ عاجِزَةً
عن اكْتِسَابِ السُّلْطَةِ أو الحِفَاظِ عَلَيْها بعد اكْتِسَابِها،
انْظُرْ تلكَ الإمبراطورياتِ القَدِيمَةَ في الأَرْضِ 435
وكيف ذَابَتْ وانْحَلَّتْ في ذِرْوَةِ ثَرَائِها الفَيَّاضِ.
ولكنَّ الذين يَتَمَتَّعُونَ بهذه الخِصَالِ كَثِيرًا ما حَقَّقُوا
حتى في فَقْرِهِمْ المُدْقع أَسْمَى الفِعَالِ.
واذْكُرْ جِذْعُونَ ويَفْتَاحَ والرَّاعِي الشَّابَّ
الذي جَلَسَتْ سُلاَلَتُهُ على عَرْشِ يَهُوذا 440
عُصُورًا كَثِيرَةً، وسَوْفَ تَسْتَرِدُّ مِنْ جَدِيدٍ

ذلكَ العَرْشِ، وتحكمُ في بَنِي إسْرَائيلَ إلى الأبَدِ
وكذلك في دِيَارِ الوَثَنِيَّةِ (فلستُ أجْهَلُ ما
وَقَعَ في أرْجَاءِ العَالَمِ كُلِّهِ ما دامَ
جديرًا بالذِّكْرِ) ألا تستطيعُ أنْ تَذْكُرَ 445
كوينتيُوسْ، وفابْريكيُوسْ، وكيُورْيُوسْ ورجُولُوسْ؟
فإنني أُقَدِّرُ أسماءَ هؤلاءِ الرجالِ الذين اسْتَطَاعُوا
على شِدَّةِ فَقْرِهِمْ تحقيقَ مُنْجزَاتٍ جَبَّارَةٍ واحْتِقَارَ
الثَّرَوَاتِ على الرغم مِنْ تَلَقِّيهَا مِنْ أيْدِي المُلُوكِ.
وإنْ بَدَا لَكَ افْتِقَارِي الآنَ فَرُبَّما اسْتَطَعْتُ 450
أنا أيضًا وبرغم هذا الفَقْرِ تحقيقَ ما
أنْجَزُوهُ بالسُّرْعَةِ نَفْسِها ورُبَّمَا تحقيقَ المَزِيد؟
لا تَتَغَنَّ إذَنْ بفَضْلِ الثَّرْوَةِ فإنَّها شَرَكُ الحَمْقَى،
وعائقٌ للحكيمِ إنْ لَمْ تكنْ فَخًا مَنْصُوبًا لَهُ، وأقربُ إلى
أن تُبْطِئَ مِنْ مَسَارِ الفَضِيلَةِ وأنْ تَكْسِرَ حِدَّتَها 455
مِنْ أنْ تَدْفَعَها إلى أنْ تَفْعَلَ ما يَسْتَحِقُّ الإطْرَاءَ.
وما قَوْلُكَ إنْ أنا أعْرَبْتُ عَنْ رَفْضِي، بِنَبَرَاتِ النُّفُورِ نَفْسِها،
لِلثَّرَوَاتِ والمَمَالِكِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ السَّبَبُ أنَّ التَّاجَ
ذا المَظْهَرِ الذَّهَبِيِّ، ليس إلاَّ إكْليلاً مِنَ الأشْوَاكِ،
وهو يَجُرُّ الأخْطَارَ والمَتَاعِبَ والهُمُومَ ولَيَالِيَ الأرَقِ 460
علىَ مَنْ يَضَعُ على رَأْسِهِ تاجَ المُلْكِ،
ما دَامَ يَحْمِلُ على كَاهِلِهِ عِبْءَ كُلِّ إنْسَانٍ فَرْدٍ.

وفي هذا مَعْنَى مَنْصِبُ المَلِكِ نَفْسِهِ، ومَكْمَنُ
شَرَفِهِ وفَضِيلَتِهِ وجَدَارَتِهِ والمَصْدَرُ الرئيسيُّ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِ،
ألا وهُوَ أنَّهُ يَتَوَلَّى عَنِ الشَّعْبِ تَحَمُّلَ هذا العِبْءِ كُلِّه. 465
وأمَّا الذي يَسْتَطِيعُ أنْ يَحْكُمَ نَفْسَهُ مِنَ البَاطِنِ، ويتحكَّمَ
في المَشَاعِرِ والرَّغَبَاتِ والمَخَاوِفِ، فَيَتَحَلَّى بالمَزِيدِ مِنْ صِفَاتِ المُلْك،
وذلكَ ما يُحَقِّقُهُ كُلُّ إنْسَانٍ عاقِلٍ فَاضِلٍ،
ومَنْ لا يُحَقِّقُه بل يَضِلُّ فَيَطْمَعُ في حُكْمِ المُدُنِ التي
بَنَاهَا النَّاسُ أو الحُشُودِ العَنِيدَةِ المُتَهَوِّرَةِ 470
يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْفَوْضَى في بَاطِنِه
أو لِلْمَشَاعِرِ المُنْفَلِتَةِ التي يَخْضَعُ لها في نَفْسِهِ.
ولكنَّ هدايةَ الأُمَمِ إلى طَرِيقِ الحَقِّ بإيضاحِ
وتِبْيَانِ المَذْهَبِ الذي يُنَجِّيها، وصَرْفِهَا عَنْ الضَّلالِ
إلى العِلْمِ، فإذا جَاءَهَا العِلْمُ صَلُحَتْ عِبَادَتُها لله، عَمَلٌ 475
يَتَحَلَّى بالمَزِيدِ مِنْ صِفَاتِ المَلِكِ؛ إذْ يَجْتَذِبُ الرُّوحَ
ويَحْكُمُ بَاطِنَ الإنْسَانِ، وهو الجانِبُ الأَشْرَفُ،
في حين لا تَحْكُمُ الأُخْرَى إلاَّ الجَسَد،
وكثيرًا ما يكونُ ذلك قَسْرًا، وذو النَّفْسِ الكَرِيمَةِ
لا يرَى في هذا اللَّوْنِ مِنَ الحُكْمِ مَصْدَرَ بَهْجَةٍ أو فَرَحٍ. 480
أَضِفْ إلى ذلك أنَّهُ قد قِيلَ إنَّ نَبْذَ إحْدَى المَمَالِكِ
عَمَلٌ أعظمُ وأنبلُ، وإنَّ طَرْحَ المُلْك
أكرمُ كثيرًا مِنْ تَوَلِّي المُلْك -



الكتاب الثالث



كانَ ذلكَ ما قالَهُ ابْنُ الله، ووَقَفَ إبْليسُ صَامِتًا
بُرْهَةً كأنَّما ألْجَمَتْهُ الحَيْرَةُ فيمَ عَساهُ يَقُولُ،
وبِمَ يُجيبُ، بَعْدَ أنْ دُحِضَتْ أقوالُه، واقْتَنَعَ
بأنَّ حُجَّتَهُ واهِيَةٌ ومَنْطِقَهُ مَغْلُوطٌ؛
واسْتَطَاعَ أخيرًا أنْ يَسْتَجْمِعَ حِيلَهُ الثُّعْبانِيَّةَ كُلَّهَا 5
فَعادَ يقولُ بألفاظٍ عَذْبَةٍ ابتغاءَ تَطْييبِ خَاطِرِ مُحَدِّثِه:
أرى أنَّكَ تَعْرِفُ ما تَعُودُ مَعْرِفَتُهُ بالفَائِدَة،
وتستطيعُ أن تَقُولَ أفْضَلَ الأَقْوَالِ، وتَفْعَلَ أفْضَلَ الأفْعَالِ،
وفِعَالُكَ تَتَّفِقُ مع ألْفَاظِك، وأَلْفَاظُكَ
تَنْطِقُ بحَقيقَةِ مَكْنُونِ قَلْبِكَ السَّمْحِ الكريم، وقَلْبُكَ 10
أفضلُ صُورَةٍ وأكْمَلُهَا للْخَيْرِ والحِكْمَةِ والبِرِّ.
فإذا لَجأتِ الملوكُ والأُمَمُ إلى المَشُورَةِ مِنَ شِفَاهِكَ
خَرَجَتْ المشورةُ مثلَ النُّبوءاتِ التي يُستعانُ فيها
بِجَوْهَرَتَيْ الأُوريم والتُّمِّيم، وهُمَا جَوْهَرتَا النُّبُوءَاتِ
على صَدْرِ هَارُونَ، أو مِثْلَ ألْسِنَةِ العَرَّافِينَ القُدَمَاءِ 15
المَعْصُومينَ مِنَ الخَطَأ، ولَوْ دُعِيتَ إلى فِعَالٍ
قد تَتَطَلَّبُ الاصْطِفَافَ لِشَنِّ الحَرْبِ، فإنَّ المَهَارَةَ
التي لَدَيْكَ في الإدَارَةِ سوفَ تَعْلُو حتى تُعْجِزَ العالَمَ كُلَّه
عَنِ الصُّمُودِ أمَامَ بَرَاعَتِكَ الفَائِقَة، أو مُواصَلَةِ
القِتَالِ، ولَوْ ضِدَّ أسْلِحَتِكَ القَليلَة. 20
لماذا إذَنْ تُخْفي هذه الصِّفَاتِ العُلْيا الرَّبَّانِيَّةَ؟

وسواءٌ أكان الأَمْرُ يتعلقُ بالحياةِ الخَاصَّةِ، أم المَغْمُورِينَ
الذين يَذْرَعُونَ فَيَافِيَ البَرِّيَّةِ، لماذا تَحْرِمُ
الأَرْضَ كُلَّها مِنَ الدَّهْشَةِ والإعْجَابِ بأَفْعَالِكَ، وتَحْرِمُ نَفْسَكَ
مِنَ الشُّهْرَةِ والمَجْدِ، فالمَجْدُ هو المُكَافَأَةُ التي 25
تَسْتَطِيعُ وَحْدَها إشْعَالَ اللَّهَبِ الدَّافعِ على تَحْقِيقِ أَرْفَعِ المُنْجَزَاتِ
في أَسْمَى الأَرْوَاحِ وأَطْهَرِ النُّفُوسِ الأَثِيرِيَّةِ وأَشَدِّهَا
اسْتِقَامَةً، نُفُوسِ الذين يَزْدَرُونَ جميعَ المَسَرَّاتِ الأخرى
ويعتبرونَ كُلَّ الكُنُوزِ والمَكَاسِبِ حُثَالَةً مَنْبُوذَةً،
ولا يَنْشُدُونَ مِنْ مَرَاتِبِ الرِّفْعَةِ والسُّلْطَانِ كُلِّها إلاَّ أَعْلاَهَا؟ 30
لَقَدْ بَلَغَتْ سِنُّكَ مَرْحَلَةَ النُّضْجِ بَلْ وتَجَاوَزَتْهَا،
فَقَبْلَ بُلُوغِها كانَ ابْنُ فِيلِيبَ المَقْدُونِي قد نَجَحَ
في فَتْحِ أَسْيَا وأَصْبَحَ عَرْشُ قُورَشَ
في يَمِينِهِ، ونَجَحَ سكِيپْو الشَّابُّ في تَحْطِيمِ
كِبْرِيَاءِ قَرْطَاجَنَّةَ، ونَجَحَ پُومْپِي الشَّابُّ في التَّغَلُّبِ 35
على مَلِكِ بُنْطُشَ والسَّيْرِ في مَوْكِبِ النَّصْرِ.
ولكنّ بلوغَ سِنِّ النُّضْجِ، وبُلُوغَ نُضْجِ الحُكْمِ مَعَهُ،
لا يَرْوِيَانِ الظَّمأَ إلى المَجْدِ بل يُطْغِيَانِ الغُلَّةَ.
وكان يوليوسُ قيصرُ العظيمُ الذي يَحْظَى الآنَ بإعْجَابِ الدُّنْيا كُلِّها 40
كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهِ العُمْرُ يَزْدَادُ تَحَرُّقًا إلى
المَجْدِ، بلْ لَقَدْ بَكَى عِنْدَمَا أَدْرَكَ أَنَّهُ عاشَ طَوِيلاً دونَ تَحْقِيقِ
ما يَصْبُو إلَيْهِ مِنَ المَجْدِ، ولكنَّ الوَقْتَ لَمْ يَفُتْ بالنِّسْبَةِ إلَيْكَ.

وأجابه مُخَلِّصُنا بنبراتٍ هَادِئَةٍ قائلاً :
لم تَنْجَحْ في إقْنَاعِي بالسَّعْيِ إلى تحْقِيقِ الثَّرْوَةِ
لِبنَاءِ إمبراطوريةٍ ، أو السَّعْيِ إلى بنَاءِ إمبراطوريةٍ 45
في سَبيلِ المَجْدِ بكُلِّ ما قَدَّمْتَهُ لي مِنْ حُجَجٍ .
وهَلْ المَجْدُ إلاَّ الوَهْجُ الذي يُشِعُّهُ ذُيُوعُ الصِّيتِ ؛
أيْ إطْرَاءُ العَامَّةِ ، حتى ولَوْ كانَ ثَنَاءً خَالِصًا على الدَّوَامِ؟
وهَلْ العَامَّةُ إلاَّ قَطِيعٌ حَائِرٌ مُتَخَبِّطٌ ،
ودَهْمَاءُ مِنْ أَمْشَاجٍ مُخْتَلِطَةٍ يَمْتَدِحُونَ 50
ما هُوَ سُوقِيٌّ مُبْتَذَلٌ ، ولَوْ أَحْسَنْتَ وزنَهُ ما وَجَدْتَهُ يستحقُّ
الثَّنَاءَ ، وهُمْ يمتدحُونَ ويُعْجَبُونَ بما لا يَعْرفُونَ ،
وبِمَنْ لا يَعْرِفُون ، بل يَتَّبِعُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ،
وأَيُّ مُتْعَةٍ في أَنْ يَحْظَى المَرْءُ بِمِثْلِ هذا الإطْرَاءِ ، أيْ
بأَنْ يَحْيَا على أَلْسِنَتِهِمْ وأَنْ يَتحدَّثُوا عَنْهُ 55
وهُمُ الذينَ إذَا صَدَرَ الذَّمُّ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ كان امْتِدَاحًا غَيْرَ يَسير ؟
ولَنْ يَفُوزَ إلاَّ الجَسُورُ بالصِّيتِ الفَرِيد ،
ومَا أَقَلَّ الأذْكِيَاءَ والحُكَمَاءَ بَيْنَهُمْ ،
ومَا أَنْدَرَ أنْ يُمْتَدَحَ مَجْدُ القِلَّةِ .
وأمَّا المجدُ الحقيقيُّ والصِّيتُ الصَّادِقُ فَيَتَحقَّقَانِ حينَ يَنْظُرُ الله 60
إلى الأَرْضِ ويُمَيِّزُ بالقَبُولِ والرِّضَى
الإنسانَ البَارَّ ويُذِيعُ اسْمَهُ في السَّمَاءِ
على جَميعِ مَلاَئِكتِهِ الذين يُزَكُّونَهُ مُرَحِّبين حقًّا

وَيَتَغَنَّوْنَ بِمَدَائِحِهِ؛ وكان ذلك ما فَعَلَهُ مع أَيُّوبَ،
حِينَ أرادَ أَنْ يُذِيعَ صِيتَهُ في السَّمَاءِ والأَرْضِ، 65
وَلَعَلَّكَ تَذْكُر تمامًا ما أَتَى لكَ بالمَلامِ حِينَ
سَأَلَكَ اللهُ هَلْ رأَيْتَ عَبْدِي أَيُّوبَ؟
فلقد كان ذائعَ الصِّيتِ في السَّماءِ وأَقَلَّ شُهْرَةً في الأَرْضِ.
أيْ إنَّ المَجْدَ يُمْسِي مَجْدًا زَائِفًا إذَا نُسِبَ إلى
غَيْرِ المَجِيدِ مِنَ الأُمُورِ، ورجَالٍ لا يَسْتَحِقُّونَ الشُّهْرَةَ. 70
يُخْطِئُ مَنْ يَرَوْنَ أَنَّ المَجْدَ يَكْمُنُ في إِخْضَاعِ الغَيْرِ
بِفُتُوحِ البُلْدَانِ شَرْقًا وغَرْبًا، والاسْتِيلاءِ
على أَقْطَارٍ شَاسِعَةٍ، والانْتِصَارِ في مَعَارِكَ مَيْدَانِيَّةٍ عُظْمَى،
واحْتِلاَلِ مُدُنٍ كُبْرى بالعُدْوَانِ؛ إِذْ ماذا يَفْعَلُ هؤلاءِ الكبراءُ
إلا أَنْ يَسْرِقُوا ويَنْهَبُوا ويُحْرِقُوا ويَذْبَحُوا ويَسْتَعْبِدوا 75
أُمَمًا مُسالِمَةً، مُجَاوِرَةً أو نَائِيَةً،
وأَنْ يَأْسِرُوها وهي التي أَحَقُّ بالحُرِّيَّةِ
مِنْ فَاتِحِيها، أُولئِكَ الذين لا يُخَلِّفُونَ وَرَاءَهُمْ
شيئًا سوى الخرابِ في أيِّ مكانٍ يَرْتَادُونَهُ،
ويُدَمِّرُونَ جميعَ الآثارِ المُزْدَهِرَةِ التي بَنَاها السَّلْمُ، 80
ثم يَخْتَالُونَ مُنْتَفِشِينَ في كبرياءٍ، ولابُدَّ أَنْ يُلَقَّبُوا بأَلْقَابِ الأَرْبَابِ،
وألقابِ المُحْسِنِينَ إلى البَشَرِيَّةِ ومُخَلِّصِيها،
وأَنْ يُعْبَدُوا، وتُقَامَ لَهُمْ المعابدُ ويُعَيَّنَ الكُهَّانُ وتُقَدَّمَ القَرابِينُ،
فَأَحَدُهُمْ أَصْبَحَ ابْنًا لِلرَّبِّ جوف، والآخَرُ لِلرَّبِّ مارس،

حتى بيّنَ الموتُ الظّافِرُ أنّهُمْ لا يكادُونَ يَسْتَحِقُّون صِفَةَ الإنْسَان 85

الحَقِّ ما داموا يَتَقَلَّبُونَ في رَذَائِلَ حَيَوَانِيَّةٍ ، وأصْبَحَ الموتُ الشَّائِهُ

أو القَتْلُ العَنِيفُ ، أو المُجَلَّلُ بالعَارِ ، جَزَاءً وِفاقًا لَهُمْ .

لكنه إنْ كانَ في المَجْدِ أيُّ خَيْرٍ

فربما أمْكَنَ تَحْقِيقُهُ بِوَسَائِلَ بِالِغَةِ الاخْتِلاَفِ ،

بلا طُمُوحٍ أو بلا حَرْبٍ أو بلا عُنْفٍ ؛ 90

بلْ بأَعْمَالٍ سِلْمِيَّةٍ ، بالحِكْمَةِ البَالِغَةِ ،

بالصَّبْرِ وضَبْطِ النَّفْسِ ، وأنا أذْكُرُ دَوْمًا

مَنْ أدَّى صَبْرُهُ صَبْرَ قِدِّيسٍ على خَطَايَاكَ واحْتِمَالِهَا

إلى ذُيُوعِ صِيتِهِ في أرَاضٍ وأزْمِنَةٍ مَجْهُولَةٍ ؛

مَنْ ذَا الذي يذكرُ الآنَ اسْمَ أيُّوبَ الصَّابرِ غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بالشَّرَفِ؟ 95

وأمَّا سُقْرَاطُ المَسْكِينُ (ومَنْ أشهرُ منه بَعْد أيوبَ في طيبِ الذِّكْرِ؟)

فإنه في مُقَابلِ ما عَلَّمَهُ وما كابَدَه في سبيلِ ذلك ،

مُفضِّلاً القَتْلَ ظُلْمًا في سبيلِ الحَقِّ ، يَحْيَا الآنَ مُتَمَتِّعًا

بِشُهْرَةٍ تُعَادِلُ شُهْرَةَ أشَدِّ الفاتحين فَخَارًا وزَهْوًا .

لكنه إنْ كانَ لا بُدَّ مِنَ العَمَلِ في سبيلِ الذُّيُوعِ والمَجْدِ ، 100

فلا بُدَّ مِنَ المُعَانَاة أيْضًا ، وإذا كان بَطَلُ إفريقيا الشَّابُّ

قد طَلَبَ الذُّيُوعَ بِتَحْرِيرِ بَلَدِهِ الضَّائعِ مِنْ غَضْبَةِ البُونِيِّين ،

فَلَمْ يكنِ الثَّنَاءُ من نَصِيبِ ما عَمِلَهُ ، أو من نَصِيبِ الرَّجُلِ على الأقل ،

وهكذا فَقَدَ مكافَأَتَهُ ، وإنْ كانتْ تَقْتَصِرُ على اللَّفْظِ وَحَسْب .

تُرَاني إذَنْ أطْلُبُ المَجْدَ ، مثلما يَطْلُبُه كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ 105

وكثيرًا دُونَ جَدَارَةٍ بهِ؟ أنا لا أَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِي بَلْ مَجْدَ
الذي أَرْسَلَنِي، وهو يَشْهَدُ مِنْ ثَمَّ حيثُ أكونُ.
وأجابه المُغْوِي، فَي تَمْتَمَةٍ هَادِئَةٍ، قائلاً:
لا تُبْدِ كُلَّ هذا الاسْتِخْفَافِ بالمَجْدِ، وبذلك تصبحُ أبعدَ ما تكون
شَبَهًا بأبيك، فإنَّهُ يطلبُ المَجْدَ، 110
وفي سبيلِ مَجْدِهِ خَلَقَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، ويَأْمُرُ
ويَحْكُمُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، ولا يكتفِي في السَّماءِ
بتمجيدِ جميعِ مَلائِكَتِهِ لَهُ، بل يَطْلُبُ
التمجيدَ مِنَ النَّاسِ، مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، أَخْيَارِهم وأَشْرَارِهِمْ،
حكماءَ كانوا أو غَيْرَ حُكَمَاءَ؛ إذ لا يُمَيِّزُ بينهم ولا يُعْفِي منهم أحدًا، 115
وهو يَطْلُبُ المَجْدَ قَبْلَ أيِّ أُضْحِيَةٍ أو أيِّ قُرْبانٍ مقدسٍ،
يَطْلُبُ المَجْدَ ويتلقَّى التَمْجيدَ مِنَ الجَميعِ
بلا استِثْنَاءَ مِنْ كُلِّ الأُمَمِ، مِنَ اليَهُودِ أو اليونانيِّين
أو غير اليونانيين، بلْ ويُعْلِنُ أنه لا يَسْتَبْعِدُ أحدًا.
وهو يَفْرِضُ علينا نَحْنُ، أَعْدَاءَهُ، التمجيدَ الصَّريحَ الوَاضِحَ. 120
وأجابه مُخَلِّصُنا بنَبَرَاتٍ حَمِيَّةٍ قائلاً:
المنطقُ يقولُ: ما دَامَتْ كَلِمَتُهُ قد خَلَقَتْ كُلَّ الأَشْيَاءِ،
وإنْ لَمْ يكنْ ذلك مِنْ أَجْلِ المَجْدِ باعتباره غايةً رئيسيةً
بلْ لإظْهارِ الخَيْرِ مِنْ لَدُنْهُ، ومِنْ أَجْلِ بَثِّ
خَيْرِهِ الذي يَنْتَقِلُ إلى كُلِّ نَفْسٍ 125
دونَ قُيُودٍ، فماذا عَسَاهُ أَنْ يَتَوَقَّعَ أَقَلَّ



مِنَ التَّمجيدِ والتَّسبيحِ بِحَمْدِهِ؛ أيْ التعبيرُ عَنِ الشُّكرِ،
وذلك أدْنَى ألْوَانِ الجَزَاءِ وأَيْسَرُها وأَقْرَبُها مَنَالاً
مِمَّنْ لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يُقَدِّمُوا إليْهِ سِوَاهُ،
وإذَا لَمْ يُقَدِّمُوهُ فالأَرْجَحُ أنْ يُؤدِّي بِهِمْ ذلك إلى تقديمِ 130
الازْدِرَاءِ بَدَلاً مِنْهُ، إلى جَانِبِ التَّنْدِيدِ والسِّبَابِ!
إنَّهُ لَجَزاءٌ مُجْحِفٌ ومُقَابِلٌ لا يلائِمُ
ذلكَ الخَيْرَ العَمِيمَ، وتلكَ النِّعَمَ الفَيَّاضَةَ.
ولكنْ لماذَا يَسْعَى الإنسانُ لِلْمَجْدِ؟ وهو في ذَاتِهِ
لا يَمْلِكُ شَيْئًا، ولا يَنْتَمِي إليْهِ شَيْءٌ 135
سوى الإدَانَةِ، والخِزْيِ الفَاضِحِ والعَارِ؟
وإذَا بِهِ يُقَابِلُ النِّعَمَ الكثيرةَ التي تلقَّاها
بإنكارِ فَضْلِ اللهِ والجحُودِ والكُنُودِ،
وهو ما يَنْزِعُ عنْ ذَاتِهِ كُلَّ خَيْرٍ حَقِيقِيٍّ،
ومع ذلك فهو يَتَمرَّدُ ويَنْسِبُ لِنَفْسِهِ 140
ما ينتمي لله وَحْدَهُ حقًّا وصِدْقًا؛
ولكنَّ فَضْلَ الله عميمٌ ورَحْمَتَهُ وَاسِعَةٌ،
حتى إنَّ مَنْ يُسَبِّحُونَ بِمَجْدِهِ لا بأَمْجَادِهِمْ
يُعِينُهُم اللهُ على بُلُوغِ المَجْدِ.
كانَ ذلكَ ما قالَهُ ابْنُ الله، وهُنَا مِنْ جَدِيدٍ 145
انْعَقَدَ لِسانُ إبليسَ فلَمْ يُجِبْ بَلْ وَقَفَ ذَاهِلاً إذْ فَاجَأَهُ
الإحْسَاسُ بالذَّنْبِ مِنْ جَرَّاءِ خَطِيئَتِهِ؛ إذْ كانَ هو نَفْسُهُ

ذا ظَمأ لا يَرتوي لِلْمَجْدِ فَضاعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ يَدِهِ،
لكنه سَرْعانَ ما خَطَرَ له مَدْخَلٌ آخرُ للقضيةِ فقال:

احكمْ على المَجْدِ أيَّ حُكْمٍ تَرْضاهُ، سواءً 150
اعْتَبَرْتَهُ جَدِيرًا بالطَّلَبِ أو غَيْرَ جَدِيرٍ بِهِ، ولْنَضْرِبْ عَنْ هذا صَفْحًا.
ولكنك وُلِدْتَ لِتَرِثَ مَمْلَكَةً، وكَتَبَ لَكَ اللهُ
أنْ تَجْلِسَ على عَرْشِ أبيكَ داوُدَ،
فَهُوَ أَبُوكَ مِنْ نَاحِيَةِ والدتِكَ، وإذا كانَ حَقُّكَ
الآنَ في أيْدٍ قويةٍ، ولَنْ يُنْزَعَ بِسُهُولَةٍ 155
مِنْ أيْدِي الذينَ ظَفَرُوا به بِقُوَّةِ السِّلاحِ،
فإنَّ أرْضَ اليَهُودِيَّةِ حاليًا وكُلَّ الأرْضِ المَوْعُودَةِ
قد تَحَوَّلَتْ إلى مُقَاطَعَةٍ في ظِلِّ الحُكْمِ الرُّومَانِيِّ
وتطيعُ أوامرَ طِيبَارْيُوس، بلْ ولا يتسمُ الحكمُ فيها دائمًا
بالاعْتِدَالِ، فكثيرًا ما انْتَهَكَ الرُّومَانُ حُرْمَةَ 160
المَعْبَدِ، وكثيرًا ما خَرَقُوا الشَّرْعَ خَرْقًا بَشِعًا
والأَحْرَى أنْ نَقُولَ إنَّهم ارتكبُوا الأَرْجَاسَ، مثلما فَعَلَ
أَنْطِيُوكُوسُ ذاتَ يَوْمٍ، وإذنْ هل تَتَصَوَّرُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ
اسْتِعَادَةَ حَقِّكَ بالجُلُوسِ سَاكِنًا أو الانْزِوَاءِ هكذا؟
ذَلِكَ ما لَمْ يَفْعَلْهُ مَاكَابْيُوسُ؛ إذْ ارْتَدَّ حَقًّا 165
راجعًا إلى الصَّحْرَاءِ، ولكنَّه كانَ يَحْمِلُ السِّلاحَ،
ولكمْ أَحْرَزَ مِنْ انتصاراتٍ على المُلُوكِ الجَبَابِرَةِ حَتَّى
تمكَّنَتْ أُسْرَتُه بِقُوَّةِ سَوَاعِدِها، وإنْ كانَ أَفْرَادُها



كَهَنةً، من الحُصُولِ على التّاج واغْتصابِ عَرْشِ داوُدَ،
بعدَ أنْ كانوا قانِعينَ ذاتَ يَوْم بمدينةِ مُودِينَ وضَوَاحيها. 170
وإنْ لَمْ تَجِدْ في المُلْكِ دافعًا، فَلْيَكُنْ دافِعُكَ الغَيْرَةَ
والوَاجِبَ، والغَيْرَةُ والواجبُ لا يَتَقَدَّمان بخُطَى بَطِيئَةٍ،
وما عَلَيْكَ إلاّ انْتِهازُ فُرْصَةٍ سَانِحَةٍ والإِمْسَاكُ بناصِيَتِها.
وما الغَيْرَةُ والواجبُ ذَوَاتُهما إلا أَفْضَلُ الفُرَصِ،
أَقصِدُ الغيْرةَ على بَيْتِ وَالِدِكَ، والواجِبَ القاضِي بِتَحْرِيرِ 175
بِلادِكَ مِنْ اسْتِعْبَادِ الوَثَنِيِّينَ لَهَا.
ولسوفَ - علَى أَفْضَلِ وَجْهٍ - تحقِّقُ وتُؤَكِّدُ صِحَّةَ
كلماتِ الأَنْبِياءِ القُدَمَاءِ الذين تَغَنَّوْا بِحُكْمِكَ الأَبَدِيِّ،
وكُلَّمَا أَسْرَعْتَ بالمُبَادَرَةِ إِلَيْهِ كانَ أَهْنَأَ وأَسْعَدَ،
فَتَوَلَّ الحُكْمَ إذَنْ، وهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَفْعَلَ ما يَفْضُلُ الآنَ ذلك؟ 180
وردَّ عليه مُخلِّصُنا فأجابَهُ قائلاً:
لا يتحققُ شيءٌ على أفْضَلِ وَجْهٍ إلاّ في وَقْتِهِ المُناسِبِ
ولِكُلِّ شَيْءٍ أَوَانٌ، كما قَالَ الحَقُّ بذلك.
فإذا كانتْ كُتُبُ الأَنْبيَاءِ قد تَحَدَّثَتْ عنْ حُكْمي،
وقالتْ إنه لَنْ يَنْتَهِيَ أبدًا، فإنَّ مَوْعِدَ بِدَايَتِهِ 185
قد قَضَى الأَبُ به وكَتَبَهُ لغايَةٍ عِنْدَهُ،
فإنه هُوَ الذي يُحَدِّدُ لِكُلِّ شَيْءٍ أَوَانًا وزَمَانًا.
أَفَلاَ يَجُوزُ أنَّهُ قد كَتَبَ عَلَيَّ أنْ أَتعرَّضَ أولاً
للابْتِلاءِ بِضَعَةِ المَكَانَةِ، وبالنَّوَازِلِ

والمِحَنِ، والأَضْرَارِ، والشَّتَائِمِ، 190
ودَلَائِلِ الاحْتِقَارِ والازْدِرَاءِ والشِّرَاكِ وأعمالِ العُنْفِ،
وبأنْ أُكَابِدَ وأَصْبِرَ وأَتَوَقَّعَ في طُمَأْنِينَةٍ
ودُونَ شَكٍّ أو رِيبَةٍ ذلك كُلَّهُ، حتى يَعْلَمَ
ما أَسْتَطِيعُ مُعَانَاتَهُ وأُسْلُوبَ طاعَتِي لَهُ؟ فأَقْدَرُ النَّاسِ على
المُعَانَاةِ أَقْدَرُهُمْ على العَمَلِ، وأَفْضَلُ الحُكَّامِ مَنْ أَثْبَتَ أَوَّلاً 195
أنه يُحْسِنُ الطَّاعَةَ، وهو اختبارٌ عادلٌ لي قبلَ إِثْبَاتِ جَدَارَتِي
بالرِّفْعَةِ التي لا تَتَغَيَّرُ ولا تَنْتَهِي أبدًا.
ولكنْ تُرى ما شَأْنُكَ أنتَ بالموعدِ الذي أبدأُ فيه
حُكْمَ مَمْلَكَتِي الأَبَدِيَّةِ، ولماذا تُبْدِي هذا
التَّخَوُّفَ، وما الدَّافِعُ على اسْتِجْوَابِكَ إِيَّايَ؟ 200
أفلا تُدْرِكُ أَنَّ في ارتقائي سُقُوطَكَ
وأَنَّ تحقيقَ عِزَّتِي سَيَجْلِبُ الهَلَاكَ لَكَ؟

وأجابه المَغْوِي وقد نال مِنْهُ الجُهْدُ قائلاً:
فَلْيَقَعْ ذلكَ في الوَقْتِ المُقَدَّرِ لَهُ، فلقدْ فَقَدْتُ كُلَّ رَجَاءٍ
في أن يَشْمَلَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ، وهَلْ ثَمَّ مصيرٌ أَسْوَأُ؟ 205
إنه إنْ يَنْعَدِمِ الرَّجَاءُ يَنْعَدِمِ الخَوْفُ،
فإنْ كان ثَمَّ ما هُوَ أَسْوَأُ، فإنَّ تَوَقُّعِي حُدُوثَ
الأَسْوَأِ يُعَذِّبُنِي أكثرَ مِنَ الإِحْسَاسِ به.
بل إنني لأرجو الأَسْوَأَ، فالأسوأُ مِينَاءُ سفينتي
والمرفأُ الأخيرُ لي والغايةُ القُصْوَى لِرَاحَتِي. 210



وهكذا أَوَدُّ الوُصُولَ إلى الغَايَةِ، آخر تُخُومِ الخَيْرِ لي.
كان خَطَئِي خَطَئِي، وكانَ جُرْمي جُرْمِي،
مَهْمَا يكنْ مُدَانًا في ذَاتِه،
وكذلك يكونُ العِقَابُ عَلَيْه، سواءً كُتِبَ لك أنْ
تَحْكُمَ أمْ لاَ، وإنْ كنتُ أَتَمَنَّى أنْ أَلْجَأَ إلى جَبِينِكَ السَّمْحِ 215
وأَرْغَبُ أنْ أَفِرَّ إليْهِ، رَاجِيًا أنْ يُؤَدِّي حُكْمُك
- استنادًا إلى مَظْهَرِك الهَادِئِ ونَظْرَتِك الحَانِيَةِ -
لا إلى تَفَاقُمِ الشَّرِّ الذي يَكْتَنِفُنِي
بل إلى أنْ يَحولَ بَيْني وبَيْن غَضَبِ أبيك،
(وخَوْفِي مِنْ غَضَبِهِ يفوقُ خَوْفِي مِنْ نَار جَهَنَّمَ) 220
فذلك الجَبِينُ مأوىً وظِلٌّ يُبْتَردُ فيه
ويَتَوَسَّطُ بَيْنَنَا كأَنَّهُ سَحَابَةُ صَيْفٍ.
فإذا كنتُ سأُسْرِعُ إلى لُقْيَا أَسْوَأِ ما يكونُ
فلماذا تُبْطِئُ أنتَ في خَطْوِك إلى أفْضَلِ الأحوالِ
وأَهْنَئِها لكَ ولِلدُّنْيا بأَسْرِها، أيْ أنْ 225
تتوَلَّى المُلْكَ وأنت أَجْدَرُ مَنْ يتوَلاَّهُ؟
رُبَّمَا لمْ يكنْ ما يُؤَخِّرُكَ سِوَى الاسْتِغْرَاقِ في الأَفْكارِ العَمِيقَةِ التي
تكتنفُ ذلكَ العَمَلَ البَالغَ الخَطَرِ والرِّفْعَةِ،
ولا عَجَبَ في ذَلِكَ، فإنَّهُ وإنْ كانَ قد اجْتَمَعَ فيكَ
كُلُّ ما يَتَوافَرُ في البَشَرِ منْ صِفَاتِ الكَمَالِ، 230
أو ما تَقْدِرُ الطبيعةُ البَشَرِيَّةُ على تَلَقِّيه، فلا تَنْسَ أنَّ

حَيَاتَكَ كانتْ حتى هذه اللَّحْظَةِ حياةً خَاصَّةً ، قَضَيْتَ مُعْظَمَها
في المَنْزِلِ ، ونَادِرًا ما كنتَ تُشَاهِدُ مُدَنَ الجَلِيل ، ولا
تَزُورُ أُورْشَلِيمَ إلا مَرَّةً واحدةً في السَّنَةِ ، فَتَقْضِي أيَّامًا مَعْدُودَةً
في زِيَارَةٍ قصيرةٍ ، وماذا عَساكَ اسْتَطَعْتَ أنْ تَرَى هُنَاكَ؟ 235
إنَّك لَمْ تَرَ الدُّنْيا ، بلْ وَمَا أَقَلَّ ما رَأَيْتَ مِنْ أَمْجَادِها ،
مِنْ مَمَالِكِها ومُلُوكِها وقُصُورِهِمْ المَلَكِيَّةِ البَرَّاقَةِ ،
أَفْضَلِ المَدَارِسِ لِتَعْلِيمِ أَفْضَلِ الخِبْرَاتِ ، وأَسْرَعِ المَشَاهِدِ في
حَفْزِ النَّفْسِ إلى القِيَامِ بِأَجَلِّ الفِعَالِ .
وأمَّا الأَحْكَمُ وغَيْرُ الخَبِيرِ فسوفَ يكونُ دائمًا 240
مُتَرَدِّدًا وعَازِفًا ومُبْدِيًا تواضُعَ المُبْتَدِئين
(مثلَ ذلك الذي خَرَجَ يبحثُ عَنْ حُمُرِ والدِهِ فَعَثَرَ على مَمْلَكَةٍ لِنَفْسِهِ)
مُفْتَقِرًا إلى العَزْمِ ، لَيِّنَ العَرِيكَةِ ، رافِضًا لِلْمُغَامَرَةِ :
ولكنَّني سوفَ أَصْحَبُكَ إلى حَيْثُ تَتَجَاوَزُ سَرِيعًا
هذه المَرَاحِلَ الأَوَّلِيَّةَ ، وتَرَى أمامَ عَيْنَيْكَ 245
ممالكَ الأَرْضِ ، وتَشْهَدُ بها مِنَ الأُبَّهَةِ والفَخَامَةِ
ما يكفي لِتَهْيِئَتِكَ وتَدْرِيبِكَ ،
وإنْ كنتَ في ذَاتِكَ فَطِنًا مَوْهُوبًا ، على الفُنُونِ المَلَكِيَّةِ
وأَسْرَارِ المُلْكِ ومَهَارَاتِهِ ، حتى تَتَسَلَّحَ بالعِلْمِ
بأفضَلِ وَسَائِلِ مُقَاوَمَةِ مُعَارَضَةِ هذه المَمَالِكِ لك . 250
وما إنْ قالَ ذَلِكَ (وكان اللهُ قد وَهَبَهُ قُوَّةً جَبَّارَةً)
حتى اصْطَحَبَ ابْنَ الله إلى جَبَلٍ سَامِقٍ .

كانَ جَبَلاً يمتدُّ عند سَفْحِهِ الأَخْضَرِ
قاعٌ مُنْبَسِطٌ شاسِعٌ يَلْتَفُّ في دائرةٍ فَسِيحَةٍ
ذاتَ منظرٍ بهيجٍ ، ومِنْ جانبِهِ يَنْبُعُ نَهْرانِ ويتدفَّقانِ ، 255
أَحَدُهُما يَتَعَرَّجُ في سَيْرِهِ والثاني يَسِيرُ في خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ ،
وما بَيْنَ النَّهرَيْنِ سَهْلٌ جَمِيلٌ تَتَخَلَّلُهُ النُّهَيْراتُ المُتَدَاخِلَةُ كالشَّرَايِينِ ،
ثم يَلْتَقِي النَّهْرانِ ويَصُبَّانِ ماءَهُما في البَحْرِ ،
وكانتْ تِلْكَ الرُّقْعَةُ مِنَ الأَرْضِ خِصْبَةً حافِلَةً بالقَمْحِ والزَّيْتِ والنَّبِيذِ ،
مَرَاعِيها زَاخِرَةٌ بالأَبْقَارِ ، وتِلالُها بالأَغْنَامِ ، وكانت 260
مَقَاعِدَ مُلْكِ مُلُوكٍ جَبَابِرَةٍ ، ولقد بَلَغَ من انْفِسَاحِ
ذلك المَشْهَدِ أَنْ اتَّسَعَ لِبِقَاعٍ مُتَنَاثِرَةٍ هُنَا وهُنَاكَ
مِنَ الصَّحَارَى القَاحِلَةِ المُجْدِبَةِ التي لا نَبْعَ فيها ولا مَاءَ .
وأَتَى المُغْوِي إلى قِمَّةِ هذا الجَبَلِ الشَّاهِقَةِ 265
بِمُخَلِّصِنا وتَدَفَّقَ مِنْ فَمِهِ سَيْلٌ جديدٌ مِنَ الأَلْفَاظِ قائلاً :
ما أَبْرَعَ ما أَسْرَعْنا فَذَرَعْنا التِّلالَ والوِدْيَانَ ،
والغاباتِ والحُقُولَ ، وتَجاوَزْنَا الأَنْهَارَ والمَعَابِدَ والأَبْرَاجَ ،
وقَطَعْنا فَرَاسِخَ كثيرةً في زَمَنٍ يَسيرٍ ؛ وها أَنْتَ ذَا تَرَى هُنا
آشُورَ وتُخُومَ إِمْبَرَاطُورِيَّتِها العَرِيقَةِ ، 270
ونَهرَ أَرَاكِيسَ الذي يَصُبُّ في بَحْرِ قَزْوِين ، ومِنْ بَعْدِهِ
وحتى نَهرِ الإِنْدُوسِ شَرْقًا ، والفُرَاتِ غَرْبًا ،
بَلْ وتَرَى الكثيرَ مِمَّا وَرَاءَهُ ، فَتَرَى في الجَنُوبِ الخليجَ العربي
وصَحْرَاءَ بِلادِ العَرَبِ التي لا يَقْدِرُ على ذَرْعِهَا أَحَدٌ :

وتَرَى هُنَا نِينَوَى، وطُولُ هذهِ المَدِينَةِ دَاخِلَ أَسْوَارِهَا 275

مَسِيرَةُ عِدَّةِ أَيَّام، وهي التي بَنَاها نِينُوسُ العَرِيقُ،

وكانتْ عاصمةَ هذه المَمْلَكَةِ الذَّهَبِيَّةِ الأُولى،

ومَقَرًا لِحُكْم شَلْمَنْأَسَر، وهو الذي لا يَزَالُ

بَنُو إسرائيلَ يَبْكُونَ نَجاحَهُ في أَسْرِهِمْ رَدَحًا طَوِيلاً مِنَ الزَّمَنِ.

وهُنَاكَ تَرَى بَابِلَ أُعْجُوبَةَ الأَلْسِنَةِ جَمِيعًا، 280

والتي لا تَقِلُّ عَرَاقَةً وقِدَمًا، ولكنْ أعادَ بِنَاءَهَا الرَّجُلُ الذي

أَسَرَ مَرَّتَيْن يَهُوذا وجميعَ أَفْرَادِ أُسْرَةِ أبيكَ دَاوُدَ،

وأَقْدَمَ عَلَى تَخْرِيبِ مَدِينَةِ أُورَشَلِيم،

حتى حَرَّرَهُم قُورَشُ، وها هي پرْسِيپُولِيسُ

مَدِينَتُهُ التي تَرَاها هناك، ومدينة بَكْترا أيضًا، 285

كما تُبْدِي مدينةُ إكْبَاتَانَا مَدَى اتِّسَاعِ هَيْكَلِها،

ومدينةُ هِيكَاتُومْپِيلُوس أَبْوَابَها المِائَةَ،

ومدينةُ شُوشَانَ على نَهْرِ خُوَاسْپِيسْ، بِلَوْنِهِ العَنْبَرِيِّ،

الذي لا يَشْرَبُ من مائِهِ إلاَّ الملوكُ، وانْظُرْ ما اشْتَهَر فيما بَعْدُ

مِنْ مُدُنٍ بَنَتْهَا أَيَادِي المَقْدُونِيِّينَ أو البَارِثِيِّينَ، مثلَ 290

سُلُوقْيَا الكُبْرَى، ونِيسِيبِيس، وهناكَ تَرَى

أَرْتِخَاتَا، ومِنْ بَعْدِهَا تِيرِيدُونَ ثم سْتِيسِيفُون

إنْ رَمَيْتَ الطَّرْفَ فَتَجَلَّتْ لَكَ بِسُهُولَةٍ.

كان مُلْكُ البَارِثِيِّينَ يَضُمُّ هذهِ جَمِيعًا، في عُصُورٍ سَحِيقَةٍ،

بقيادةِ أَرْسَاكِيسَ العَظِيمِ، الذي كانَ أَوَّلَ مَنْ 295

أَسَّسَ تِلْكَ الإِمْبَرَاطُورِيَّةَ وبَسَطَ سُلْطَانَهُ عَلَيْهَا
مُنْتَزِعًا إِيَّاهَا مِنْ أَيْدِي مُلُوكِ أَنْطَاكِيَةَ المُتْرَفِينَ.
ولَقَدْ جِئْتَ في الوَقْتِ المُنَاسِبِ لِتَشْهَدَ طَرَفًا
مِنْ قُوَّتِهِ الجَبَّارَةِ؛ إِذْ إِنَّ المَلِكَ البَارْثِيَّ الآنَ
قد حَشَدَ في سِتِيسِيفُونَ كُلَّ جُيُوشِهِ 300
لِلْهُجُومِ على الإِسْقِيثِيِّينَ الذين أَدَّتْ غَزَوَاتُهُمْ الهَمَجِيَّةُ
إلى تَخْرِيبِ سوجْدِيَانَا، وها هُوَ يَهُبُّ لِنَجْدَتِهَا
مُسْرِعًا في الزَّحْفِ بِجَيْشِهِ، وانْظُرْ، وإِنْ يَكُنِ المَشْهَدُ بعيدًا،
تَشْهَدْ آلافَهُ المُؤَلَّفَةَ، وكيفَ يَنْطَلِقُونَ بِعَجَلاتِهِمْ الحَرْبِيَّةِ
ويَتَدَفَّقُونَ حَامِلِينَ الأَقْوَاسَ الفُولاذِيَّةَ، ويَرْمُونَ سِهَامَهُمْ 305
التي تَقْذِفُ بالرُّعْبِ في القُلُوبِ سَوَاءً أكانُوا يَفِرُّونَ أَمْ يَكِرُّونَ.
كُلُّهمْ فُرْسَانٌ، وأَشَدُّ ما يَتَفَوَّقُونَ فيهِ القِتَالُ رَاكِبِينَ؛
انْظُرْ كيفَ انْتَظَمَتْ صُفُوفُهمْ لِلْحرْبِ وتَجَلَّتْ في تشكيلاتٍ
مُرَبَّعَةٍ وكالإسْفِينِ ومِثْلَ الأَهِلَّةِ والأَجْنِحَةِ.
وتَطَلَّعَ فَرَأَى أَيَّةَ أَعْدَادٍ لا تُحْصَى خَرَجَتْ تَتَدَفَّقُ 310
مِنْ أَبْوَابِ المَدِينَةِ، جُنُودٌ يَحْمِلُونَ أسلحةً خَفِيفَةً
وتَكْسُوهُمُ الدُّرُوعُ والكِبْرِيَاءُ الحَرْبِيَّةُ؛
وخُيُولُهُمْ تَكْسُوهَا الدُّرُوعُ ولكنَّها سَرِيعَةٌ وقَوِيَّةٌ،
تَتَبَخْتَرُ مَزْهُوَّةً بِرَاكِبِيها، فَهُمْ زَهْرَةُ الشَّبَابِ المُقْتَطَفَةُ
مِنْ كُلِّ شِبْرٍ مِنْ عَدَدٍ كبيرٍ مِنَ الأَقَالِيمِ: 315
مِنْ أَرَاخُوسْيَا، ومِنْ كانْدَوُورَ شَرْقًا،

ومن مَرْجِيَانَا إلى الصُّخُورِ الهِرْقَانِيَّةِ السَّامِقَةِ
في القُوقَازِ، ومَجَاهِلِ قِيعَانِ إِيبِرْيَا،
ومِنْ أَتْرُوبَاتْيا والسُّهُولِ المُجَاوِرَةِ لها في
أَدْيَابِينِي، ومِيدْيَا، وجَنُوبِي 320
سُوسْيَانَا إلى مَرْفَأ بَلْسَارَا.
شاهَدَهُمْ مُصْطَفِّينَ في تَشْكِيلاَتِهِمْ القِتَالِيَّة
وشَاهَدَ كيفَ يُحَوِّمُونَ مُسْرِعِينَ وخَلْفَهُمْ تَتَطَايَرُ السِّهَامُ
الحَادَّةُ كأَنَّها الأَمْطَارُ الثَّلْجِيَّةُ المُنْهَمِرَةُ على وُجُوهِ
مَنْ يُطَارِدُونَهُمْ وتَغْلِبُهُمْ فَيَفِرُّونَ فِرَارًا؛ 325
كانَ المَيْدَانُ الذي انْتَشَرَ فيه الحَدِيدُ يُشِعُّ بريقًا بُنِّيَّ اللَّوْنِ،
ولا تَنْقُصُهُ سَحَائِبُ مِنْ جُنُودِ المُشَاةِ، وعلى كُلِّ جَانِبٍ
اسْتَعَدَّ لابسُو الدُّرُوعِ الفولاَذِيَّةِ لِلْقِتَالِ وُقُوفًا؛
وكانتْ العَجَلاَتُ الحَرْبِيَّةُ أو الأَفْيَالُ مُدَعَّمَةً بأَبْرَاجٍ
مِنَ الرُّمَاةِ، وكانتْ كتائبُ الطَّلاَئِعِ دائبةَ النَّشَاطِ، 330
حَشْدٌ زاخِرٌ مِنَ العُمَّالِ المُسَلَّحِينَ بالفُؤُوسِ والجَوَارِيفِ
لِتَسْوِيَةِ الأَرَاضِي الوَعْرَةِ، أو قَطْعِ الأَشْجَارِ، أو مَلْءِ الحُفَرِ،
أو إِقَامَةِ تَلٍّ في مكانِ أَحَدِ السُّهُولِ، أَوْ إِنْشَاء
الجُسُورِ فَوْقَ الأَنْهَارِ ذاتِ الصَّلَفِ كأنما تَغُلُّها بالنِّيرِ؛
ومِنْ بَعْدِ هذه سارتِ البِغَالُ والجِمَالُ ذاتُ السَّنَامِ والسَّنَامَيْنِ، 335
والعَرَبَاتُ التي تَحْمِلُ أَدَوَاتِ الحَرْبِ ومُعِدَّاتِها.
لَمْ يَحْدُثْ مِنْ قَبْلُ أَنْ الْتَقَتْ مثلُ هذه القُوَّاتِ أو تَجَلَّى مِثْلُ



هذا المَيْدَانُ الشَّاسِعِ عندما حَاصَرَ أَجْرِيكَانُ بجميع قُوَّاتِهِ الشَّمَالِيَّةِ
مَدِينَةَ أَلْبَرَاكَّا، على نَحْوِ ما تَرْوِيهِ قِصَصُ الحُبِّ والبُطُولَةِ،
عاصمة المَلِك جَالاَفْرُونْ، وذلكَ حتَّى يفوزَ مِنْها 340
بالغَادَةِ أَنْجِلِيكَا، أَجْمَلِ بَنَاتِ جِنْسِهَا،
وابْنَةِ ذلكَ المَلِك، وهي التي كان يَطْلُبُهَا الكثيرُ مِنْ أَشْجَعِ الفُرْسَانِ،
مِنْ وَثَنِيِّينَ ومِنْ نُبَلاَءِ شَارْلَمَانَ أَيْضًا.
كان الفُرْسَانُ في ذَلِكَ المَيْدَانِ ذَوِي جَبَرُوتٍ، وأَعْدَادُهُمْ هَائِلَةٌ،
حَتَّى أَنَّ الشَّيْطَانَ عندما شَاهَدَهُمْ عادَ إلى جَسَارَتِهِ 345
وشَرَعَ مِنْ جَدِيدٍ يُخَاطِبُ مُخَلِّصَنَا قَائِلاً:
أُرِيدُكَ أنْ تَعْرِفَ أَنَّنِي لا أَسْعَى إلى اسْتِنْفَارِ
شَجَاعَتِكَ دُونَ أنْ أَتَّخِذَ كُلَّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ لِضَمَانِ
أَمْنِكَ وسَلاَمَتِكَ ضَمَانًا كَامِلاً؛ فَأَصْغِ إِلَيَّ كَيْ تُدْرِكَ
الغَايَةَ التي أَرَدْتُ تَحْقِيقَهَا مِنَ الإِتْيَانِ بِكَ إلى هُنَا وعَرْضِ 350
هذا المَشْهَدِ الرَّائِعِ كُلِّهِ عَلَيْكَ؛ إِذْ لَنْ تَنَالَ يَوْمًا مَمْلَكَتَكَ
وإِنْ كانَ قد تَنَبَّأَ بها مَلاَكٌ أو نَبِيٌّ
إلاَّ إذا كَافَحْتَ في سَبِيلِهَا، مِثْلَمَا فَعَلَ
دَاوُدُ أَبُوكَ مِنْ قَبْلُ، فَدَائِمًا ما تَفْتَرِضُ النُّبُوءَةُ،
مَهْمَا يَكُنْ مَوْضُوعُهَا أو صَاحِبُهَا، التَّوَسُّلَ بِوَسَائِلِ تَحْقِيقِهَا، 355
فإِنْ لَمْ يُتَوَسَّلْ بِهَذِهِ، نَقَضَتِ النُّبُوءَةُ ما قَالَتْ بِهِ.
ولكنْ فَلْنَقُلْ إِنَّكَ ظَفِرْتَ بِعَرْشِ دَاوُدَ
ووَافَقَ الجميعُ طَوْعًا على ذلك، ولَمْ يَعْتَرِضْ أَحَدٌ عَلَيْهِ،

سَامِريٌّ أو يَهُودِيٌّ، أنَّي لَكَ أنْ تَرْجُوَ أنْ
تَتَمَتَّعَ طَويلاً بها في هُدُوءٍ وأَمْنٍ 360
وقَدْ أحاطَ بكَ مِنَ الجَانِبَيْنِ عَدُوَّانِ جَبَّارَانِ
مِثْلَ الرُّومَانِ والبَارثيِّين؟ لابُدَّ أنْ تَتَأكَّدَ إذَنْ
مِنْ مُنَاصَرَةِ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ لَكَ، والبَارثِيُّونَ أَفْضَلُ
إنْ شِئْتَ مَشُورَتِي، بَعْدَ أنْ ثَبَتَتْ مُنْذُ عَهْدٍ
جِدِّ قريبٍ قُدْرَتُهم على الغَزْوِ وزَعْزَعَةِ أَمْنِ 365
بَلَدِكَ، وقَهْرِ مَلِكَيْهَا وأَسْرِهِمَا، وهُمَا
أَنْتِيجُونُوسُ وهِرْقَانُوسُ الهَرِمِ الذي غَلَّلُوهُ بالأَصْفَادِ،
رَغْمَ أَنْفِ الرُّومَانِ، ومُهِمَّتِي تَفْرِضُ عَلَيَّ
تَمْكِينَكَ مِنَ السَّيْطَرَةِ على البَارثِيِّينَ بأَيَّةِ وَسِيلَةٍ
تَخْتَارُهَا، سَوَاءٌ أكانَ ذَلِكَ بِقَهْرِهِمْ أم التَّحَالُفِ مَعَهُمْ. 370
فبذلك سَوْفَ تَسْتَعِيدُ، ودُونَهُ لَنْ تَسْتَعِيدَ
الوَسِيلَةَ الوَحِيدَةَ القَادِرَةَ على إعَادَةِ تَنْصِيبِكَ حقًّا
علَى عَرْشِ دَاوُدَ المَلَكِيِّ، ما دُمْتَ خَلِيفَتَهُ الصَّادِقَ،
وتَحْقِيقِ الخَلاَصِ لإخْوَتِكَ، أَقْصِدُ القَبَائِلَ العَشْرَ
التي ما زَالَتْ ذُرِّيَّتُهَا في أَرْضِهِمْ مُسْتَعْبَدَةً 375
في خَابُورَ ومُشَتَّتَةً في مُدُنِ مَادِي،
عَشْرَةُ أَبْنَاءٍ مِنْ نَسْلِ يَعْقُوبَ، واثْنَانِ مِنْ نَسْلِ يُوسُفَ،
إذْ فَقَدَهُمْ بَنُو إسْرَائِيلَ زَمَنًا طَويلاً، فَبَاتُوا مُسْتَعْبَدِينَ
مِثْلَمَا اسْتُعْبِدَ آبَاؤُهُمْ قَدِيمًا في أَرْضِ مِصْرَ،

وعَلَيْكَ الآنَ بما أَعرِضُهُ تَخْليصُهُمْ مِمَّا هُمْ فيه. 380

فإذا نَجَحْتَ في أنْ تُنقِذَ هؤلاءِ مِنَ الاسْتِعْبادِ

وتُعيدَ إليْهِمْ ميراثَهُمْ، فَلَسَوْفَ تَجْلِسُ عِنْدَها، ولَنْ تَجلسَ

قَبْلَ ذلِكَ، على عَرْشِ داوُدَ بأمْجادِهِ الكامِلةِ،

وسوفَ يَمْتَدُّ مِنْ مِصْرَ إلى الفُراتِ وما وَراءَهُ

حُكْمُكَ، دُونَ خَوْفٍ مِنْ رُوما أو مِنْ قَيْصَرَ. 385

وأَجابَهُ مُخَلِّصُنا دونَ أنْ يبدو عليهِ التَّأَثُّرُ قائلاً:

ما أَكْثَرَ مَظاهِرَ التَّفاخُرِ الكاذِبَةِ بِسَواعِدِ البَشَرِ

وما تَحمِلُه مِنْ أَسْلِحَةٍ هَشَّةٍ، وما أَكْثَرَ آلاتَ الحَرْبِ التي

اسْتَغْرَقُوا وَقْتًا طويلاً في تَجْهيزِها وسَرْعانَ ما لا تُسْفِرُ عَنْ شَيْءٍ،

على نَحْوِ ما عَرَضْتَهُ علَى عَيْنَيَّ الآنَ، كما أَسْمَعْتَ أُذُنِي 390

أَلْفاظًا كثيرةً عَنْ أَحابيلِ السِّياسَةِ والخُطَطِ المُعَقَّدَةِ

للأَعْداءِ والمَعُونَاتِ والمَعَارِكِ والتَّحالُفَاتِ

التي تَقْبَلُها الدُّنْيا بسُرورٍ ولا قِيمَةَ لَها عِنْدي.

تقولُ إنَّني يَجِبُ أنْ أَتوَسَّلَ بالوَسائِلِ اللَّازمَةِ وإلاَّ

ما تَحقَّقَتْ النُّبُوءَةُ ولَمْ تَأْتِ إليَّ بالعَرْشِ: 395

ولَقَدْ قُلْتُ لَكَ إنَّ وَقْتي لَمْ يَحِنْ بَعْدُ

(والأَفْضَلُ لكَ أنْ يَتأَخَّرَ هذا الوَقْتُ كثيرًا)

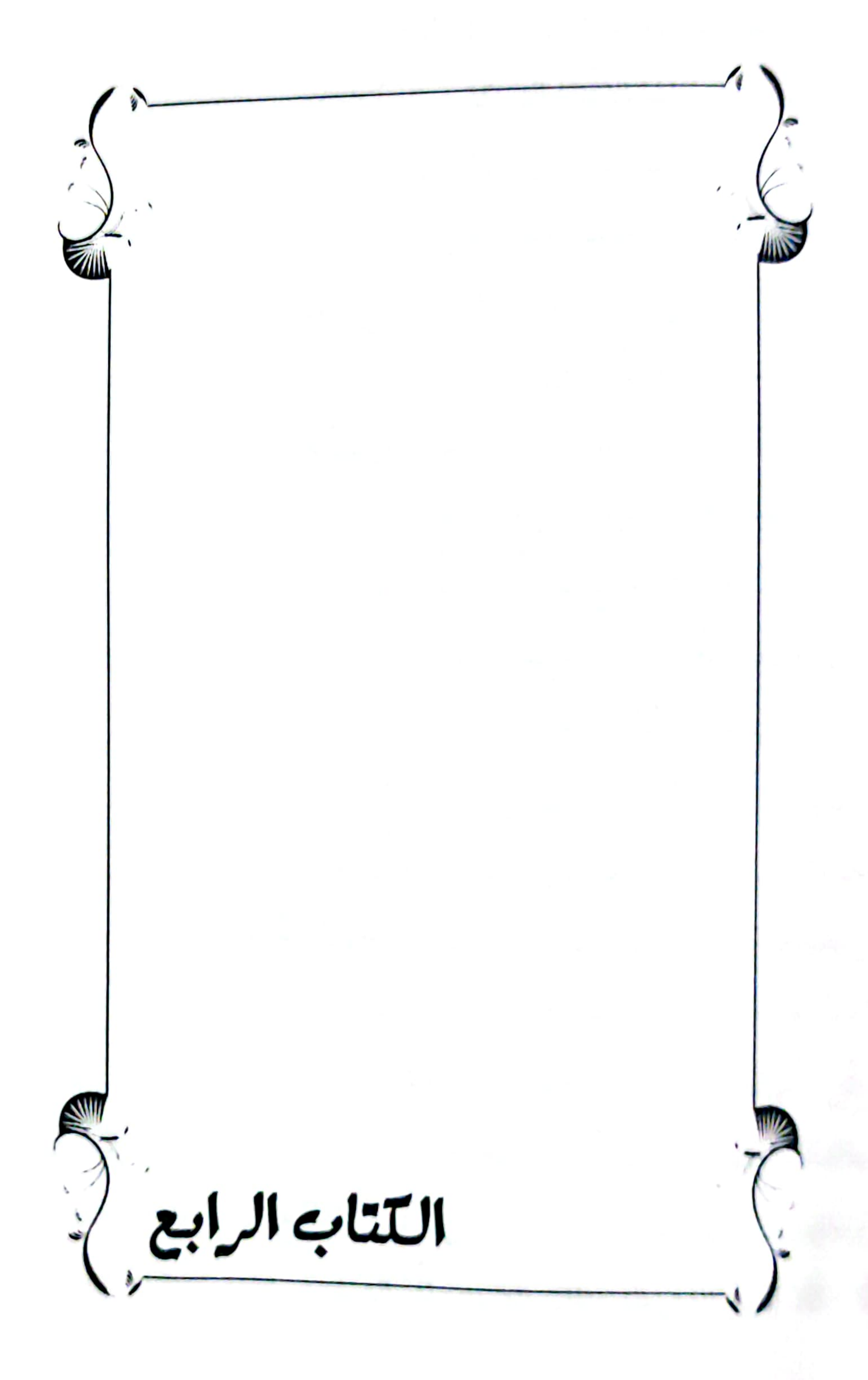
وعندما يَحِينُ لا تَظُنَّنَّ أنِّي أَتكاسَلُ أو أَتَقاعَسُ

مِنْ جانِبِي عَنِ الجِهادِ، أو أنني سوفَ أحتاجُ إلى

مَبادِئِكَ السِّياسِيَّةِ، أو إلى هذه الأَثْقالِ المُرْبِكَةِ 400

مِنْ عُدَدِ الحَرْبِ التي عَرَضْتَها عَلَيَّ، فإنَّها دَلِيلٌ على
الضَّعْفِ البَشَرِيِّ لا عَلَى القُوَّةِ.
تقولُ إنَّني يجبُ أنْ أُخَلِّصَ إخْوَتِي، كما تُسَمِّيهِمْ؛ أيْ
تلكَ القَبَائِلَ العَشْرِ، إنْ شِئْتُ تَوَلِّي الحُكْمِ باعْتِبَارِي
وَرِيثَ دَاوُدَ الحَقِيقِيِّ، وبَسْطِ سُلْطَانِي كَامِلاً 405
وإلى أَعْدَلِ الحُدُودِ على جَميعِ بَنِي إسْرَائيل؛
ولكنْ أنَّى اكْتَسَبْتَ هذه الغَيْرَةَ، وأَيْنَ كانتْ غَيْرَتُكَ
على بَنِي إسْرَائيلَ أو على دَاوُدَ أو على عَرْشِهِ
عندما قُمْتَ بإغْوَائِهِ على التَّفَاخُرِ المَقِيت
بإحْصَاءِ عَدَدِ بَنِي إسْرَائِيلَ، وكانَ ثَمَنُهُ أَرْوَاح 410
سَبْعِينَ أَلْفِ شَخْصٍ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ نَتِيجَةَ
الوَبَاءِ الذي حَلَّ بِهِمْ ثَلاثَةَ أيَّام؟ كانت غَيْرَتُكَ
على بَنِي إسْرَائِيلَ آنَذَاكَ صِنْوَ غَيْرَتِك عليَّ أنا الآن.
وأما تِلْكَ القَبَائِلُ العَشْرُ الأَسِيرَةُ، فإنَّها هِيَ التي
تَسَبَّبَتْ بِنَفْسِها في أَسْرِها، إذْ تَنَكَّرَتْ 415
لِعِبَادَةِ الله وتَرَكَتْهُ لِتَعْبُدَ العُجُولَ والآلِهَةَ
المِصْرِيَّة، ثم عَبَدَتِ البَعْلَ بَعْدَ ذلك وعَشْتَرُوتَ،
وجَمِيعَ الأَصْنَامِ المَعْبُودَةِ في دُنْيا الوَثَنِيَّةِ كُلِّها.
إلى جَانِبِ جَرَائِمِهَا الأُخْرَى التي تَزِيدُ سُوءًا عَنْ الوَثَنِيَّةِ،
بلْ ولَمْ تَقْبَلْ في الأَرْضِ التي أُسِرَتْ فيها 420
أنْ تُبْدِيَ التَّوَاضُعَ أوْ أنْ تَسْعَى تَائِبَةً لِعِبَادَةِ

اللهِ الذي كان يَعْبُدُهُ أَسْلافُها، بَلْ تُوُفِّيَتْ
دونَ أنْ تَتُوبَ وتَرَكَتْ مِنْ بَعْدِهَا سُلالَةً
تُشْبِهُهَا، ولا تكادُ تتميَّزُ أو تَخْتَلِفُ
عَنْ الأُمميِّينَ، إلاَّ بالخِتَانِ البَاطِلِ، 425
وجَمَعَتْ في العِبَادَةِ بيْنَ اللهِ والأَصْنَام.
هَلْ يَجِبُ عليَّ أنْ أَنْشُدَ حُرِّيَةَ هؤلاءِ
الذين انْقَلَبُوا بَعْدَ تَحْريرِهِمْ، كأنَّما يَطْلُبُونَ ميراثَهُمْ القَدِيمَ،
دُونَ تَوَاضُعٍ، ودُونَ تَوْبَةٍ، ودُونَ هِدَايَةٍ،
يَتَّبِعُونَ مُتَعَجِّلِينَ ما كانُوا فيهِ ورُبَّما عَبَدُوا أَرْبَابَهُمْ 430
فِي بَيْتِ إيلَ وفي دَانَ؟ كَلاَّ، فَلْيَظَلُّوا عَبِيدًا
لأَعْدائِهِمْ الذينَ يَعْبُدونَ الأَصْنَامَ معَ اللهِ.
ولكنَّ اللهَ قد يَشَاءُ بَعْدَ فَتْرَةٍ ما، وفي وَقْتٍ لا يَعْلَمُهُ سِوَاهُ،
أنْ يَذْكُرَ إبراهيمَ اسْتِجَابَةً لِدُعَاءٍ خارقٍ
فَيَقْضِي بِعَوْدَتِهِمْ تَائِبِينَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّين، 435
وأن يَفْرِقَ النَّهْرَ الأشُورِيَّ فَيَضْرِبَ لَهُمْ فيهِ طَرِيقًا يَبَسًا
أثْنَاءَ عُبُورِهِمْ مُسْرِعِينَ فَرِحِينَ عَائِدِينَ إلى أَرْضِ وَطَنِهِمْ،
مِثْلَمَا فَرَقَ البَحْرَ الأَحْمَرَ ونَهْرَ الأُرْدُن ذاتَ يَوْم
عندما جَاوَزَ بآبائِهِمْ البَحْرَ عَابِرِينَ إلى الأَرْضِ المَوْعُودَةِ.
وأنا أتْرُكُهُمْ لِعِنَايَةِ اللهِ والوَقْتِ الذي يُحَدِّدُهُ. 440
قال ذلك المَلِكُ الحَقِيقيُّ لِبَني إسْرَائيلَ، فَرَدَّ على الشَّيْطَانِ
بالإجَابَةِ المُنَاسِبَةِ، وهي التي أَبْطَلَتْ جميعَ حِيَلِهِ الماكِرَةِ.
وذلك ما يَحْدُثُ عندما يُنَازِعُ الباطِلُ الحقَّ.



الكتاب الرابع



وَقَفَ المُغْوِي حَائِرًا مُضْطَرِبًا بَعْدَ أَنْ خابَ سَعْيُهُ،
وَلَمْ يَجِدْ لَدَيْهِ ما يُجِيبُ بِهِ على ما قِيلَ بَعْدَ
الكَشْفِ عَنْ مُخَاتَلَتِهِ، وإقْصَائِهِ عَنْ رَجَائِهِ الذي
تكرَّر كثيرًا، وفَشَلِ بَلاغَةِ الإقْنَاعِ التي كانتْ تَزِينُ
لِسَانَهُ المَعْسُولَ، وفازَتْ بالكَثِيرِ في حَالَةِ حَوَّاءَ، 5
ولمْ تُغْنِهِ فَتِيلاً هُنا بلْ وضَاعَتْ! ولكنَّ حواءَ كانتْ حواءَ،
وأمَّا هذا فأكبرُ بِمَرَاحِلَ منْ أنْ يكونَ نِدًّا لمنْ خَدَعَ نَفْسَهُ
وتَهَوَّرَ فَلَمْ يُحْسِنْ مُقَدَّمًا تَقْدِيرَ وَزْنِ
القُوَّةِ التي كُتِبَ عَلَيْهِ أنْ يَتَصَدَّى لَهَا، أو قُوَّتِهِ هو نَفْسُه:
ولكنه كانَ يُشْبِهُ رَجُلاً يَعْتَبِرُهُ الناسُ بلا نَظِير 10
في المَكْرِ، ثُمَّ أَخْفَقَ في مَوْقِعٍ لمْ يكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ،
فأرادَ أنْ يُنْقِذَ مكانتَهُ، ومازالَ الحِقْدُ يَدْفَعُهُ
إلى إغْوَاءِ الذي ما فَتِئَ يُحْبِطُ أَحَابِيلَهُ،
دونَ أنْ يَكُفَّ قطُّ، مَهْما يَزِدْ ذلكَ مِنْ خِزْيِهِ وعَارِهِ،
أو كانَ مِثْلَ سِرْبٍ مِنَ الذُّبَابِ في وَقْتِ عَصْرِ الكُرُوم 15
حينَ يَتَجَمَّعُ حَوْلَ آلَةِ عَصْرِ النَّبِيذِ حَيْثُ يَتَدَفَّقُ العصيرُ الحُلْو،
فإذا ذُبَّ عَنْ الحَافَّةِ عادَ مِنْ جَدِيدٍ بأصواتِ الطَّنِينِ،
أو مِثْلَ الأَمْوَاجِ الهَائِجَةِ التي تَلْطِمُ صَخْرَةً صَلْدَةً،
فإنها تتكَسَّرُ وتَتَفَرَّقُ ولكنها تُجَدِّدُ الهُجُومَ،
ضاربةً الصَّخْرَةَ عبثًا، ثم تَنْتَهي إلى رُغَاءٍ من الزَّبَدِ والفَقَاقِيعِ؛ 20
فهكذا كانَ إبْلِيسُ الذي ظَلَّ يتلقَّى الصَّدْمَةَ تِلْوَ الصَّدْمَةِ

دونَ تَوَقُّفٍ، وهي التي أَخْرَسَتْ لِسَانَهُ،
لكنه لا يَسْتَسْلِمُ وإِنْ كانَ مُسْتَيْئِسًا مِنَ الفَوْزِ،
بَلْ يُواصِلُ إِلْحَاحَهُ وجُهُودَهُ المُلْحِفَةَ عَبَثًا.
وأَتَى بِمُخَلِّصِنا إلى الجَانِبِ الغَرْبِيِّ 25
مِنْ ذَلِكَ الجَبَلِ الشَّاهِقِ، فَمِنْهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبْصِرَ
سَهْلاً آخَرَ، سَهْلاً طَوِيلاً وإِنْ لَمْ يَكُنْ عَرِيضًا،
يُطِلُّ على البَحْرِ جَنُوبًا، وتَقَعُ في الخَلْفِ شَمَالاً
هَضَبَةٌ مِنَ التِّلاَلِ تُوَازِيهِ طُولاً
وتَقِي ثِمَارَ الأَرْضِ ومَنَازِلَ البَشَرِ 30
شَرَّ العَوَاصِفِ البَارِدَةِ الشَّمَالِيَّةِ، ومِنْ وَسَطِهَا
يَتَدَفَّقُ نَهْرٌ يَقْسِمهَا قِسْمَيْنِ، وعَلَى كُلِّ ضَفَّةٍ
مِنْ ضَفَّتَيْهِ تَشْمَخُ مَدِينَةٌ مَلَكِيَّةٌ قَاهِرَةٌ
تَرْتَفِعُ أَبْرَاجُهَا ومَعَابِدُهَا المُشْمَخِرَّةُ
فوقَ سَبْعَةِ تِلاَلٍ صَغِيرةٍ، تُزَيِّنُها القُصُورُ، 35
والأَرْوِقَةُ والمَسَارِحُ والحَمَّامَاتُ وقَنَوَاتُ المِيَاهِ على القَنَاطِرِ،
والتَّمَاثِيلُ، وتَذْكَارَاتُ الفَوْزِ، وأَقْوَاسُ النَّصْرِ،
والحَدَائِقُ والخَمَائِلُ التي كانَتْ عَيْنَاهُ تَتَطَلَّعَانِ إِلَيْهَا
مِنْ فَوْقِ قِمَمِ الجِبَالِ فيما بَيْنَهُ وبَيْنَهَا.
وأَمَّا كيفَ اخْتَلَفَ المَنْظَرُ مِنْ زَاوِيَةٍ لِزَاوِيَةٍ، وهو أَمْرٌ عَجِيبٌ، أو كيفَ 40
كانَتْ المَهَارَةُ البَصَرِيَّةُ تُضَاعِفُ المَشَاهِدَ في الهَوَاءِ أو مِنْ خِلاَلِ عَدَسَةِ
التِّليسكوبِ، فأَسْئِلَةٌ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُطْرَحَ؛

وما عَتَّمَ المُغْوِي أنْ قَطَعَ حَبْلَ صَمْتِهِ قائلاً :
لا تَحْسَبَنَّ المَدِينَةَ التي تَرَاهَا غَيْرَ
رُوما العظيمةِ المجيدةِ، مَلِكَةِ الأَرْضِ، 45
ذاتَ الصِّيتِ الذَّائعِ، والتي اغْتَنَتْ بالمَغَانِمِ المُكْتَسَبَةِ مِنْ
الأُمَمِ، وأنْتَ تَرَى هناكَ مَبْنَى الكابيتول
مُشْرَئِبًا بِرَأْسِهِ المَزْهُوَّةِ عَالِيًا فَوْقَ الجَمِيعِ
على الصَّخْرَةِ الطَّرْبِيَّةِ، وتَرَى قَلْعَتَهُ
الحَصِينَةَ، وتَرَى جَبَلَ بالاتين، 50
وهو القَصْرُ الإمبراطوريُّ ذو النِّطَاقِ الشَّاسِعِ، مُرْتَفِعَ
الهَيْكَلِ، تَتَبَدَّى فيه مَهَارَةُ أَشْرَفِ المُهَنْدِسِينَ،
بِشُرُفَاتِهِ المَطْلِيَّةِ بالذَّهَبِ، بَارِزًا على مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ،
والأَبْرَاجَ المُدَرَّجَةِ وذَاتَ القِمَمِ المُدَبَّبَةِ المُتَلأْلِئَةِ.
وانْظُرْ الكثيرَ أَيْضًا مِنَ الصُّروحِ الخَلاَّبَةِ، والأَقْرَبِ إلى 55
مَنَازِلِ الأَرْبَابِ (فلقد أَجَدْتُ إعْدَادَ الميكروسكوب الهَوَائِي
الذي أَمْلكه) حتى تستطيعَ أنْ تُشَاهِدَ
خارجَ كُلِّ شَيْءٍ ودَاخِلَهُ معًا، فتَرَى الأَعْمِدَةَ والسُّقُوفَ
بِنُقُوشِهَا المَنْحُوتَةِ بأَيْدِي الصُّنَّاعِ المَهَرَةِ المَشْهُورِينَ
في خَشَبِ الأَرْزِ أو في الرُّخَامِ أو في العَاجِ أو الذَّهَبِ. 60
ثم نَقِّلْ بَصَرَكَ منها إلى الأَبْوَابِ الضَّخْمَةِ وانْظُرْ
كيفَ يَتَلاَقَى الخَارِجُونَ مِنْها أو الدَّاخِلُونَ فيها من
القُضَاةِ وحُكَّامِ الأَقَالِيمِ ذَاهِبِينَ إلى مُقَاطَعَاتِهِمْ

مُسْرِعِينَ أو عَائِدِينَ مِنْها، وقد ارْتَدَى كُلٌّ طَيْلَسَانَهُ؛

وأبْصر الحُجَّابَ الذي يَحْمِلُونَ الصَّوالجَ ورُمُوزَ سُلْطَانِ الحُكَّامِ، 65

والفَيَالِقَ والفَصَائِلَ، وفِرَقَ الفُرْسَانِ وأَجْنِحَةَ الجَيْشِ،

أو السُّفَرَاءَ القَادِمينَ مِنْ أَصْقَاعِ نَائِيَةٍ قَصِيَّةٍ،

بشَتَّى أَرْدِيَتِهِمْ سائرينَ في طَرِيقِ آبِيَا،

أَوْ في طريقِ إيميليا، فالبَعْضُ مِنْ أَقْصَى الجَنُوبِ،

مِنْ مَدينَةِ أَسْوَانَ، وحيثُ تُلْقِي الأَشْيَاءُ ظِلاَلَها شَمَالاً وجَنُوبًا، 70

في جَزيرَةِ مِيرُو وَسْطَ النِّيلِ، فإذا امْتَدَّ بَصَرُكَ غَرْبًا

شَاهَدْتَ مَمْلَكَةَ بُوخُوسَ المُطِلَّةَ على بَحْرِ المَغَارِبَةِ السُّودِ؛

فإذا انْتَقَلَ بَصَرُكَ مِنَ المُلُوكِ الآسْيَوِيين والپارثيين بينَهُمْ،

ومِنَ الهِنْدِ ومِنْ شِبْهِ جَزِيرَةِ الملايو العَامِرَةِ بالذَّهَبِ

إلى أَقْصَى الجُزُرِ الهِنْدِيَّةِ، وهي جَزِيرةُ سُومَطْرَةَ، 75

شاهدتَ وُجُوهًا سَمْرَاءَ وعَمَامَاتٍ بَيْضَاءَ تكلِّلُ الرُّءُوسَ،

ثم نَقِّلْ بَصَرَكَ إلى بِلادِ الغَالِ وقَادِسَ وغَرْبِيِّ بريطانيا

تَشْهدْ الجِرْمَانِيِّينَ والإِسْقِيثِيِّينَ، وبَرَابِرَةَ الشَّمَالِ

مِنْ وَرَاءِ نَهرِ الدَّانُوبِ إلى بَحْرِ آزُوف.

وجَمِيعُها أُمَمٌ تَدِينُ الآنَ بالطَّاعَةِ لرُوما 80

ولإمبراطورِ رُوما العَظِيمِ، فَلَهُ سلطانٌ عَرِيضٌ

يَمْتَدُّ على رُقْعَةٍ شَاسِعَةٍ مِنَ الأَرْضِ، وثَرَاءٌ وجَبَرُوتٌ،

وأخلاقٌ مُهَذَّبَةٌ، وفنونٌ شَتَّى وأَسْلِحَةٌ ماضِيَةٌ،

وصِيتٌ عَرِيقٌ، ورُبَّمَا فَضَّلْتَهُ مُحِقًّا

عَلَى مَلِكِ پَارْثِيا . وباسْتِثْنَاءِ هذيْنِ العَرْشَيْنِ 85

تَجِدُ البَاقِينَ هَمَجِيِّينَ، لا يكادُونَ يَسْتَحِقُّونَ إلْقَاءَ بَصَرِكَ،

ويتقاسمُ الحُكْمَ فيهمْ مُلُوكٌ صِغَارٌ في أَصْقَاعٍ جِدِّ نَائِيَةٍ،

وما دُمْتُ أَرَيْتُكَ هذه فَقَدْ أَرَيْتُكَ جَمِيعَ

مَمَالِكِ العَالَمِ وأَرَيْتُكَ أَمْجادَهَا جَمِيعًا .

وليسَ لِهذَا الإمبراطورِ ابنٌ، وقد بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا، 90

لكنه على هَرَمِهِ شَهْوَانِيٌّ فاسِقٌ، وقد تَقَاعَدَ الآنَ تارِكًا رُوما

إلى كاپرى، وهي جَزِيرَةٌ صَغِيرَةٌ حَصِينَةٌ بالقُرْبِ

مِنْ ساحِلِ كامپانيا، مُعْتَزِمًا أَنْ يُمارِسَ فيها إشْبَاعَ

شَهَوَاتِه البَشِعَة، وطَلَبَ المُتْعَةِ بَعِيدًا عَنِ العُيونِ،

وكَلَّفَ أَحَدَ المُقَرَّبِينَ مِنْهُ، وهو رَجُلٌ خَبِيثٌ، بِتَوَلِّي 95

جَمِيعِ مَهَامِّ الدَّوْلَةِ، وإِنْ كانَ يَسْتَرِيبُ فيه،

فالجميعُ يَكْرَهُونَهُ وهو يَكْرَهُ الجميعَ . ما أَيْسَرَ لَكَ إِذَنْ

بما تَتَحَلَّى بِهِ مِنْ شَمَائِلَ مَلَكِيَّةٍ وفَضَائِلَ

ظَاهِرَةٍ، أَنْ تَسْتَهِلَّ فِعَالَكَ الشَّرِيفَةَ إِنْ أَرَدْتَ

بِطَرْدِ هذا الوَحْشِ وإِقْصَائِهِ عَنِ العَرْشِ الذي 100

تَحَوَّلَ إلى حَظِيرَةِ خَنَازِيرَ، وأَنْ تَرْتَقِيَ فَتَحْتَلَّ مَكَانَهُ

وتُحَرِّرَ شَعْبًا ظَافِرًا مِنْ نِيرِ الاسْتِعْبَادِ!

ولَسَوْفَ تَنْجَحُ في تحقيقِ ذلكَ بمعُونَتِي ؛ إِذْ إِنَّنِي وُهِبْتُ

السُّلْطَةَ ومِنْ حَقِّي أَنْ أَهِبَكَ إِيَّاهَا .

لا تَجْعَلْ مَرْمَاكَ إِذَنْ يَقْصُرُ عن نَوْلِ العالمِ كُلِّهِ، 105

ارْمِ سِهَامَكَ إلى أَعْلى الذُّرا، فإنْ لم تَصِلْ إلى أَعْلَاهَا
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الجُلُوسَ، أو لَنْ تَجْلِسَ طَوِيلاً
على عَرْشِ دَاوُدَ، مَهْمَا تَكُنْ النُّبُوءَاتُ.
وجاءَه رَدُّ ابْنِ الله دُونَ انْفِعَالٍ قائلاً:
لا يَسْتَطِيعُ هذا الجَلَالُ وهَذِهِ المَشَاهِدُ الرَّائِعَةُ 110
للتَّرَفِ، وإنْ كانتْ تُوصَفُ بالأُبَّهَةِ والفَخَامَةِ،
أنْ تُغْوِيَ عَيْنِي أكثَرَ مِمَّا عَرَضْتَهُ مِنَ الأَسْلِحَةِ قَبْلَهَا،
بَلْ وتَقِلُّ عَنْها كثيرًا في قُدْرَتِها على إغْوَاءِ عَقْلِي، حتَّى ولَوْ
أَضَفْتَ مَشَاهِدَ الشَّرَهِ البَاذِخَةَ، والوَلَائِمَ البَدِيعَةَ الفَاتِنَةَ،
المُقَدَّمَةَ على مَنَاضِدَ مِنْ خَشَبِ أَشْجَارِ اللَّيْمُونِ ورُخَامِ جَبَلِ أَطْلَسَ، 115
(على نَحْوِ مَا سَمِعْتُ أَيْضًا ورُبَّما أكونُ قد قَرَأْتُ عَنْهَا)
وكذلك أَنْبِذَةُ سِيتْزَا، وكَالِيسَ، وفَالِيرْنِي،
وخِيُوسَ، وكِرِيتَ، وكيف تُرْتَشَفُ في كُؤُوسٍ ذَهَبِيَّةٍ،
وبِلَّورِيَّةٍ ومِنْ خَشَبِ شَجَرِ المُرِّ المُرَصَّعَةِ بالجَوَاهِرِ
والدُّرَرِ البَارِزَةِ من اللُّؤْلُؤِ، عَلَى ما بِي مِنْ ظَمَأٍ 120
وجُوعٍ مُقِيمَيْنِ: ولقد عَرَضْتَ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ يُمَثِّلُونَ
الأُمَمَ البَعِيدَةَ والقَرِيبَةَ، فأيُّ شَرَفٍ تَرَى في ذَلِكَ،
وهل تَرَى غَيْرَ ضَيَاعِ الوَقْتِ والضَّجَرِ في الجُلُوسِ والاسْتِمَاعِ
إلى الكَثِيرِ مِنَ المَدَائِحِ والأَكَاذِيبِ وأَفَانِينِ
المُدَاهَنَةِ الغَرِيبَةِ؟ وبَعْدَهَا انْتَقَلْتَ لِلْحَدِيثِ 125
عَنِ الإمبراطورِ، وسُهُولَةِ قَهْرِهِ وإِخْضَاعِهِ



وما أَعْظَمَ ما في ذلك مِنْ أمْجادٍ، وقُلْتَ إنَّني سَوْفَ أَطْرُدُ
وَحْشًا أَغْشَمَ، فَمَا بَالِيَ إذَنْ لا أَطْرُدُ أَيْضًا
الشَّيْطانَ الذي جَعَلَهُ على هذا النَّحْوِ أَصْلاً؟
فَلْيَظْفَرْ به ضَميرُهُ حَتَّى يتولَّى تَغْذِيَتَهُ، 130
فإنَّني لَمْ أُرْسَلْ إليْهِ، ولمْ أُكَلَّفْ بَعْدُ بتحريرِ
ذلكَ الشَّعْبِ الذي كانَ مُنْتَصِرًا يَوْمًا مَا، ثم عادَ خَبيثًا وَضيعًا
ونالَ ما يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الاسْتِعْبَادِ، ولقد كانَ ذاتَ يَوْمٍ عَادِلاً
يُؤْمِنُ بالتَّقَشُّفِ والطِّيبَةِ والاعْتِدَالِ فَأَحْسَنَ فُتوحَ البُلْدَانِ
ولكنَّهُ أَسَاءَ حُكْمَ الأُمَمِ التي أَخْضَعَها لِنيرِهِ 135
فنَهَبَ بِقَاعَها، واسْتَنْفَدَ ثَرَوَاتِها جميعًا
شَهْوَةً وسَلْبًا؛ إذْ اكْتَسَبَ الطَّمَعَ أَوَّلاً
مِنْ نَصْرِه وأَصَابَهُ الغُرُورُ والاسْتِهَانَةُ بِغَيْرِه،
ثُمَّ بَاتَ أفرادُه قُسَاةَ القُلُوبِ، واعْتَادُوا سَفْكَ الدَّمِ في التَّلَهِّي
بِتَقَاتُلِ الحَيَوَانِ وتَعْرِيضِ البَشَرِ للحيواناتِ الفَتَّاكَةِ، 140
وجَرَّ الثَّرَاءُ عليهم التَّرَفَ، وزادَ مِنْ طَمَعِهِمْ،
وغَدَوْا من جَرَّاءِ العُروضِ المسرحيَّةِ مُخَنَّثين.
مَنِ العاقلُ الشجاعُ الذي يقبلُ السَّعْيَ لِتَحْريرِ
هؤلاءِ الذينَ انْحَطُّوا وانْحَلُّوا، واسْتَرَقُّوا ذَوَاتَهم،
أوْ مَنْ ذا الذي يَقْدِرُ أنْ يَجْعَلَ عَبْدًا في باطنِه حُرًّا في ظَاهِرِه؟ 145
اعْلَمْ إذنْ أنه حينَ يحينُ الوقتُ لي للجلوسِ
على عَرْشِ دَاوُدَ، فسوفَ يكونُ كالدَّوْحَةِ

التي تَنْشُرُ فروعَها فَتَسْتَظِلُّ الأرضُ كُلُّها بِظِلِّها
أو مِثْلَ الحَجَرِ الذي سَوْفَ يُفَتِّتُ تَفْتِيتًا
كلَّ الممالكِ أيضًا في شَتَّى أَرْجاءِ الدُّنْيا، 150
وأنَّ مَمْلَكَتي لنْ تكونَ لهَا نهايةٌ أبدًا،
وأنَّ وسيلةَ تَحْقيقِ ذلكَ سَوْفَ تَتَوَافَرُ، وأما تِلْكَ الوَسِيلَةُ
فليسَ مِنْ حَقِّكَ أنْ تعرفَها، وليس مِنْ حقي إطلاعُكَ عليها.
وجاء ردُّ المُغْوي الذي عَادَ يقولُ بِوَقَاحَةٍ:
أَرَى كيفَ تَسْتَصْغِرُ شأنَ كُلِّ ما عَرَضْتُه عَلَيْك 155
وتستهينُ بِقِيمَتِه وتَرْفُضُه لأنَّني عَرَضْتُه:
فلنْ يَسُرَّ شيءٌ منْ كانَ ذَوَّاقَةً صَعْبَ الإِرْضَاءِ
أوْ لَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ المَزيدُ إلاَّ وعَارَضَهُ:
واعْلَمْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَيْضًا أَنَّني
أَعْتَبِرُ ما عَرَضْتُهُ بالغَ القِيمَةِ 160
وأنَّني لا أَنْتَوي تَقْدِيمَ ذَلِكَ كُلِّه دُونَ مُقَابِلٍ،
إنني أُعْطِيكَ كُلَّ ما وَقَعَتْ عليكَ في هَذِهِ اللَّحْظَةِ عَيْنُكَ،
ألا وهو مَمَالِكُ الأَرْضِ جَمِيعًا،
فما دُمْتُ قد وُهِبْتُها فَلِي أنْ أَمْنَحَهَا لِمَنْ أَشَاءُ،
ولَيْسَتْ هذه بِتَافِهَةٍ، ولكنْ بتحفظٍ وَاحِدٍ، أوْ قُلْ 165
بشرطٍ واحدٍ، وهو أنْ تَجْثُوَ وأنْ
تَسْجُدَ لي باعْتِبَارِي سَيِّدَكَ الأَسْمَى،
وما أَيْسَرَ أنْ تَفْعَلَ هَذَا فتَنَالَها جميعًا مِنِّي،

وهلْ تستحقُّ مثلُ هذه الهديَّة العُظمى أقلَّ مِنْ ذَلِكَ؟

وجاءتْ إجابةُ مُخَلِّصنا برنَّة احتقار، قائلاً: 170

ما أَحْبَبْتُ كلامَكَ قطُّ، وما تعرضُهُ أبْغَضُ مِنْ كلامِكَ،

والآنَ أَمْقُتُ هذا وذاكَ، ما دُمْتَ قد جَرُؤْتَ على أنْ تتفوه

بالشُّروط الكريهَةِ، أو بِذَلِكَ الشَّرْطِ النَّاطقِ بالكُفْر.

ولكنَّني أَحْتَملُ حتَّى يَحينَ الوَقْتُ المَعْلُومُ، وقد أُذِنَ لَكَ

حتى يَحينَ أنْ تُجادِلَني. قد كُتِبَ وقُدِّرَ في 175

أَوَّلِ الأَوامِرِ الصَّادِرَةِ أنَّ عليك أنْ تَسْجُدَ

للهِ رَبِّكَ، وألاَّ تَعْبُدَ إلاَّ إيَّاهُ.

فَهَلْ تَتجاسَرُ الآنَ وتَطْرَحُ عَلَى ابْنِ اللهِ

أنْ يَسْجُدَ لكَ أنتَ أيُّها المَلْعُونُ، بَلْ يا مَنْ ازْدادَ لَعْنَةً

بِسَبَبِ هذه الغِوَايَةِ التي تَزيدُ جُرْأَتُها عَنْ غِوايَتِكَ لِحَوَّاءَ 180

ويَزيدُ ما تَنْطِقُ به مِنْ إلْحادٍ؟ ولَسَوْفَ تَنْدَمُ عَلَى ذَلِكَ.

لقد مُنِحْتَ مَمالِكَ الدُّنْيا أو قُلْ إنَّهُ

أُذِنَ لَكَ بها فاغْتَصَبْتَها اغْتِصابًا،

ولَنْ تَقْدرَ أنْ تَنالَ غيرَها من المِنَحِ.

وما دامتْ مِنْحَةً فمنْ ذا الذي مَنَحَها غيرُ مَلِكِ الملوك، 185

اللهُ المُهَيْمِنَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؟ وما دُمْتَ قد مُنِحْتَها

فما أعْجَبَ إنْصافَكَ في مُجازَاةِ الذي

مَنَحَكَ إيَّاها! ولكنَّكَ فَقَدْتَ الامْتِنانَ

مُنْذُ أمدٍ بَعيدٍ. هلْ تَجَرَّدْتَ إلى هذا الحَدِّ مِنَ الخَوْفِ أو الحَياءِ

حتى تُقدِّمها لي أنا، وأنَا ابنُ اللهِ، حَتَّى تُصْبِحَ 190
مِلْكَ يَميني، في مثلِ ذلك العَقْدِ المَقيتِ،
طالبًا أنْ أركعَ وأسْجُدَ لكَ وأتَّخذَكَ إلهًا؟
سِرْ خَلْفِي، ما دامَ قدْ ظهر الآنَ بوُضوحٍ أنَّكَ
الشَّيْطَانُ الشِّريرُ، إبْلِيسُ الذي حَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ الأبَدِيَّةُ.
وأجَابَهُ الشَّيْطَانُ وقد أصَابَهُ الخَوْفُ بالارْتِبَاكِ قائلاً: 195
لا تَسْتَأْ هذا الاسْتِيَاءَ الشَّدِيدَ يا ابْنَ الله،
ورغم أنه قد يكونُ مِنْ أبْنَاءِ اللهِ مَلائِكَةٌ وبَشَرٌ،
فإنَّنِي إنْ كنتُ أحَاولُ أنْ أعْرِفَ إنْ كانتْ ثَمَّ مرتبةٌ أعْلَى
يُوحِي بهَا حَمْلُكَ لِهَذا اللَّقَبِ، قد عَرَضْتُ عَلَيْكَ
مَنْ يَسْتَلْهِمُونَنِي مِنَ البَشَرِ والمَلائِكَةِ، من 200
حُكَّامِ أحَدِ العَنَاصِرِ الأرْبَعَةِ - النَّارِ والهَوَاءِ والمَاءِ والتُّرَابِ،
وإلى جَانِبِهِمْ أُمَمٌ مِنْ أركانِ الرِّيَاحِ الأرْبَعَةِ جَمِيعًا،
والكلُّ يتضرعُ إليَّ ما دُمْتُ إلهَ هذا العَالَمِ والعَالَمِ السُّفْلِيِّ أيْضًا.
وهكذا فإنَّ مَعْرِفَةَ مَنْ تكونُ، يا مَنْ قالتْ النُّبُوءَةُ
إنَّ في مَجيئِكَ هَلاكِي، أشَدُّ ما يَشْغَلُنِي مِنْ أُمُورٍ. 205
ولم تُنْزِلْ مُحَاوَلَتِي بك أيَّ ضَرَرٍ على الإطْلاقِ
بل زَادَتْكَ شَرَفًا ورِفْعَةَ شأنٍ،
ولم تَأْتِنِي بأدْنَى فَائِدَةٍ؛ إذْ طاشَ سَهْمِي عَنْ مَرْمَاهُ.
فاضْرِبْ صَفْحًا عَنْ ذلك، فكلُّها مُؤَقَّتَةٌ زَائِلَةٌ، أقْصِدُ
مَمَالِكَ هذه الدُّنيا، وسَوْفَ أكُفُّ عَنْ 210

إِسْدَاءِ مَشُورَتِي إِلَيْكَ، وَاظْفَرْ بِهَا إِنْ اسْتَطَعْتَ أَوْ لا تَظْفَرْ.
كما إِنَّكَ، فيما يَبْدُو، تميلُ إلى غَيْرِ الحُصولِ
على تاجٍ دُنْيَوِيٍّ، بلْ أشدُّ اسْتِغْرَاقًا
في التَّأَمُّلِ والمُجادَلاتِ العَمِيقَةِ،
وهو ما نَسْتَشِفُّهُ مِنْ سُلُوكِكَ في صِبَاكَ البَاكِرِ 215
حين اخْتَفَيْتَ عَنْ عَيْنِ وَالِدَتِكَ وَذَهَبْتَ
وَحْدَكَ إلى المَعْبَدِ، وَوَقَفْتَ آنَئِذٍ فيه
بَيْنَ أَوْقَرِ الأَحْبَارِ المُتَنَاظِرِينَ حَوْلَ
القَضَايَا والمَسَائِلِ المَطْرُوحَةِ من كُرْسِيِّ مُوسى
مُعَلِّمًا دون أَنْ يُعَلِّمَكَ أَحَدٌ. والطُّفُولَةُ تَكْشِفُ عَنْ الرَّجُلِ 220
مِثْلَمَا يكشِفُ الصَّبَاحُ عَنْ النَّهَارِ. حَقِّقْ شُهْرَتَكَ إِذَنْ
بالحِكْمَةِ، فكمَا أَنَّ مُلْكَكَ مَكْتُوبٌ لَهُ أَنْ يَتَّسِعَ وَيَمْتَدَّ،
وَسِّعْ نِطَاقَ ذِهْنِكَ ومُدَّهُ لِيَشْمَلَ العَالَمَ كُلَّهُ
بالمَعْرِفَةِ، وافْهَمْ كُلَّ شيءٍ فيه،
فقانونُ مُوسَى لا يَضُمُّ أَطْرَافَ المَعْرِفَةِ جَمِيعًا، 225
وما في التَّوْرَاةِ أو ما كَتَبَهُ الأَنْبِيَاءُ
يَعْرِفُهُ الأُمِّيُّونَ أَيْضًا ويَكْتُبُونَهُ ويُعَلِّمُونَهُ
كَأَرْوَعِ ما يكونُ مُهْتَدِينَ بنورِ الطَّبِيعَةِ.
وعليكَ أَنْ تَتَخَاطَبَ كثيرًا مع الأُمِّيِّينَ أيضًا،
واحْكُمْهُم بالإقْنَاعِ الذي تَنْتَوِيه 230
فإِنْ لم تُحِطْ بمعارفهم فكيفَ يَتَسَنَّى لكَ إِجْرَاءُ

المحادثة المُلائِمَةِ معهم وكيف يتسنَّى لَهُمْ ذلك؟
بل كيف تُقِيمُ الحُجَّةَ عليهم بالمَنْطِقِ وكيف تَدْحَضُ
ضُروبَ وَثَنِيَّتِهم وتَقالِيدَهُمْ ومُفارَقاتِهم؟
مِنَ المحالِ أنْ يُهْزَمَ الضَّلالُ إلاّ بأَسْلِحَتِهِ نَفْسِها. 235
فَلْتُلْقِ نظرةً أخرى، قَبْلَ أنْ نُغادِرَ هذا الجَبَلَ الذي ننظرُ منه،
إلى جهةِ الغَرْبِ، أو إلى مكانٍ أَقْرَبَ في الجنوبِ الغَرْبِيِّ،
وانظرْ المدينةَ القائِمَةَ على سَاحِلِ بَحْرِ إيجِه،
شريفةَ البِنَاءِ، نَقِيَّةَ الهواءِ، خَفِيفةَ التُّربة،
إنَّها أثينا، عينُ اليونانِ المُبْصِرَة، أُمُّ الفُنُونِ 240
والفَصَاحَةِ، وَطَنُ العَبَاقِرَةِ ذائعي الصِّيتِ
أو مُضِيفَتُهم، وفي جَوْبَاتِها الخَلاَّبَةِ
داخلَ المدينةِ أو في ضَوَاحِيها، مَمَرَّاتٌ وظِلالٌ للدَّارِسِينَ،
وانظرْ خميلةَ الزَّيْتُونِ في مُتَـنَـزَّه الأكاديمية،
مأوى أَفْلاَطُونَ، حيثُ يُغَرِّدُ البلبلُ، طائرُ أثينا، 245
بِذَبْذَباتِ ألحانِهِ الثَّرِيَّةِ طيلةَ فصلِ الصَّيْفِ،
وانظرْ هناك تلالَ هايْمِيتِسْ المكْسُوَّةَ بالزَّهْرِ وأَصْواتِ
النَّحْلِ الطَّنَّانِ الدَّائِبِ العملِ والتي كثيرًا ما تَدْعُو
إلى التَّأَمُّلِ والدَّرْسِ، وهناك يَتَدَفَّقُ ماءُ إلِيسُوسْ
جَدْوَلاً عَذْبَ الهَمَسَاتِ؛ وانظرْ داخلَ الجُدْرانِ بعدَ ذلك 250
مَدارِسَ الحُكماءِ القُدَمَاءِ، ومَدْرَسَةَ الفَيْلَسُوفِ الذي عَلَّمَ
الإسكندرَ الأكبرَ وربَّاهُ لِيُخْضِعَ العالَمَ لِسُلْطَانِه.

وها هو ذا مُتَنَزَّهُ ليسيوم، والرِّوَاقُ الكبير ذو الرسومِ المُلَوَّنة،
وهنالك سوف تَسْمَعُ وتَتعلَّمُ القُوَّةَ الخَفِيَّةَ
للتوافُقِ في الأَنْغام والإيقاعَاتِ التي يُصْدِرُها 255
الصَّوْتُ البَشَرِيُّ أَو يَدُ الإنسانِ، وشَتَّى بُحُورِ النَّظْم في الشِّعْرِ،
من الأناشيد الإيُولِيَّةِ، والقَصَائِدِ الغِنَائِيةِ الدُّورِيَّةِ،
وأَشْعَارِ مَنْ ألقاها على المَلأ، مُنْشِدًا بالرَّفيعِ مِنْ قَوَافِيهِ،
مِلِيسيجِنيسْ الأَعْمَى، والذي سُمِّيَ هُوميروسَ بسببِ عَمَاهُ،
والذي زَعَمَ أَبُولُّو، رَبُّ الشَّمْسِ، أنه مُؤَلِّفُها الحَقيقي. 260
ومِنْ ثَمَّ إلى مَا عَلَّمَهُ إيانا أَسْمَى شُعَرَاءِ المأساةِ الجَادِّينَ
بالبُحورِ المختلفةِ في شِعْرِ الجُوقَةِ وبَحْرِ الأيامبوس في الحِوَارِ،
فَهُمْ أفضلُ مُعَلِّمِي الحكمةِ الأخلاقيةِ، المُقَدَّمَةِ بصُورةٍ مُمْتِعَةٍ،
في أقوالٍ مَأْثُورةٍ مُوجَزَةٍ، أثناءَ مُعَالَجَتِهِمْ لما يَقْضِي به
القَدَرُ، والمُصَادَفَةُ، والمُغَايَرَةُ في الحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ؛ 265
وهُمْ أفضلُ مَنْ وَصَفَ رفيعَ الأَفْعَالِ ورَفيعَ المَشَاعِرِ:
ومِنْ ثَمَّ انْتَقِلْ إلى مَشَاهِيرِ الخُطَبَاءِ،
أُولئك القُدَماءُ الذينَ كَانَتْ فَصَاحَتُهم التي لا تُقَاوَمُ
تُسَيِّرُ دِيمُقْرَاطِيَّتَهُمْ الصَّارِمَةَ في أيِّ طريقٍ تُرِيدُهُ،
والتي زَلْزَلَتْ التِّرْسَانَةَ البَحْرِيَّةَ وأَرْعَدَتْ وأَبْرَقَتْ فوقَ اليُونَانِ، 270
وحتى مَقْدُونيا، وحتى عَرْشِ أَرْتَخْشَشَا؛
وبعدَ ذلك أَعِزْ أُذُنَكَ إلى الفَلْسَفَةِ الحكيمةِ
التي هَبَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ إلى المَنْزِلِ ذي السَّقْفِ المُنْخَفِضِ

الذي يَمْلكهُ سُقْرَاطُ وانْظُرْ حيثُ يُقيمُ الرَّجُلُ

الذي أَعْلَنَتْ النُّبُوءَةُ ذاتُ الإلهام الصَّادقِ أنه 275

أحكمُ النَّاس، والذي كانت تَتَدَفَّقُ من فَمِهِ

جداولُ ذاتُ حَلاَوَةٍ وطَلاَوَةٍ لِتَرْوِيَ جميعَ مَدَارسِ

الأكاديميين القُدَمَاءِ والجُدُدِ، مَعَ الذين

أُطْلِقَ عليهمْ لَقَبُ المَشَّائِينَ، وطائفةِ

الأبيقوريِّين، وطائفةِ الرُّوَاقِيِّينَ المُتَشَدِّدَةِ. 280

فَكِّرْ إذَنْ في هَؤُلاَءِ مَلِيّا، إمَّا هُنا وإما المَنْزِلُ إنْ شِئْتَ،

حتى يُنْضِجَكَ الزَّمَنُ فتستطيعَ حَمْلَ أَعْبَاءِ المملكةِ،

ومِنْ شأنِ هذه القَوَاعِدِ أن تَجْعَلَكَ مَلِكًا كَامِلاً

في ذَاتِه، ويَزْدَادُ قَدْرُكَ حينَ تَأْتِيكَ المَمْلَكَةُ.

وأَجَابَهُ مُخَلِّصُنا بِنَبَرات الحِكْمَة قائلاً: 285

كُنْ على يَقِينٍ من إحَاطَتِي بهذه الأَشْيَاءِ، ولا تَتَصَوَّرْ

أَنّني أَجْهَلُها، وإذَنْ فَلَسْتُ أَفْتَقِرُ إلى

العِلْمِ بما يَنْبَغِي لي العِلْمُ بِهِ، فالذي يَتَلَقَّى

النُّورَ مِنَ السَّمَاءِ، مِنْ نَبعِ الضِّيَاءِ،

لا يَحْتَاجُ إلى مَذْهَبٍ آخَرَ، ولو سَلَّمْنَا بِصِحَّتِهِ؛ 290

ولكنَّ هذه كاذبةٌ، أَوْ لا تكادُ تزيدُ عَنْ أَحْلام

أو افتراضاتٍ أو أوهام لَمْ تُبْنَ على أُسُسٍ صُلْبَةٍ.

فإنَّ أَوَّلَ هؤلاءِ وأَحْكَمَهُمْ كان يَعْترفُ بأَنَّهُ

لا يَعْرِفُ سوى شيءٍ واحدٍ، وهو أَنَّه لا يعرفُ شيئًا،

ومَنْ تلاهُ اسْتَسْلَمَ لِلْخُرَافَاتِ والاسْتِعَارَاتِ الجَذَّابَةِ، 295
وتَلَتْهُمَا فئةٌ ثالثةٌ تتشكَّكُ في كُلِّ شيءٍ، مهما اتَّضَحَ مَعْنَاهُ،
وقال غَيْرُهُمْ إنَّ السَّعَادَةَ في الفَضِيلَةِ،
ولكنهم ضَمُّوا إليْها الثَّرَوات وطُولَ العُمْرِ،
كما قال أَحَدُهُمْ بأَنَّها في اللَّذَّةِ الحِسِّيَّةِ، والتَّنَعُّمِ بلا هُمُومٍ،
وأَخِيرًا جاءَ الرُّوَاقِيُّ بالكِبْرِيَاءِ الفَلْسَفِيَّةِ 300
التي أَسْمَاهَا الفَضِيلَةَ، قائلاً إنَّ الفاضِلَ
ذُو حكمةٍ وذو كمالٍ في ذاتِه، ويَمْتَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ،
ومُعَادِلٌ لله، وكثيرًا ما لا يَسْتَحِي تَفْضِيلَ ذاتِه،
غَيْرَ خَائِفٍ مِنَ الله أو مِنَ النَّاسِ مُحْتَقِرًا كُلَّ شَيْءٍ،
كالثَّرْوَةِ أو اللَّذَّةِ أو الأَلَمِ أو العَذَابِ، أو المَوْتِ والحَيَاةِ، 305
فإنْ شاءَ أنْ يَتْرُكَ الحياةَ تَرَكَهَا، أوْ هُوَ يَتَفَاخَرُ بِقُدْرَتِهِ على ذلك،
فما حَدِيثُهُ المُمِلُّ كُلُّهُ سِوَى تَفَاخُرٍ أَجْوَفَ،
أو مُرَاوَغَاتٍ بارِعَةٍ لِتَفَادِي إدَانَتِه.
وا أَسَفَاهُ! ماذا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يُعَلِّمُوهُ دونَ الإيقاعِ في الضَّلَالِ؟
فَهُمْ يَجْهَلُونَ أَنْفُسَهُمْ، وجَهْلُهُمْ بالله أكبرُ، 310
وبِمَنْشَأِ هذا العَالَمِ، وكيفَ سَقَطَ الإنْسَانُ
وجَلَبَ لنفسه الانْحِطَاطَ وأَصْبَحَ يعتمدُ على رَحْمَةِ الله!
ما أَكْثَرَ ما يتحدَّثُونَ عَنْ النَّفْسِ، ولكنه حديثٌ مُنْحَرِفٌ كُلُّه،
ويَنْشُدُونَ الفَضِيلَةَ في أَنْفُسِهِمْ، ويَنْسِبُونَ لأَنْفُسِهِمْ
المَجْدَ كُلَّهُ اغْتِصَابًا، ولا يَنْسِبُونَ للهِ مِنه شَيْئًا، 315

بلْ يُسِيئُونَ إليْهِ بأنْ يَدْعُوهُ بالأَسْمَاءِ المُعْتَادَةِ،
كَرَبِّ الحظِّ وربِّ القَدَرِ، كَأَنَّما كانَ لا يَأْبَهُ إِطْلاَقًا
لِشُئونِ البَشَرِ الفَانِينَ. وإِذَنْ فإنَّ مَنْ يَطْلُبُ في هذه الفَلْسَفَاتِ
الحِكمةَ الحَقَّةَ فَلَنْ يَجِدَها، أو قَدْ يَتَوَهَّمُ وَهْمًا
أَسْوَأَ إلى حَدٍّ بعيدٍ، إِذْ لا يُصَادِفُ إلاَّ ما يُشْبِهُهَا شَبَهًا زَائِفًا، 320
كالسَّحَابَةِ الخَاوِيَةِ. ولكنَّ الانْكِبَابَ على الكُتُبِ الكَثِيرَةِ
يَقُولُ الحُكَمَاءُ إِنَّهُ مُضْنٍ مُرْهِقٌ، فالذي يَقْرَأُ
دُونَ انْقِطَاعٍ، دُونَ أنْ يُضِيفَ إلى قِرَاءَتِهِ
رُوحًا وحُكْمًا يُعَادِلاَنِها أو يَتَفَوَّقَانِ عليها،
(وما يُضِيفُهُ لا حاجَةَ له بأنْ يَطْلُبَهُ خارجَ هذين) 325
سَيَظَلُّ دائمًا مُقَلْقَلاً مُبَلْبَلاً غَيْرَ وَاثِقٍ،
عَمِيقَ العِلْمِ بما في الكُتُبِ ضَحْلاً في نَفْسِهِ،
قد يَعْمَلُ بِسَذَاجَةٍ أو مُنْتَشِيًا على جَمْعِ التَّفَاهَاتِ
والسَّفَاسِفِ ظانًّا أنها الصَّفْوَةُ المنتخبةُ وهي جُفَاءُ غُثَاء،
مِثْلَمَا يَجْمَعُ الأَطْفَالُ الحَصَى على شَاطِئِ البَحْرِ. 330
أَمَّا إذا أَرَدْتُ الاستِمْتَاعَ وَحْدِي وَقْتًا ما
بالمُوسِيقَى أو بالشِّعْرِ فأَنَّى عَسَايَ أَجِدُ هذه السَّلْوَى
حَاضِرَةً مثلما أَجِدُها في لُغَةِ أَهْلِنَا نَفْسِها؟
فَهذِهِ قَوَانِينُنَا وقِصَصُنَا الزَّاخِرَةُ جميعًا
بالتَّرانيمِ، وأَغَانِينَا المنْقُوشَةُ بالتَّعَابِيرِ الفَنِّيَّةِ 335
وأَنَاشِيدُنَا العَبْرَانِيَّةُ وقِيثَارَاتُنَا في بَابِلَ،

تلك التي أَمْتَعَتْ أُذُنَ قاهِرِنا أَيَّما إمْتَاع،
تُبيِّنُ أنَّ اليونانَ هي التي اسْتَمَدَّتْ مِنّا هذه الفُنُون،
وأَسَاءَتْ مُحاكَاتَها، وشُعَرَاؤُهُمْ يَتَغَنَّوْنَ بأَعْلَى صَوْتٍ
بِرَذَائِلِ أَرْبَابِهِمْ، وَرَذَائِلِ اليُونَانِ أَنْفُسِهِمْ، 340
في الأَسَاطِيرِ أو التَّرَانِيم أو الأَنَاشِيد، مُجَسِّدِينَ
أَرْبَابَهُم المُضْحِكَةَ وجَالِبينَ على أَنْفُسِهِمْ أَقْصَى العَار.
وإذا أَزَلْتَ ما يَسْتَخْدِمُونَهُ من صِفَاتٍ بُولِغَ في صَوْغِهَا وحَشْدِها
مِثْلَ المَسَاحِيقِ والأَصْبَاغِ الكَثِيفَةِ على خَدِّ العَاهِرَةِ، لَمْ تَجِدْ تَحْتَها
إلاَّ الهَزِيلَ الذي لا فَائِدَةَ فِيهِ ولا مُتْعَةَ، 345
ولاكْتَشَفْتَ أَنَّهُ أَبْعَدُ ما يكونُ عَنِ المُوازَنَةِ
مع الشِّعْرِ العَبْرَانِيِّ، الذي تَجِدُهُ كُلُّ ذائقةٍ حَقَّةٍ فَائِقًا،
حيثُ يُمْتَدَحُ الله كما يَنْبَغِي، والرَّبَّانِيُّونَ مِنَ النَّاسِ،
وقُدْسُ الأَقْدَاسِ، وأولياءُ الله مِنَ القِدِّيسين،
فتلك الأَشْعَارُ المُسْتَلْهَمَةُ مِنَ الله تَتَفَوَّقُ على المُسْتَلْهَمَةِ منك، 350
إلا حينَ تُعَبِّرُ عَنِ الفَضِيلَةِ الأخلاقيةِ التي يُظْهِرها
نُورُ الطبيعةِ فَيَحْفَظُ لِلْبَعْضِ قِيمَتَها.
وأَنْتَ تُثْنِي بعدَ ذلك على خُطَبَائِهِمْ ثَنَاءً جَمًّا، ناسبًا إلَيْهِم
ذِرْوَةَ الفَصَاحَةِ، وهُمْ حَقًّا رجالُ سِيَاسَةٍ،
ويُحِبُّونَ أَوْطَانَهُمْ، مثلما قَدْ يَبْدو للعَيْن، 355
ولكنهم في هذا أَدْنى كثيرًا مِنْ أَنْبِيَائنا
الذين تَلَقَّوْا العِلْمَ مِنَ اللهِ ويَتَفَوَّقُونَ في تَعْلِيمِ

القَواعِدِ الصُّلْبَةِ لِلْحُكُومَةِ المَدَنِيَّةِ
بأُسْلُوبهم الذي يَتَّسِم بالجَلَالِ والبُعْدِ عَنِ التكَلُّف
على جَميعِ خُطَبَاءِ اليونانِ ورُوما وما جَاءَتْ بِهِ خُطَبُهُمْ. 360
لقد كانوا أَوْضَحَ مَنْ عَلَّمَ أَيْسَرَ ما يُتَعَلَّمُ
عَمَّا يُحَقِّقُ السعادَةَ للأُمَّةِ ويُحَافِظُ على سَعَادَتِها،
وما يُخَرِّبُ الممَالِكَ ويُسَوِّي المُدَنَ بالأَرْضِ،
ولا أَفْضَلَ مِنْ هؤلاءِ وشَرِيعَتِنا لِتَشْكِيلِ المَلِكِ.
كانَ ذلكَ ما قاله المسيحُ، ولكنَّ إبليسَ الذي 365
غَلَبَتْهُ الحَيْرَةُ، بَعْدَ أنْ خَلَتْ جَعْبَتُه مِنَ السِّهَامِ جَمِيعًا،
وَاجَهَ مُخَلِّصَنَا بِجَبِينٍ مُقَطَّبٍ وأَجَابَهُ قائلاً:
ما دُمْتَ لا تَرْضَى بالثَّرْوَةِ ولا بالشَّرَفِ ولا بالأَسْلِحَةِ
ولا العُلُومِ، ولا بالمَمَالِكِ أو الإمْبرَاطُورِيَّاتِ، ولا بأيِّ شَيْءٍ
أَعْرِضُهُ عليك لِتَحْيَا حياةَ التَّأَمُّلِ أو حَيَاةَ 370
العَمَلِ، في كَنَفِ المَجْدِ، أو ذُيُوعِ الصِّيتِ،
فما الذي تَبْغِيهِ في هذا العَالَمِ؟ البَرِّيَّةُ القَاحِلَةُ
أَنْسَبُ مُقَامٍ لَكَ، فَلَقَدْ وَجَدْتُكَ فيها،
ولسوفَ أُعِيدُكَ إليْها، ولكن تَذَكَّرْ
ما أَتَنَبَّأُ بِهِ لَكَ؛ إذْ سَرْعَانَ ما تَجِدُ ما يَجْعَلُكَ 375
تَتَمَنَّى أنَّك لَمْ تَرْفُضْ قَطُّ على هذا النَّحْوِ،
مُتَوَخِّيًا الحِرْصَ أو الحِيطَةَ، ما عَرَضْتُهُ عَلَيْكَ مِنْ عَوْنٍ،
وكان كَفِيلاً بأنْ يُجْلِسَكَ في أَقْصَرِ وَقْتٍ وبِسُهُولَةٍ

عَلى عَرْشِ داوُدَ، أَوْ عَلى عَرْشِ العَالَمِ كُلِّه،
بَعْدَ أَنْ بَلَغْتَ أَشُدَّكَ واسْتَوَيْتَ وحانَ الوَقْتُ وآنَ الأَوانُ 380
لِتَحْقيقِ النُّبوءاتِ الخَاصَّةِ بِكَ على أَفْضَلِ وَجْهٍ.
والآنَ على نَقيضِ ذَلِكَ، إِنْ كُنْتُ أَقْرَأُ شيئًا في السَّماءِ،
أو كانَتِ السَّماءُ قد كَتَبَتْ بعضَ ما قَدَّرَهُ القَدَرُ، أَجِدُ أَنَّ النُّجومَ
في كِتابِهَا الكَبيرِ أَوْ بِحُرُوفِها المُفْرَدَةِ
عندما تَلْتَقي في حَالَةِ اقْتِرانٍ، تُتيحُ لي أَنْ أُفْصِحَ 385
عنِ الأَحْزانِ، والمَشَاقِّ، والمُعَارَضَةِ والبَغْضَاءِ
التي سَتَحُلُّ بِكَ، وسَتَلْقَى ضُروبَ الازْدِراءِ والتَّأْنيبِ والإِيذاءِ
والعُنْفِ والجَلْدِ بالسِّيَاطِ، والقَتْلِ بِقَسْوَةٍ آخِرَ الأَمْرِ.
وهي تُبَشِّرُكَ بِمَمْلَكَةٍ، لكنَّني لا أَستطيعُ أَنْ أَرَى
إِنْ كانَتْ مَمْلَكَةً حقيقيةً أو مملكةً رَمْزِيَّةً، 390
ولا أرى مَوْعِدَها، فهي خَالِدَةٌ قَطْعًا، ما دامتْ بلا نِهَايَةٍ
ولا بِدَايَةٍ؛ إِذْ لا أَلْمَحُ تاريخًا لِمَقْدِمِها
أَهْتَدِي به في النُّجومِ البَارِزَةِ في صَفْحَةِ السَّماءِ.
وما إِنْ قَالَ ذلكَ (وكانَ لا يزالُ يَعْرِفُ أَنَّ سُلْطَانَهُ
لَمْ تَحِنْ نِهَايَتُه بَعْد) حتى أَخَذَ ابْنَ اللهِ وعادَ بهِ 395
إلى البَرِّيَّةِ القَاحِلَةِ، وتَرَكَهُ هناك،
مُتَظاهِرًا بالاخْتِفَاءِ. وارْتَفَعَ مَدُّ الظَّلامِ آنَئِذٍ
وضَوْءُ النَّهارِ يَنْحَسِرُ، وأَتَى اللَّيْلُ الشَّاقُّ إلى الدُّنْيا
بِوَلَدَيْهِ الغَائِمَيْنِ، وكِلاهُمَا بِلا كَيانٍ،

أَوَّلُهما انْعدَامُ الضَّوْءِ وثانيهما غيابُ النَّهار. 400

وأما مُخَلِّصُنا الوَديعُ فكانَ هادِئَ البَالِ

بَعْدَ رِحْلَتِهِ الهَوَائِيَّةِ المُرْهِقَةِ، وإنْ كانتْ قد اتَّسَمَتْ

بالسُّرْعَةِ الشَّديدَةِ، ودَفَعَهُ الجوعُ والبَرْدُ إلى طَلَبِ الرَّاحَةِ،

حَيْثُما وَجَدَ مأوىً تحتَ مُلْتَقَى لِبَعْضِ الظِّلَالِ التي

تَشابَكَتْ أَذْرُعُهَا بِفُرُوعِها الكَثِيفَةِ المُلْتَفَّةِ حتى تَقِيَ 405

رَأْسَهُ مِنْ أَنْدَاءِ اللَّيْلِ وبَلَلِ القَطْرِ،

ولكِنَّهُ ظَلَّ يُحاوِلُ النَّوْمَ عَبَثًا في مَأْوَاهُ، إذْ كانَ المُغْوِي

ساهِرًا عِنْدَ رَأْسِهِ، وسَرْعَانَ ما جَاءَ بأَحْلَامٍ بَشِعَةٍ

لإقْلاَقِ مَنَامِهِ، وإذَا بأَقْطَارِ السَّمَاءِ قد

بَدَأَتْ تُرْعِدُ، وإذا المَشْرِقَانِ يَنْفَلِقَانِ، والسُّحُبُ 410

تَتَصَدَّعُ، ومِنْ صُدُوعِها الرَّهِيبَةِ الفَتَّاكَةِ تَنْهَمِرُ

الأَمْطَارُ بِضَراوةٍ مُخْتَلِطَةً بِوَمْضِ البَرْقِ، وإذَا بالمَاءِ والنَّارِ

يَتَحالَفَانِ في سُقُوطِهِمَا المُدَمِّرِ؛ وإذَا بالرِّيَاحِ تَهْجُرُ مَضْجَعَهَا

في الكُهُوفِ الحَجَرِيَّةِ وتَنْدَفِعُ مُنْطَلِقَةً في عَجَلَةٍ

مِنْ مَحَاوِرِ الكَوْنِ الأَرْبَعَةِ، وتَنْقَضُّ انْقِضَاضًا 415

على البَرِّيَّةِ التي انْهَالَتْ عليها اللَّطَمَاتُ، حيثُ كانتْ أطولُ

أشجارِ الصَّنَوْبَرِ، بِجُذُورِها العَمِيقَةِ وفُرُوعِها السَّامِقَةِ، وأَعْتَى

أَشْجَارِ البَلُّوطِ، تَحْنِي رِقَابَها الصُّلْبَةَ تحتَ وَطْأَةِ

العَوَاصِفِ الهَابَّةِ، أو تَتَمَزَّقُ تَمْزِيقًا! ما أَوْهَنَ المَأْوَى

الذي احْتَمَيْتَ بِهِ يا ابْنَ اللهِ الصَّابِرِ، لكنَّكَ وَقَفْتَ وَحْدَكَ 420

صَامِدًا، وإنْ لَمْ يَقْتَصِرْ ما احتملْتَهُ من الهَوْلِ على ذلك،
إذ كَانَتْ أَشْبَاحُ الجَحِيم، ورنَّاتُ النِّقْمَةِ الجَهَنَّمية، تُحِيطُ جَمِيعًا
بكَ! كانَ البَعْضُ يَعْوِي، والبعضُ يَصْرُخُ والبعضُ يَصِيحُ،
والبَعْضُ يُصَوِّبُ إلَيْكَ سِهَامَهُ النَّارِيَّةَ، لكنَّكَ ظَلَلْتَ
تَجْلِسُ مُطْمَئِنًا، سَاكِنًا في هُدوءِ البَرِيءِ الطَّاهِرِ. 425
وهكذا مَضَى اللَّيْلُ الكَالِحُ القَبِيحُ وأَقْبَلَ الصُّبْحُ الجَمِيلُ
يَخْطُو خُطُوَاتِ الرَّاحِلِ المُجِدِّ، بِعَبَاءَتِه الرَّمَادِيَّةِ،
ورَفَعَ أُصْبَعَهُ الوَضَّاءَ فأَسْكَتَ هَزِيمَ الرَّعْدِ،
وطَارَدَ السُّحُبَ فَأَجْلاهَا، وأَرْقَدَ الرِّيَاحَ
والأَطْيَافَ الرَّهِيبَةَ التي كانَ الشَّيْطَانُ قد أَيْقَظَها 430
لاخْتِبَارِ صَلاَبَةِ ابْنِ اللهِ بأهوالٍ فَظِيعَةٍ.
ثُمَّ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بأَشِعَّتِها الأَقْوَى
فَبَثَّتِ البَهْجَةَ في وَجْهِ الأَرْضِ وجَفَّفَتْ ما ابْتَلَّ فتَهَدَّلَ
من النَّبَاتِ، أو ما كان يَتَسَاقَطُ مِنْ قَطْرٍ مِنَ الأَشْجَارِ،
وشَاهَدَتِ الطيورُ كُلَّ ما حَوْلَهَا أَشَدَّ نُضْرَةً وخُضْرَةً، 435
مِنْ بَعْدِ لَيْلَةٍ مِنَ العَوَاصِفِ الهَدَّامَةِ الفَتَّاكَةِ،
فَأَنْشَدَتْ صَفْوَةَ أغَارِيدِهَا الصَّافِيَةِ بين الخَمَائِلِ والأَزْهَارِ
كَيْمَا تُحَيِّي عَوْدَةَ الصُّبْحِ الجَمِيلِ شَاكِرَةً.
ومعَ ذلكَ فإنَّ هذه الفَرْحَةَ وهذا الصَّبَاحَ الوَضَّاحَ
لم يَغِبْ عنه، رَغْمَ كُلِّ الإساءَاتِ التي ارْتَكَبَها، 440
أميرُ الظَّلاَمِ، بلْ كانَ يَبْدُو مَسْرُورًا كذلكَ

بالتَّحوّلِ الجَميلِ الذي وَقَعَ، وأتى إلى مُخلّصِنا
لا بِحيلَةٍ جديدةٍ، بَعْدَ أنْ نَفِدَتْ كُلُّ حِيَلِه،
ولكنْ بالعَزْمِ على القِيَامِ بآخِرِ إساءَةٍ له،
وهي التَّنفيسُ عن حَنَقِهِ، مُسْتَيْئِسًا مِنْ أيِّ مَسْلَكٍ أفْضَلَ، 445
وقد مَضَّهُ وشَقَّ عليه صَدُّهُ ورَدُّهُ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً.
وَوَجَدَهُ يَسيرُ فوقَ تَلٍّ مُشْمِس،
ومِنْ خَلْفِهِ شَمَالاً وغَرْبًا غابةٌ لَفَّاءُ،
فَخَرَجَ عليهِ مِنَ الغَابَةِ وجاءَهُ في صُورَتِهِ المُعْتَادَةِ،
وبنَبرَاتٍ غَيْرِ المُكْتَرِثِ قالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: 450
فَلْتَنْعَمْ بهذا الصَّباحِ الجَميلِ يا ابْنَ الله،
مِنْ بَعْدِ الهَمِّ والغَمِّ؛ إني سَمِعْتُ أصْوَاتَ الخَرَابِ
كأنّما كانتِ الأرْضُ سَتَخْتَلِطُ بالسَّمَاءِ، ولكنَّني
كنتُ بَعيدًا، وهذه الشَّآبيبُ المُنْهَمِرَةُ، وإنْ كانَ البَشَرُ يَخافُونَها
ويَرَوْنَ فيها خَطَرًا على العُمُدِ التي رُفِعَتْ السَّمَاءُ عَلَيْها، 455
لا وَزْنَ لَها في مِيزَانِ الكَوْنِ
ولا ضَرَرَ مِنْها، إنْ لَمْ تكُنْ مُفيدَةً، مِثْلَ العَطْسَةِ
لِلكَوْنِ الأصْغَرِ في جَسَدِ الإنْسانِ، وسَرْعَانَ ما تَمْضي؛
لكنّها لَمّا كانتْ مُفْسِدَةً في حالاتٍ كثيرةٍ حينَ تَهْبِطُ 460
على الإنْسَانِ والحَيَوَانِ والنَّبَاتِ، عارِمةً مُدَمِّرَةً،
مِثْلَ شَتَّى الاضْطرابَاتِ العَارِمَةِ في شُئونِ البَشَرِ،
إذْ تَهْدِرُ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ، وتبدو مِثْلَ النُّذُرِ،

إذْ كثيرًا ما تُنبئُ وتُهدِّدُ بوُقوعِ ما يَسُوءُ،
فإنَّ هذه العاصِفَةَ كانتْ تَقصِدُ أكثرَ ما تَقصِدُ هذه الصَّحْرَاءَ، 465
وتَقصِدُكَ أنتَ مِنْ دُونِ البَشَرِ؛ إذْ لا يُقيمُ فيها غيرُكَ.
ألَمْ أقُلْ لَكَ إنْ أنْتَ رَفَضْتَ
الفُرْصَةَ المُحْكَمَةَ التي أُتِيحَتْ لَكَ بمَعُونَتي
للفَوْزِ بالعَرْشِ المُقدَّرِ لَكَ، وأصْرَرْتَ على إطالَةِ
أمَدِ الأمْرِ كُلِّهِ، تاركًا إيَّاهُ في يَدِ القَدَرِ، وسَلَكْتَ طَريقَكَ 470
للفَوْزِ بعَرْشِ داودَ في مَوْعِدٍ لا يَعْرِفُهُ إنْسَانٌ،
إذْ لَمْ يُكْشَفْ قَطُّ عَنِ المَوْعِدِ أوْ عَنِ المَكَانِ،
فَلَسَوْفَ تكونُ بلا شَكٍّ ما قُدِّرَ لكَ أنْ تكونَهُ،
ما دامَتْ الملائكةُ قدْ أعْلَنَتْهُ، ولو أنها تُخْفِي
المَوْعِدَ والوَسِيلَةَ، ولكنَّ أصَحَّ مَوْعِدٍ للْقِيَامِ بعَمَلٍ ما 475
هُوَ أفْضَلُ مَوْعِدٍ يُنَاسِبُهُ، لا المَوْعِدُ المَحْتُومُ لَهُ.
فإذَا لَمْ تُرَاعِ هذا، فَثِقْ في أنَّك سوفَ تُوَاجِهُ
ما ذَكَرْتُهُ سَلَفًا لكَ؛ أيْ الكثيرَ مِنَ المسالِكِ الوَعْرَةِ الغَاصَّةِ
بالأخْطَارِ، والشَّدَائِدِ، والآلامِ
قبلَ أنْ تُحْكِمَ قَبْضَتَكَ على صَوْلَجَانِ بَنِي إسْرَائيلَ؛ 480
وهو ما تَرْمِي هذه اللَّيْلَةُ الحافلةُ بالنُّذُرِ، بَعْدَ أنْ أحَاطَتْكَ
بالكثيرِ مِنَ الأهْوَالِ والأصْوَاتِ والخَوَارِقِ،
إلى تَحْذِيرِكَ منه، باعتبارِها آيَةَ نُبُوءَةٍ مُؤَكَّدَةٍ.
كانَ ذلكَ ما قَالَهُ إبليسُ وابْنُ اللهِ ماضٍ في طَرِيقِهِ 485

دونَ أنْ يَتوقَّفَ، ولكنه أجابَهُ إجابَةً مُوجزَةً قائلاً:

لا يَزيدُ شَرُّ ما أَصابَني على البَلَلِ، وأمَّا سَائِرُ الأَهْوَالِ
التي تَتحدَّثُ عَنْها فَلَمْ تُصبْنِي بأَيَّةِ أَضْرَارٍ سِوَاهُ،
ولَمْ أَخْشَ قطُّ أنْ تَمَسَّنِي بِضُرٍّ على جَلَبَتِها المُرْتَفِعَةِ
واقْتِرَابِ تَهْدِيدِها مِنِّي، وأمَّا طاقَتُها باعْتِبارِها آياتٍ
تَحْمِلُ دَلالاتٍ أوْ نُذُرًا بالسُّوءِ، فإنَّني أَزْدَرِيها 490
بِصِفَتِها نُذُرًا كاذبَةً لَمْ يُرْسِلْهَا اللهُ بَلْ هِيَ مِنْ عِندِكَ،
فَلمَّا كنتَ تَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَتَوَلَّى الحُكْمَ وأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَنْعِي،
أَقْحَمْتَ المَعُونَةَ التي عَرَضْتَها، آمِلاً مِنِّي القَبُولَ،
وأنْ يُصْبِحَ في يَدِي، ولَوْ فيما يَبْدو على الأقلِّ، سُلْطَانُكَ
أَيُّها الرُّوحُ الطَّمُوحُ، وأنْ يُظَنَّ أَنَّكَ إلهي 495
فَلمَّا رَفَضْتُ العَرْضَ أَنَا، إذَا بِكَ تُرْعِدُ وتُبْرِقُ، ظَانًّا
أَنَّكَ سَوْفَ تُرْهِبُنِي فأخضعُ لما تُريد! كُفَّ عَنْ ذلكَ فَلَقَدْ انْكَشَفْتَ،
وكُلُّ جُهْدٍ تَبْذُلُه ضائعٌ وعَبَثًا تُزْعِجُنِي أوْ تُضَايِقُنِي.

ورَدَّ عَلَيْهِ الشيطانُ وقد تَضَخَّمَ وانْتَفَشَ غَضَبًا قائلاً:

اسْمَعْ إذَنْ يا ابْنَ دَاوُدَ، يا مَنْ وَلَدَتْكَ عَذْرَاءُ؛ 500
إذْ إنَّنِي ما زِلْتُ أَشكُّ في كَوْنِكَ ابنًا لله،
لقد سَمِعْتُ عَنْ نُبُوءَةِ مَقْدِمِ المَسيحِ
مِنْ جميعِ الأَنْبِيَاءِ، وكنتُ بينَ أَوَائِلِ مَنْ عَلِمُوا بِمَوْلِدِكَ
آخِرَ الأَمْرِ حينَ أَعْلَنَهُ جِبْرِيلُ، وعَلِمتُ كذلكَ
بالأُنْشُودَةِ المَلائِكِيَّةِ في حَقْلِ بَيْتِ لَحْمٍ. 505

تلكَ التي أُنشِدَتْ لَيْلَةَ مَوْلِدِكَ قائلَةً إنَّكَ المُخلِّصُ الذي وُلِدَ،
ونادرًا ما كُنْتُ أَتوَقَّفُ مُنْذُ ذلكَ الوَقْتِ عن مُشاهَدَتِكَ
وأنتَ رَضِيعٌ، و بَعْدَها في طُفُولَتِكَ، وشَبابِكَ،
وأخيرًا في رُجُولَتِكَ وإنْ كُنتَ قد أُنْشِئْتَ تَنْشِئَةً مُنْفرِدَةً،
حتَّى أتَى اليَوْمُ الذي جاءَ الجَميعُ فيه إلى مَخاضَةِ الأُرْدُن 510
واحْتَشَدُوا لدى المعمدان، وجئْتُ مع سائرِهِمْ
وإنْ لمْ يكنْ ذلكَ مِنْ أَجْلِ التَعْمِيدِ، وسَمِعْتُ صوتًا مِنَ السَّماءِ
يُعْلِنُ أنَّكَ ابنُ الله الذي يُحِبُّه الله.
ومُنْذُ تلكَ اللَّحْظَةِ وأنا أَرَاكَ جَديرًا بأنْ أَشْهَدَكَ عَنْ كَثَبِ
وأَفْحَصَكَ فَحْصًا أَدَقَّ، عَسَى أنْ أَعْرِفَ 515
إلى أيِّ دَرَجَةٍ، أو إلى حَدٍّ من حُدُودِ المَعْنى تُدْعَى
ابنَ الله، فالتَّعْبيرُ لا يَحْمَلُ مَعْنًى واحدًا فَقَطْ،
فأنا أيضًا ابنٌ لله، أو كنتُ ابنًا لله،
وما دُمْتُ قد كُنْتُهُ فلا أزالُ كذلك، فالعَلاَقَةُ قائمةَ،
وجَميعُ البَشَرِ أَبْنَاءٌ لله، ولكنَّني قلتُ في نَفْسِي 520
لقد أُعْلِنَ أنك أَسْمَى كثيرًا مِنْ نَاحِيَةٍ مُعَيَّنَةٍ.
ومِنْ ثَمَّ، فمنذُ تلك السَّاعَةِ وأنا أُرَاقِبُ خُطُوَاتِكَ،
ولَمْ أَتوَقَّفْ عن اقْتِفَاءِ أَثَرِكَ حتى جِئْتَ إلى هَذا القَفْرِ القَاحِلِ،
حيثُ أَسْتَنْبِطُ، استِنَادًا إلى أَفْضَلِ طاقاتِ حَدْسِي،
أنكَ العدوُّ الذي كُتِبَ لَهُ أنْ يُهْلِكَني. 525
ولَنْ يُجافِيَ المَنْطِقَ السَّليمَ إِذَنْ إنْ حَاوَلْتُ السَّبْقَ

إلى تَفَهُّم الخَصْم الذي أُوَاجِهُه، فأَدْرَكْتُ مَنْ يكونُ
وما شأْنُهُ، ومَدَى سُلْطانِهِ وحِكْمَتِهِ ومَقاصِدِهِ،
وكيفَ أستطيعُ بالمُفاوَضَاتِ أو عَقْدِ مُعاهَدَةٍ أو هُدْنَةٍ أو تَحالُفٍ
أنْ أَظْفَرَ بِهِ أو أَفُوزَ مِنْهُ بما أستطيعُ الفَوْزَ بِهِ. 530
ولقد أُتيحَتْ لي هُنا الفرصةُ السَّانِحَةُ
لاختبارِكَ وتَمْحيصِكَ، وأَعْتَرِفُ أنّني وَجَدْتُكَ
ذَا مَنْعَةٍ صَمَدَتْ أمامَ جَميعِ ضُرُوبِ الإغْرَاءِ
مثلَ الصَّخْرَةِ الصَّلْدَةِ، أو كالمِحْوَرِ الثَّابِتِ، رَاسِخًا
إلى أَقْصَى ما يكونُ عليه رُسُوخ الإنْسانِ الجَامع بين الحِكْمَةِ والخَيْرِ 535
لا أكثرَ؛ إذ ازْدَرَيْتَ أَلْوانَ الشَّرَفِ والثَّراءِ والمَمالِكِ
والمَجْدِ مِنْ قَبْلُ وقد تَزْدَرِيها مَرَّةً ثانيةً،
ومِنْ ثَمَّ فحَتّى أَعْرفَ ما تَتَفَوَّقُ فيه على سَائِرِ البَشَرِ
ويَجْعَلُكَ جَدِيرًا أنْ يَدْعُوَكَ صوتٌ من السماءِ ابنَ الله
لا بُدَّ لي الآنَ مِنَ الشُّروعِ في تَطْبيقِ أُسْلُوبٍ آخَرَ. 540
وما إنْ قالَ ذلكَ حتى أَمْسَكَهُ فَرَفَعَهُ ودونَ جَنَاحِ
الهِيبُوغْريفِ حَمَلَهُ طَائِرًا في طَبَقاتِ الجَوِّ العُلْيَا
فوقَ الفَيَافِي البَرِّيَّةِ وفَوْقَ السُّهولِ المُترامِيَةِ،
حتى لاَحَتْ مِنْ تَحْتِهِما أُورْشَليمُ الحَسْناءُ،
المدينةُ المُقَدَّسَةُ التي تَرْفَعُ عاليًا أَبْرَاجَها، 545
وكان يَعْلُو عَلَيْها المَعْبَدُ المَجيدُ ذُو الذُّرَا الشَّمَّاءِ
لِصَرْحِهِ العَتيقِ، وهُوَ الذي بَدَا على البُعْدِ كالجَبَلِ



المَرْمَرِيِّ الذي تَرْتَفعُ فَوْقَهُ قِمَمٌ مُسْتَدِقَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ .
وفَوْقَ أَعْلَى حافَّةِ سَطْحٍ في الهَيْكَلِ أَنْزَلَ
ابْنَ اللهِ ، وأَضافَ قائِلاً بِنَبْرَةِ احْتِقارٍ :   550
قِفْ هُنا إِنْ اسْتَطَعْتَ الوُقُوفَ ، فالوقوفُ مُنْتَصِبًا
يَتطَلَّبُ بَعْضَ المَهارَةِ ، فَلَقَدْ أَتَيْتُ بكَ إلى
بَيْتِ أبيكَ ، وهو أَرْفَعُ مكانٍ ، والأرفعُ هو الأَفْضَلُ ،
فَأَثْبِتْ الآنَ صِدْقَ نَسَبِكَ ، فإِنْ لَمْ تَسْتَطِعِ الوُقُوفَ
فَأَلْقِ بِنَفْسِكَ إلى أَسْفَلَ ، فإذا كُنْتَ ابْنَ اللهِ سَلِمْتَ ؛   555
إِذْ إِنَّه قد كُتِبَ إِنَّ اللهَ سَوْفَ يُصْدِرُ أَمْرَهُ
بشأنِكَ إلى مَلائِكَتِهِ ، وإِنَّهُمْ سوفَ يَحْمِلُونَكَ
بِأَيْدِيهِمْ ويَرْفَعُونَكَ حتى لا يَتَصادَفَ
في أَيِّ لَحْظَةٍ أَنْ تَصْطَدِمَ قَدَمُكَ بِحَجَرٍ .
وأجابَهُ يَسُوعُ قائِلاً : «وقد كُتِبَ أيضًا   560
لا تَخْتَبِرِ الرَّبَّ إلهَكَ» . قالها وانْتَصَبَ وَاقِفًا .
ولكنَّ إبليسَ سَقَطَ مِنْ لَذْعِ الدَّهْشَةِ سُقُوطًا
يشبهُ سُقُوطَ أَنْتِيُوسَ ابنِ رَبَّةِ الأَرْضِ (إِنْ شَبَّهْتُ
الأَصْغَرَ بالأَكْبَرِ) عندما تَصارَعَ في إِيرَاسَا
مع أَلْكِيدِيسَ بْنِ جُوفَ ، وكَثِيرًا ما كانَ يَنْهَضُ بَعْدَ دَحْرِهِ   565
مُسْتَمِدًّا من أُمِّهِ الأَرْضِ قُوَّةً جَدِيدَةً
وانْتِعاشًا مِنْ سُقُوطِهِ ، فيعودُ للصِّراعِ بِضَرَاوَةٍ أَكْبَرَ ،
حتى خُنِقَ آخِرَ الأَمْرِ وَسْطَ الهَواءِ فماتَ وسَقَطَ ؛
وهكذا فبَعْدَ أَنْ دُحِضَ المُغْوِي المَزْهُوُّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ

كانَ يَعُودُ في كُلِّ مَرَّةٍ ليستَأْنِفَ هُجُومَهُ، فَيَسْقُطُ في زَهْوِهِ 570
ثم يَنْهَضُ مِنْ سَقْطَتِهِ ويَهُبُّ واقِفًا كيْ يُسْقِطَ قَاهِرَهُ.
ومِثْلَ ذَلِكَ الوَحْشِ في طِيبَةَ الذي كانَ يَطْرَحُ على النَّاسِ
لُغْزًا مُحَيِّرًا، ويَزْدَرِدُ مَنْ لا يَتمكَّنُ مِنْ حَلِّ اللُّغْزِ،
وحين اكتشفَ أُودِيبُ سِرَّ اللُّغْزِ ونَجَحَ في حَلِّهِ، اغْتَمَّ الوَحْشُ
وحَنِقَ فَأَلْقَى بنَفْسِهِ مُنْقَلِبًا مِنْ قِمَّةِ المَبْنَى السَّامِقِ في إِيسْمِينْيا، 575
فهكذا شَأْنُ الشَّيْطَانِ حين صَعَقَهُ الرُّعْبُ والحُزْنُ فَسَقَط،
وعادَ مِنْ ثَمَّ إلى رِفَاقِهِ الذين كانُوا جَالِسين للتَّشَاوُرِ حاملاً
رُمُوزَ انْتِصَارٍ كَئِيبَةٍ لما كانَ يَرْجُوهُ مِنْ نَجَاحٍ،
وانْتَهَى بِهِ إلى الخَرَابِ والقُنُوطِ والكَرْبِ العَظِيمِ،
بَعْدَ أَنْ تَجَاسَرَ في زَهْوِهِ على اخْتِبَارِ قُوَّةِ ابْنِ الله. 580
وهكذا سَقَطَ إِبْلِيسُ وعلى الفَوْرِ هَبَّتْ عُصْبَةٌ نارِيَّةٌ
مِنَ المَلائِكَةِ فَطَارَتْ بالقُرْبِ مِنَ المكانِ نَاشِرَةً كُلَّ أَجنِحَتِها،
وحَمَلَتْ المسيحَ على رِيشِ الأَجْنِحَةِ اللَّيِّنِ، مُنْقِذَةً إِيَّاهُ
مِنْ مَكَانِهِ القَلِقِ، ثم طَارَتْ بِهِ عَالِيًا
كأنما كان يَرْقُدُ على حَشِيَّةٍ طَافِيَةٍ خلالَ الهَوَاءِ المُغْتَبِطِ بِهِ، 585
ثم أَنْزَلَتْهُ في وادٍ تَغْشَاهُ الزُّهورُ، وأَجْلَسَتْهُ
على رَبْوَةٍ خَضْرَاءَ، ووَضَعَتْ أَمَامَهُ وبَسَطَتْ
مَائِدَةً مِنَ الأَطْعِمَةِ السَّمَاوِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ التي
كانت مِنْ أَطْعِمَةِ الجَنَّةِ، فَوَاكِهَ مُقْتَطَفَةً مِنْ شَجَرَةِ الحَيَاةِ،
وشَرَابًا فِرْدَوْسِيًا مِنْ نَبْعِ الحَيَاةِ، 590

وهو الذي سرعانَ ما أَنْعَشَ جَسَدَهُ اللاَّغِبَ، وأَصْلَحَ ما
أَحْدَثَهُ الجُوعُ، إنْ كانَ الجوعُ أو العَطَشُ قد أَحْدَثَ
أَيَّ ضَرَرٍ، وأثْنَاءَ تنَاوُلِهِ الطَّعَامَ كانتْ فِرَقُ المُنْشِدِينَ مِنَ المَلائِكَةِ
تُنْشِدُ تَرَانِيمَ سَمَاوِيَّةً احْتِفَالاً بانْتِصَارِهِ
على الغِوَايَةِ، وعلى المُغْوِي المَزْهُوِّ، قائلةً: 595
يا مَنْ تُمَثِّلُ الصُّورَةَ الصَّادِقَةَ للأب، سواءً أكنتَ مُتَوَّجًا
في أَحْضَانِ النَّعيم، تَسْتَمِدُّ مِنَ النُّورِ نُورًا
وتَقْتَبِسُهُ، أم بعيدًا عن السَّماءِ، مُودَعًا
في هَيْكَلِ الجَسَدِ، وفي صُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ،
تجوبُ أرجاءَ البَرِّيَّةِ، في أيِّ مكانٍ، 600
أو رِدَاءٍ، أو مَنْزِلَةٍ، أو حَرَكَةٍ، تعبيرًا دائمًا عن
ابنِ اللهِ، وقد وُهِبْتَ قُوَّةً رَبَّانِيَّةً أَعَانَتْكَ
في التَّصَدِّي لِمَنْ تَجَاسَرَ فَثَارَ على عَرْشِ أَبِيكَ،
سارِقُ الفِرْدَوْسِ! لَقَدْ نَجَحْتَ منذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ
في قَهْرِهِ حَرْبًا، وطَرَدْتَهُ مِنَ السَّماءِ سَاقِطًا 605
مع جَميعِ أفرادِ جَيْشِهِ، والآنَ قد انْتَقَمْتَ
لآدمَ الذي اغْتُصِبَ مَوْقِعُهُ، وبِنَجَاحِكَ في قَهْرِ
الإغْوَاءِ اسْتَعَدْتَ الفِرْدَوْسَ المَفْقُودَ،
وأَحْبَطْتَ مُحَاوَلَةَ الانْتِصَارِ بالغِشِّ والخِدَاعِ.
لنْ يَجْرُؤَ بعدَ الآنَ، ومنذُ هذه اللَّحْظَةِ أنْ يَطَأَ بِقَدَمِهِ
مِهادَ الفِرْدَوْسِ لإغْوَاءِ مَنْ يُغْوِي، فلقد حُطِّمَتْ أَشْرَاكُهُ، 610

فإذا كانَ مَقْعَدُ النَّعيمِ الأَرْضِيِّ قد غَابَ،
فإنَّ فِرْدَوْسًا أَجْمَلَ يَقومُ الآنَ مَقامَهُ ويَنْفَتِحُ أمامَ
آدمَ وأَبْنائِهِ المُصْطَفِينَ، وهم الذينَ
نَزَلَتْ بَيْنَهُمْ باعْتِبَارِكَ المُخَلِّصَ الذي سَوْفَ يُعِيدُهُمْ إليْهِ، 615
حَيْثُ يُقِيمُونَ آمِنِينَ، عِنْدَمَا يَحِينُ الوَقْتُ،
دُونَ خَوْفٍ مِنَ المُغْوِي وغِوَايَتِهِ.
ولكنَّكَ أيُّها الثُّعْبانُ الجَهَنَّمِيُّ لنْ تَظَلَّ طَوِيلاً
حاكمًا في السُّحُبِ، بلْ إنَّكَ - مثلَ نَجْمِ الخريفِ
أو مِثْلَ البَرْقِ - سوفَ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ وتَطَؤُكَ 620
أَقْدَامُهُ، وهذا هُوَ البُرْهَانُ، فها أَنْتَ ذا، وقَبْلَ حُدُوثِ ذلكَ،
تَشْعُرُ بِجُرْحِكَ، وإن لَمْ يَكُنْ آخرَ جُرُوحِكَ وأَشَدَّها فَتْكًا،
وهو الذي تَلَقَّيْتَهُ عندَ رَدِّكَ على عَقِبَيْكَ، ولَمْ تُحْرِزْ في الجَحِيمِ
أَيَّ انْتِصَارٍ، فإنَّ أَبْوَابَ أَبَدُّونَ كُلَّها تَنْدَمُ على اليَوْمِ
الذي تَجَاسَرْتَ فيهِ عَلَى التَّمَرُّدِ، ولسوفَ تَتَعَلَّمُ بعد ذلكَ بِرَهْبَةٍ 625
أن تَخْشَى ابْنَ الله؛ إذْ سَوْفَ يقومُ دونَ سِلاَحٍ
بِمُطَارَدَتِكَ بما في صَوْتِهِ مِنْ هَوْلٍ ورُعْبٍ، وطَرْدِكَ
مِنْ حُصُونِكَ الشَّيْطَانِيَّةِ، ومَنْ تَمْلِكُهُمْ وتسكُنُ أَجْسَادَهم شَرًّا وخُبْثًا،
أنتَ وفَيَالِقُكَ التي سَوْفَ تَفِرُّ صَائِحَةً صَارِخَةً،
راجيةً إيَّاهُ أنْ يُخْفِيَ أَفْرادَهَا في قَطِيعٍ مِنَ الخَنَازِيرِ، 630
خَشْيَةَ أنْ يَأْمُرَ بِإلْقَائِهِمْ في غَيَابَةِ الهُوَّةِ مَغْلُولِينَ،
وأنْ يكونَ قد أُرْسِلَ لِتَعْذِيبِهِمْ قَبْلَ أنْ يَحِينَ مَوْعِدُ العَذَابِ.

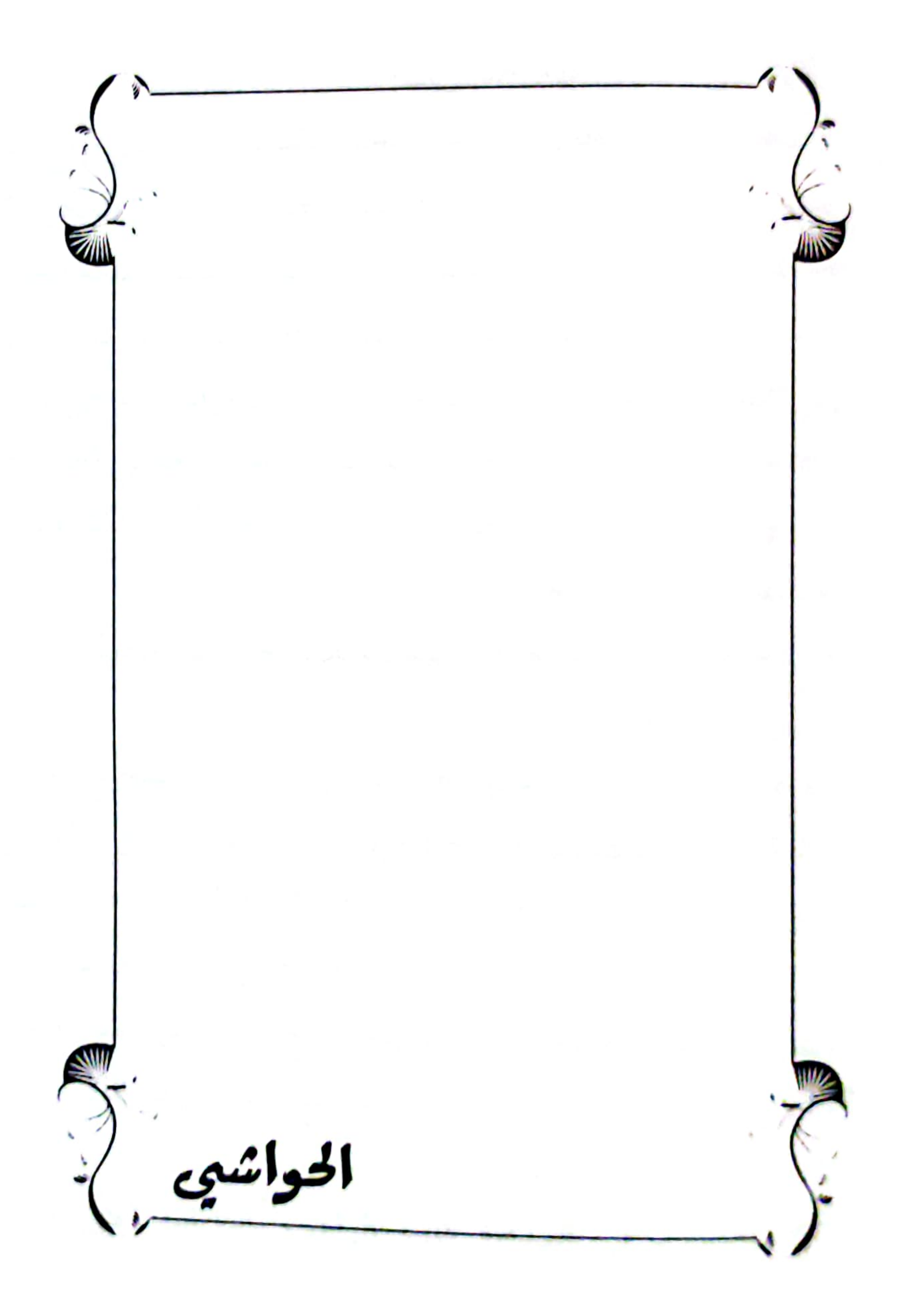


635

سلامٌ عَلَيْكَ يا ابْنَ الأَعْلَى ، يا وَرِيثَ العَالَمَيْن ،
يا قَاهِرَ إبْليسَ ، فأشْرَعْ الآنَ في عَمَلِكَ المَجيدِ
وابْدَأْ الآنَ في تَحْقِيقِ الخَلاَصِ لِبَنِي البَشَرِ .

وهكذا تَغَنَّتِ الملائكةُ بالنَّصْرِ الذي أَحْرَزَهُ ابنُ الله .

مُخَلِّصُنا الوَديعُ ، وبَعْدَ أنْ اسْتَعَادَ نَشَاطَهُ مِنْ وَليمَتِهِ السَّماوِيَّةِ
بَدَأَ يَسيرُ في طَريقِهِ فَرِحًا ، ودونَ أنْ يَلْحَظَهُ أَحَدٌ
عادَ وَحْدَهُ إلى مَنْزِلِ وَالِدَتِهِ .



الحواشي



حواشي الكتاب الأول

1 - «ها أنذا، من كان إلى عهد جد قريب»:

في هذا السطر صدى للسطور *1/1-4* من ملحمة الإنيادة، وهي التي يودع الشاعر فيها الشعر الرعائي والريفي، ويقول النقاد إن كاتب السطور المذكورة قد يكون ڤيرچيل، قبل أن يعود فيحذفها من النص. والسطر يذكرنا بمطلع قصيدة ملكة الجان للشاعر إدموند سبنسر الذي يحاكي سطور ڤيرچيل المحذوفة. وتقول لوولسكي إن الإشارة إلى الفردوس المفقود باعتبارها «جنة الهناء» قد تعني أن ميلتون يوحي بأنه قد نضج فانتقل من كتابة الشعر الرعوي إلى معالجة موضوع ملحمي حقيقي (ص *6*).

4-2 انظر روما *19/5* «فكما أنه بعصيان الإنسان الواحد جُعِل الكثيرون خاطئين، فكذلك أيضًا بطاعة الواحد سيُجْعَلُ الكثيرون أبرارًا».

7 - انظر إشعياء *3/51* «الرب يعزي صهيون ويعزي خرائبها ويحول قفرها إلى عدن وصحراءها إلى جنة رائعة».

8 - «الروح»: تقول پوپ إن ميلتون هنا يسير في الطريق «الصحيح» حين يستخدم «الروح» - الواردة دون تخصيص في إنجيل لوقا *(1/4)* - بمعنى الروح القدس. ولكن م. كيلي يقول في دراسة له نشرها عام *1935* *(221-234)* إنه ما دام ميلتون يطلب الإلهام هنا من «الروح»، فلا يمكن أن يكون المقصود هو الروح القدس؛ لأن ميلتون ينهي في كتابه عن العقيدة المسيحية عن استلهام الروح القدس نَهْيًا باتًا، ويقول روبينز (ص *173*) إن ميلتون ربما كان يشير إلى روح المسيح نفسه، وهي الروح التي أضفاها الله عليه عند تعميده وترمز لها الحمامة.

8 - *9* «الراهب.. في البيداء» كلمة الراهب باليونانية تعني حرفيًا ساكن

الصحراء.

9- «ميدان انتصاره» : كان مفهوم الإغواء باعتباره موقعة حربية، كما تبين بوب (ص 115-120) جانبًا راسخًا من جوانب التقاليد الدينية، وعلى الرغم من تحذير ميكائيل لآدم من تصور ذلك في (الفردوس المفقود 12/386-395) فإن ميلتون يعود إليْهِ في شتى أجزاء عودة الفردوس. انظر على سبيل المثال 1/158، 174؛ 4/562 - 570 وغيرها. وأنشودة الملائكة الأخيرة (4/604 - 609) تقيم التوازي بين هذه المنازلة التي تجري على الأرض والمنازلة السابقة في السماء.

11 - 12 «كما أسلفت» يقول روبينز (ص 168) إن هذه الكلمات تعني أن ربة الشعر المستلهمة في عودة الفردوس هي نفسها المستلهمة في الفردوس المفقود، وأن ميلتون قد حدد تلك الربة بأنها يورانيا، ووازى بينها وبين لوغوس؛ أي كلمة الله (المسيح).

14- «رُدَّ إليْهِ ريشُه» بالإنجليزية يشير التعبير إلى تربية الصقور وعدم إطلاقها حتى يكتمل لها ريشها.

18- «الداعية العظيم» المقصود يوحنا المعمدان. 20- «التوبة» : انظر إنجيل متى 3/2 «توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات!» .

23- «من افترض أنه ابن يوسف» : انظر إنجيل لوقا 3/23 «وكان معروفًا أنه ابن يوسف» .

26- «بشره الله به» انظر إنجيل يوحنا 1/33 «ولم أكن أعرفه، ولكن الذي أرسلني لأعمد بالماء هو قال لي: الذي ترى الروح ينزل ويستقر عليه هو الذي سيعمد بروح القدس» .

30-32 انظر إنجيل متى 3/16-17 «ورأى روح الله هابطًا ونازلاً عليه كأنه حمامة، وإذا صوت من السماوات يقول: «هذا هو ابني الحبيب، الذي سررت به كل «سرور» .

33- «خصمه» : أي إبليس، فكلمة «شاطان» بالعبرية تعني الخصم.

33-34 انظر أيوب 7/1 «فسأل الرب الشيطان «من أين جئت؟» فأجاب الشيطان: «من الطواف في الأرض والتجول فيها» .

39- «منزله» انظر أيوب 10/7 «لا يرجع بعد إلى منزله، ومكانه لا يعرفه بعد، وتعبير «أجواز الهواء» تعبير يستند إلى الاعتقاد بأن الشياطين تسكن الهواء وتسوده، وهو الذي نجد أصلاً له في الرسالة إلى مؤمني أفسس 2/2 حيث يوصف إبليس بأنه «رئيس قوات الهواء» .

42- «مجلس شيوخ حالك» في هذا إشارة مضمرة إلى مجلس الشيوخ الكنسي الذي كان البابا يرأس فيه الكاردينالات، وإلى المحكمة الأسقفية المختصة بنظر القضايا الكنسية في الكنيسة الأنجليكانية. وكان ميلتون يسخر من هذا وذاك.

53- «الجرح القاتل» : انظر سفر التكوين 15/3 «وأثير عداوة دائمة بينك وبين المرأة، وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه» .

56- انظر المزمور 4/90 «فإن ألف سنة في عينيك كأمس الغابر» .

57- «دارت الساعات دورتها» : انظر «دورة الساعات» في الفردوس المفقود 3/6، وهي التي ترجع أصداء الصورة الواردة في الإنيادة 234/1 : (*volventibus annis*)

74- انظر رسالة يوحنا الأولى 3/3 «وكل من عنده هذا الرجاء بالمسيح، يطهر نفسه كما أن المسيح طاهر» .

82- «أبوابها» انظر المزمور 23/78 «ومع ذلك أمر السحاب وفتح أبواب السماوات» .

83- انظر إنجيل متى 16/3 «ورأى روح الله هابطًا ونازلاً عليه كأنه حمامة، وأما تعبير «مهما تكن دلالتها» فيشرحه ما يقوله ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية 4/1 وهو: «ومن ثم فإن هبوط الروح القدس وظهوره فيما يشبه حمامة، لم يكن، فيما يبدو، أكثر من تمثيل للحب الذي من المحال التعبير عنه من الله للمسيح، وهو الذي ينقله الروح القدس في صورة حمامة، وهي صورة ملائمة، بمصاحبة صوت من

السماء يعلن ذلك الحب».

91-89 يقول أحد النقاد: إن قول إبليس هنا يدل على أن محاولة معرفة هوية المسيح تمثل عنصرًا من عناصر الحدث في القصيدة، ولكن إبليس يقول ما يقوله علنًا، ومن ثم فلا ينبغي الالتزام بمعنى كلامه الظاهر.

100- انظر الفردوس المفقود 430/2 - 466 حيث يتطوع إبليس للقيام بالرحلة إلى الأرض.

113- «المستبد»: في الأصل «دكتاتور»، ويفسرها أحد النقاد قائلاً إنها كانت تعني في القرن السابع عشر الزعيم السياسي، الذي يكتسب سلطات غير محدودة في حالة الطوارئ الوطنية. ويقول آخر إن وجود الزعيم المستبد كان لازمًا لنجاح أية جمهورية، ولكن ميلتون لا يوافق على هذا الرأي في كتاباته النثرية. ويقول أحد النقاد إن فشل إبليس باعتباره زعيمًا مستبدًا في عودة الفردوس يمثل إدانة ميلتون للزعامة المستبدة.

117- «أربابًا» كان ميلتون يوازي بين الشياطين العاصين وأرباب الوثنية، هنا وفي الفردوس المفقود.

120- «مرتديًا أحابيل ثعبانية»: على عكس ما جاء في إشعياء 5/11 «لأنه سيرتدي البِرّ ويتمنطق بالأمانة»، وما جاء في إفسس 14/6 «بعد أن تتخذو البر حزامًا لأوساطكم».

129- «جبريل» الملاك الحامي لجنة عدن في الفردوس المفقود 4، وملاك البشارة.

134 - 140 انظر إنجيل لوقا 26/1 - 38.

147- «أيوب» هذه أول الإشارات الخمس إليْهِ في عودة الفردوس (انظر 369/1، 425، و64/3 - 67، 95). وكما ذكرت في المقدمة كان سفر أيوب هو النموذج الذي قال ميلتون إنه اختاره لملحمته «الموجزة» ويقول هيوز في مقال له نشره عام 1938 بعنوان: «المسيح في عودة الفردوس والتقاليد الشعرية في عصر النهضة»



إن ميلتون ربما كان يدين لسفر أيوب من حيث الفكرة والبناء معًا، مضيفًا أن «أيوب أصبح يعتبر أعظم نموذج للصورة المسيحية لسمو الفكر ورحابة النفس الأرسطية». ويقول نقاد آخرون إنه من المحتمل أن ميلتون كان يعتبر سفر أيوب ملحمة في صورته المنظومة، ويشير ناقد يدعى س. و. چونز في دراسة له نشرها عام *1947* إلى ما كان يعتقده چيروم وأوريغن وغيرهما من آباء الكنيسة من أن الشعر العبراني كان منظومًا بالمعنى اليوناني، ويقول چيروم في مقدمته لترجمته لسفر أيوب إن الجزء الشعري منظوم بالبحر السداسي التفعيلة.

وتقتطف لوولسكي (ص *112*) بعض أقوال السلف، وخصوصًا كتاب الأخلاق في سفر أيوب الذي وضعه جريجوري، ويقول فيه إن العلاقة قائمة بين أيوب والمسيح باعتبارهما من الأبطال الذين عرضهما الله على الناس في الدنيا، وتتوسع الباحثة في تحليل العلاقة المذكورة.

153-152 التمييز بين «الأحابيل البارعة» وبين «القوات» يمهد للتمييز ما بين الإغواءات/ الاختبارات الأولى والاختبار بالعنف في مشهدي العاصفة والقمة.

156- «يثبت معدنه عمليّا» انظر كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية *8/1*، حيث يقول: «الإغواء/ الاختبار الصالح اختبار يبتلي فيه الله الأبرار أنفسهم لإثبات معدنهم عمليّا، لا لأنه لا يعرف ما في قلوبهم بل لممارسة أو إظهار إيمانهم أو صبرهم».

158-157 «العناصر الأولى/ لحربه العظمى»: هذا صدى لتعبير ڤيرچيل في الإنيادة *(bellique... rudimenta)157-156/11*

159- «الخطيئة والموت» انظر الفردوس المفقود *673-648/2* و*609-585/10*.

161- انظر الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس *27/1* «وقد اختار الله ما هو ضعيف في العالم ليخجل المقتدرين».

167-165 يرجع أحد الباحثين هذه السطور في دراسة له عن فكرة خلاص البشرية

عند ميلتون إلى تعريف الشاعر للخلاص في كتابه عن العقيدة المسيحية، وإن كان ذلك التعريف لا يثير قضية كمال المسيح. انظر الفردوس المفقود 309-308/3، 43/4.

176- انظر إنجيل يوحنا 15/10 «مثلما يعرفني الآب وأنا أعرفه».

184- «بَيْتَ عَنْيَا» انظر إنجيل يوحنا 28/1 «هذا جرى في بيت عنيا، في ما وراء نهر الأردن، حيث كان يوحنا يعمد».

189- «الروح» انظر الحاشية على 8/1.

193- «الصحراء»: على الرغم من أن النص يدل بوضوح على أن هذه هي الصحراء القريبة من بيت عنيا، فإن الأبيات 350/1 - 354 و 306/2 - 314 تحدد أنها، فيما يظهر، بَرِّيَّةُ بئر سبع حيث تجولت هاجر، وحيث لجأ إيليّا، وأنها أيضًا بَرِّيَّةُ الخطيئة التي أُطْعِمَ بنو إسرائيل فيها المن والسلوى. ويبدو أن ميلتون كان يعتبر أن المنطقة الصحراوية في الشرق الأوسط كلها بَرِّيَّةٌ واحدة (انظر 354-350/1 والحاشية).

204- «من شأنه أن ينفع الناس»: يستعرض هوارد شولتز في كتابه ميلتون والمعرفة المحرمة (ص 80) تطبيق معايير النفع – تقليديًا – على التعليم، وهو ما يوحي به كلام المسيح هنا، كما يلمح شولتز إلى قول مماثل لميلتون في كتابه عن التعليم.

204 - 205 انظر إنجيل يوحنا 37/18 «ولهذا وُلِدْتُ وجئتُ إلى العالم: لأشهد للحق».

206- «أكبر من سني»: يشير بعض الشراح إلى احتمال وجود صدى لفظي هنا لما جاء في الإنيادة 311/9: (*Ante annos animumque gerens curamque virilem*)؛ أي «بعقل رجل وروح فوق سنين عمره».

208- «بهجتي»: انظر المزمور 2/1 «بل في شريعة الرب بهجته».

209-214 انظر إنجيل لوقا 46/2-50، حيث يُذْهِلُ المسيحُ المعلمين في عيد الفصح بما يبديه من «فهمه وأجوبته».

226- «نقمع» في الأصل (*subdue*) وهي الكلمة التي استبدلها ميلتون



بكلمة (*destroy*) في قائمة تصويب الأخطاء، ولكن بعض الشراح يقولون إن المقصود هو الأخيرة مستشهدين بما جاء في إنجيل لوقا *56/9* «لأن ابن الإنسان أتى لا ليهلك نفوس الناس» ، ولكن الكلمة الإنجليزية قد غَيَّرها ميلتون في تصويباته، وأخذ بها المحررون جميعًا، ولذلك لابد من الأخذ بالصورة المصححة التي يريدها الشاعر.

254-238 التفاصيل من إنجيل متى *1-2* ولوقا *1-2*.

241-239 انظر إنجيل لوقا *32/1* - *33* «إنه يكون عظيمًا. . ويمنحه الرب الإله عرش داود أبيه. . . ولن يكون لملكه نهاية» .

255- انظر إنجيل لوقا *25/2*: «وهو رجل بار» ، و«النبية حنة» وإنجيل لوقا *36/2*: «وكانت هناك نبية، هي حنة. . .» .

259- لا يبدأ هذا السطر في الأصل الإنجليزي فقرة جديدة، لكنه لما كان السطر السابق آخر حديث مريم أحببت إيضاح ذلك في طباعة النص العربي.

267-266 انظر إشعياء *6/53* «فأثقل الرب كاهله بإثم جميعنا» .

289-270 يتبع ميلتون ما جاء في هذا الصدد في إنجيل متى *3*، ولوقا *3*، ومرقس *1*.

281- «أبوابها السرمدية» انظر المزمور *7/24* «المداخل الأبدية» . .

287-286 «الوقت/ قد حان» انظر الرسالة إلى مؤمني غلاطية *4/4* «ولكن لما جاء تمام الزمان، أرسل الله ابنه» .

293-291 انظر إنجيل مرقس *32/13* «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد، لا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب» .

294- «كوكب صباحنا» انظر سفر الرؤيا*16/22*حيث يقول يسوع: «أنا كوكب الصبح المنير» .

313-310 تقول پوپ إن التقاليد «المذهبية» لقصة الغواية/ الاختبار كانت تنص

على أن الوحوش لم تؤذ المسيح لأنه كان الرجل الكامل. وانظر إنجيل مرقس 13/1 حيث ترد الإشارة الوحيدة إلى الوحوش في الأناجيل الأربعة. ويقال إن ميلتون قد تأثر بالشاعر چايلز فليتشر (الابن) (ت - 1623) خصوصًا ديوانه الرئيسي انتصار المسيح في الأرض والسماء الذي يشير فيه (40/1 - 41) إلى أن الحيوانات كانت تلهو وتتلاعب حول المسيح، والأسد يلعق قدميه، والحمل يسير جنبًا إلى جنب مع الببر. ويقول كيري إن فليتشر، مثل ميلتون، تأثر بشتى النبوءات في العهد القديم مثل حزقيال 25/34، وإشعياء 11/6-9 و 25/65.

314- «شيخًا هرمًا يرتدي ملابس ريفية» يقول هيوز في الكتاب المشار إليْهِ آنفًا (ص 256) إن ميلتون تأثر بما يذكره مالوري في عمله الشعري الضخم موت آرثر عن الشيطان الذي يتنكر في صورة رجل من رجال الدين حتى يدفع السير بورس إلى الوقوع في الخطيئة. وأما المصادر التي يشار إليْها في العادة فتضم ملكة الجان للشاعر سپنسر، وعمل چايلز فليتشر المشار إليْهِ آنفًا. وتقول پوپ (ص 42-47) إن الكُتَّاب والفنانين في الفترة من القرن الرابع عشر إلى الثامن عشر كانوا يفترضون أن الشيطان يأتي إلى البَرِّيَّة متنكرًا، وإن لم يتفقوا على صورة التنكر، وكانت أكثرها شيوعًا صورة ناسك هرم كريم، ولكنه كان يُصَوَّرُ أيضًا في صورة شيخ يرتدي ملابس فاخرة، أو صورة شاب وسيم. وبعض الفنانين والكتاب يجعلون له ثلاث صور للتنكر، صورة لكل إغواء/ اختبار (مثلما يفعل ميلتون، انظر 2/298-300، 4/449).

315-316 الأعمال التي يتظاهر إبليس بعملها تتصل بشاغله المعتاد وهو البحث عن النفوس الضالة (الأغنام الشاردة) حتى يحرقها. وانظر إنجيل يوحنا 6/15 «إن كان أحد لا يثبت فيَّ يُطرح خارجًا كالغصن فيجف، ثم تُجمع الأغصان الجافة، وتُطرح في النار فتحترق».

324-325 «سقط هنا/ جثة ذوت..» انظر سفر العدد 29/14 «إذ





تتساقط جثثكم في هذه الصحراء».

342-350 أصل هذا الحوار في إنجيل لوقا 4/3-4.

344- «تنقذ نفسك» انظر الحاشية على السطور 2/245-259.

349-350 انظر سفر التثنية 8/3 «وأطعمكم المَنَّ... ليعلمكم أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة ينطق بها فم الرب».

350-354 انظر سفر الخروج 24/18 «واختفى موسى... وصعد إلى الجبل حيث مكث هناك أربعين نهارًا وأربعين ليلة»، وذلك عندما تلقى الوصايا على جبل سيناء. وتبين پوپ أن التقاليد كانت تربط قطعًا ما بين البرية التي شهدت محاولات الإغواء/ الاختبار وبين الصحراء التي تاه فيها اليهود أربعين سنة، وصام فيها موسى وإيليا أربعين يومًا. وملاءمة هذا التماهي لرموز الكتاب المقدس دفعت ميلتون إلى الأخذ به، وأما الشراح الذين يفضلون الجغرافيا الواقعية فيقولون إن البَرِّية التي شهدت محاولات الغواية/ الاختبار هي الصحراء الممتدة بين أورشليم وأريحا.

353- في سفر الملوك الأول (19/8) يسافر إيليًّا إلى جبل حوريب على مدى أربعين نهارًا وأربعين ليلة دون طعام.

355- «أرتاب» تقول پوپ (56-64) إن ميلتون يُظهر أنه يتبع كالڤين وعلماء اللاهوت البروتستانتيين بجعله الإغواء/ الاختبار الأول اختبارًا لا بالنهم بل بالارتياب (انظر الحاشية على 4/110-120) وهو يصور إغواء حواء (الفردوس المفقود 9/703-705) في الإطار نفسه، ومن ثم يحافظ على «المعادلة التقليدية» بين مغويات المسيح التي قاومها ومغويات آدم وحواء التي خضعا لها.

356- «ما دمتَ تعرف من أنا»: يقول وودهاوس إن هذه الكلمات تثبت أن إبليس يعرف أن يسوع هو المسيح ومن ثم فهو إما يتظاهر بالجهل أو يكابر فلا يعترف بالحقيقة. ويرى باحث آخر أن هذا السطر ينفي أن اختبارات/ مغويات إبليس ترمي

إلى معرفة هوية المسيح، ولكن كيري يقول إن السطر قد يعني إنك تعرف أنني «ابن الله» وحسب، وإبليس يساوره القلق على معنى ذلك التعبير.

376-368 انظر سفر أيوب 6/1 «وحدث ذات يوم أن مَثَلَ بنو الله أمام الرب فاندس الشيطان في وسطهم»، وملوك أول 22/20-22 «فسأل الرب من يغري أخآب ليخرج للحرب ويموت في راموت جلعاد؟ فأجاب: أخرج وأصبح روح ضلال في أفواه جميع أنبيائه». وتُرْوَى الحادثةُ نفسها في أخبار الأيام الثاني 18/19-22. وقد أرجع بعض الباحثين موازاة «روح الضلال» المذكور بإبليس إلى بعض الحواشي التي وجدها ميلتون في الطبعة المعتمدة للكتاب المقدس.

369- انظر سفر أيوب 1/1 «عاش في أرض عوص رجل اسمه أيوب».

378- «بريقى» انظر الفردوس المفقود 1/591-592، 7/132-133.

380-379 انظر الفردوس المفقود 2/482 - 483.

383- «وكيف يخامرني إحساس يقل عن الرغبة»: كان هذا السطر مثار خلاف حتى حسم المعنى باحث يدعى أ. بنسلي عام 1929، وتوافقه لوولسكي على ما ذهب إليْه، ولو أنها تمتدح البناء الذي قد يوحي بعكس المقصود، فالمعنى الذي يفيد الإيجاب أي «إنني أشعر بكذا، ولم لا؟» كقول شوقي:

لِمَ لا تُطِلُّ مِـنَ السماءِ وإنمـا بينَ السحابِ قبورُها والأَنْجُم

والمعنى الذي يفيد النفي؛ أي «إنني لا أشعر بكذا.. وأعجب وأتساءل عن سبب ذلك»، قائلة إن هذا المعنى الأخير هو الأصدق، فإن إبليس لا يكره شيئًا أكثر من مواجهة المسيح والاستماع إلى كلامه.

396-393 انظر السطور 430-433، 446-451، 455-464. وكانت النظرة التقليدية عند آباء الكنيسة تقول إن الشياطين كانوا يسكنون مزارات النبوءات الوثنية ويدلون بأقوالهم بأسماء الأرباب الوثنية، وكانوا يستعينون في ذلك بقدرتهم

علي السفر بأرواحهم إلى أي بقعة على سطح الأرض في لمحة، وكذلك بمعرفة مسبقة ببعض الأحداث، وهي المعرفة التي اكتسبوها قبل سقوطهم من الجنة بسبب العصيان.

401- انظر المثل اللاتيني الذي يقول: (*solamen miseris socios habuisse doloris*) وترجمته المأثورة هي: «الصُّحْبَةُ فِي الأَحْزَانِ تُخَفِّفُ مِنْ وَقْعِ الأَحْزَانِ» ولكن الشاعر المسرحي سينيكا قد أُثِرَ عنه قوله إن العزاء المستمد من الصحبة في الآلام يشي بسوء القصد.

407- انظر إنجيل يوحنا 44/8 حيث يقال إن إبليس «كذاب وأبو الكذب».

410-420 يقول كيري إن هذه السطور قد توحي بأن المسيح بدأ يتذكر وجوده في السماء قبل التجسيد، أو بأن الله قد أنار بصيرته فجأة (انظر 293/1) ولكن لوولسكي (ص 212) تقول إن حديث المسيح إعادة تشكيل بخياله للمشهد الذي يستند إلى التفاسير المسيحية التقليدية لقصة أيوب، وتعرب عن اعتقادها بأن المسيح لا يتذكر مقابلاته/ منازلاته مع إبليس في السماء إلا في مشهد الإغواء/ الاختبار فوق البرج.

420- انظر الفردوس المفقود 467/9-470.

423- انظر الفردوس المفقود 160/1.

428- انظر الحاشية على 368-376، وانظر ملوك أول 6/22 «فجمع ملك إسرائيل نحو أربع مئة من أنبياء الأصنام وسألهم: «هل أذهب للحرب إلى راموت جلعاد أم أمتنع؟» فأجابوه: «اذهب..».

434-435 انظر شيشرون عن التنبؤ 56/11، في الباب الخاص بنبوءة أپولّو: «خريسيپوس ملأ مجلدًا كاملاً بنبوءاتكم، وأعتقد أن بعض هذه كانت كاذبة، وصدق بعضها مصادفة، على نحو ما يحدث كثيرًا حتى في الحديث العادي، وكان بعضها على قدر بالغ من التعقيد والغموض حتى أن مفسرها يحتاج إلى مفسر ولابد من إحالة

النبوءات نفسها إلى المتنبئين، وكان بعضها يحتمل من المعاني الكثيرة ما يتطلب خبيرًا باللهجات لتفسيرها» .

447-446 «فأنت تستقي ذلك . . من عند الله» يقول القديس طوما الأكوينى إن أنبياء الوثنية لم يكونوا يستندون دائمًا إلى وحي الشياطين بل إلى وحي من عند الله، وهكذا كانوا يقولون الصدق، وهو ما يفسر كيف تنبأت سيبيل بمقدم المسيح. ويضيف إنهم حتى حين يستلهمون الشياطين فإنهم قد يصدقون أحيانًا إما بسبب تدخل الجن المؤمنة أو بطبيعة خلق الجن أنفسهم فهم أرواح خلقها روح القدس، أو لأن الله يستخدم الشياطين للكشف عن الحق وهكذا كان يُكْشَفُ لهم عن بعض الأسرار الربانية من خلال الملائكة.

448-447 يقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية «يبدو من المحتمل أن بعض الملائكة معينون لرئاسة بعض الأمم والممالك ومقاطعات معينة» .

456- «النبوءات تتوقف منذ اليوم» أنشودة ميلاد المسيح لميلتون، *173*، وسفر ميخا *12/5*.

458- «دلفوس» انظر أنشودة ميلاد المسيح *178*.

462- «روح الحق» انظر إنجيل يوحنا *13/16* «ولكن، عندما يأتيكم روح الحق، يرشدكم إلى الحق كله» .

492-490 عندما حث بالاقُ، ملكُ مؤاب، بَلْعَامَ على لَعْنِ بني إسرائيل، رد بلعام قائلاً: «إني أُمِرْتُ أن أبارك، وهو قد بارك ولا طاقة لي علىَ رده» (العدد *20/23*). ويقول فيكسلر في كتابه ميلتون وممالك الله (*1964*) إنه إذا كان الكتاب المسيحيون يرسمون لبلعام صورة خالصة السواد، فإن التراث اليهودي كان يتراوح بين الرفض والقبول بل كان يعتبره أحيانًا نبيًا مساويًا في المنزلة لموسى.

496-495 انظر الفردوس المفقود *1009-1006/4*.



499- «ذائبًا في أدق ذرات الهواء» : هذا التعبير يحمل أصداء وصف فيرجيل في الإنيادة 278/4 لاختفاء ميركوري : (*procul* in *tenuem ex oculis evanuit auram*)؛ أي أنه اختفى في أدق ذرات الهواء، بعيدًا عن عيون الناس. وقد ورد التعبير في شيكسبير أيضًا: غَيْرَ أَرْوَاح وأَشْبَاح تَلاَشَتْ وَذَابَتْ في الهَوَاءِ في أَرَقِّ ذَرَّاتِ الهَوَاءِ! العَاصفة 149/148/1/4

500- «بجناحه الأدكن» ربما كان التعبير يرجع صدى الوصف الوارد في الإنيادة 369/8.

(*Nox ruit et fuscis tellurem amplectitur alis*)

أي يهرع الليل هابطًا ويحتضن الأرض بجناحيه الأدكنين. والظلال الكثيفة ترجع صدى أوفيد في مسخ الكائنات 550-549/11.



حواشي الكتاب الثاني

6- «أقاما» : انظر إنجيل يوحنا 39/1 «فرافقاه ورأيا محل إقامته، وأقاما معه ذلك اليوم» .

15- «موسى . . غاب رَدَحًا طويلاً» : انظر الخروج 1/32 : «ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل، اجتمعوا حول هارون وقالوا له . . لا ندري ماذا أصاب هذا الرجل موسى» .

16- «التَّشْبِيُّ» : هو إيليَّا الذي وصف بأنه تِشْبيٌّ في ملوك أول 1/17، وكانت مدينة تِشْبِي أو تِشْبُون تقع شرقي نهر الأردن، في جلعاد .

16- «عجلة من نار» : انظر ملوك ثاني 11/2 «وفيما هما يسيران . . فصلت بينهما مركبة من نار تجرها خيول نارية، نقلت إيليا في العاصفة إلى السماء . » .

17- «كيما يعود ثانيا بعدها» انظر ملاخي 5/4 «ها أنا أرسل إليكم إيليا النبي قبل أن يأتي يوم قضاء الرب الرهيب العظيم» .

18 - 19 انظر ملوك ثاني 15/2 - 17، بعد صعود إيليَّا قام «خمسون رجلاً من ذوي البأس» ومن «بني الأنبياء» بالبحث عنه «ثلاثة أيام على غير طائل» .

20 - 21 «أريحا . . . النخيل» انظر التثنية 3/34 «وأريحا مدينة النخيل» .

21- «عين نون، وفي ساليم العريقة» : انظر إنجيل يوحنا 23/3 : «وكان يوحنا أيضًا يُعَمِّدُ في عين نون بالقرب من ساليم، لأن المياه كانت هناك كثيرة» . وأما صفة العراقة فربما كانت ترجع إلى أن ميلتون كان يظن أن ساليم هذه هي شاليم التي ورد اسمها في سفر التكوين (18/14) والتي كان ملكي صادق ملكا عليها .

22- «مخايروس» كانت قلعة في پيريا، في الصحراء شرقي البحر الميت، ويقع فيها المشهد التقليدي لإعدام يوحنا المعمدان .

27- انظر سبنسر، تقويم الرعاة (القصيدة الرعوية لشهر يناير) حيث يرد تعبير «غلام الراعي، والناس لا يدعونه باسم أفخم»، وانظر محاكاة فينياس فليتشر (الذي يحاكيه ميلتون) في أناشيد صيادي السمك 1/3 حيث يقول «صبي صياد، ولا يجرؤ على الظهور بمظهر أفخم»..

34- انظر إنجيل يوحنا 14/1 «والكلمة صارت بشرًا، وخَيَّمَ بيننا... وهو ممتلئٌ بالنعمة والحق».

44- انظر المزمور 1/2 «اجتمع ملوك الأرض.. وتحالفوا ليقاوموا الرب».

67- «التحية»: انظر إنجيل لوقا 28/1: «فدخل الملاك وقال لها: «سلامٌ، أيتها المنعم عليها! الرب معك: مباركة أنت بين النساء».

76- «الملك السفاح»: هيرود.

87 - 91 انظر 255/1 – 256 وإنجيل لوقا 34/2-35 «فباركهما سمعان، وقال لمريم أم الطفل: «ها إن هذا الطفل قد جُعِلَ لسقوط كثيرين وقيام كثيرين في إسرائيل، وآيةً لا تقاوم – حتى أنت سيخترق نَفْسَكِ سَيْفٌ – لكي تنكشف نيات قلوب كثيرة!».

92- «ارتفاعي» يقول الشاعر چون دَنْ، في كتابه المواعظ (الطبعة الجديدة من تحرير أ.م. سيمسون وج.ر. پوتر – بيركلي 1958) إن اسم مريم في اللغة العبرية الأصلية النقية يعني: السمو أو الارتفاع، وأفضل ما خُلِقَ ساميًا مرتفعًا. ولكن معاجم اللغة العبرية القديمة تؤكد صحة ما جاء في معجم الأسماء المسيحية الذي وضعه أ.ج. وذيكوم، طبعة أوكسفورد 1977، من أن الاسم يعني الطفل المنشود، أو المُرام، وأنه مشتق من كلمة «راما» التي قد تعني العالي أو الفعل طَلَبَ أو نَشَدَ (رامَ) مع إضافة السابقة «ما» التي تجعله مصدرًا ميميًا أو اسم مفعول، وأن الصورة التي وردت في معظم صور الكتاب المقدس هي ميريام، ويشرح المعجم معنى الاسم بالرجوع إلى مادته التي تتكون من أربعة حروف هي: م – ر – ى – م، قائلاً إن إضافة

الحروف الصائتة في القرن السابع الميلادى جعلته مَرْيَمَ، وإن كانت الصورة السبعينية للكتاب المقدس تنص على نطقه مَرْيَمَ، وتلك هي الصورة المعتادة في العهد الجديد المكتوب باليونانية للبتول المباركة، ولمريم أخت لِعَازَرَ. وأما رامةُ العربية فلسان العرب يقول إنها موضع بالبادية وإليْها ينسب الاسم راميٌّ. *96-100* انظر *215-209/1*.

97-98 المعنى كما يقول الشراح هو إنني وجدته في أحوال تشهد بقدرته على رعاية نفسه.

99- انظر **إنجيل لوقا** *49/2*، *51* «ألم تعلما أن عليَّ أن أكون في ما يخص أبي؟ . . . وكانت أمه تحفظ هذه الأمور كلها في قلبها» . . *103-104* انظر **إنجيل لوقا** *19/2* «وأما مريم فكانت تحفظ هذه الأمور جميعًا، وتتأملها في قلبها».

139- يميل النقاد الذين يفسرون صورة المسيح في **عودة الفردوس** باعتبارها تجسيدًا للمثل الأعلى الأرسطي إلى القول بأن «سعة النفس» هنا تعني النخوة أو الشهامة أو كرم الأخلاق عمومًا، وهو المعنى القريب مما يرد عند شيشرون، في **مجادلات في توسكولوم** حيث يقول: «اجعل هذا هدفك: فلتعتبر أن سعة النفس (*amplitudinem animi*) . . . وأفضل ما تتجلى فيه احتقار الألم وازدراؤه، أجمل شيء في الدنيا، ويزداد جمالها إذا نأت بنفسها عن رضى العامة» (*26/2*).

147- انظر **سفر الرؤيا** *9/12*، *2/20* «هو الحية القديمة، ويسمى إبليس والشيطان».

150-«بَلِيِّعال»: انظر **الفردوس المفقود** *490/1-493* و*109/2-117* والحاشيتين عليهما.

151- «أَصْمُدَايْ»: هذه الصورة، والصورة التي ورد بها في **الفردوس المفقود** *365/6* وهي أَصْمَدَايْ، أقرب إلى الاسم العبري أَسْخِمِيدَايْ (أي «المدمر») من الصورة المعتادة وهي «أصموديوس» في **الفردوس المفقود** *168/4* **وسفر طوبيت** *8/3*،

وأما في هذا الأخير فيظهر فيه ذلك الشيطان في صورة ملاك شرير يحب سارة ويذبح أزواجها السبعة واحدًا بعد الآخر، ويُعتبر من ثم تجسيدًا للشهوة.

152- كان القدماء يطلقون صفة «كابوس الشهوة» على «عفريت» متخصص في إغواء النساء، والمقصود هنا أن أصمداي يقوم بمهمة هذا العفريت.

160- انظر الفردوس المفقود 491-490/9.

162-161 انظر الفردوس المفقود 505-504/8.

171-169 انظر ملوك أول 8-4/11 «فاستطاعت زوجاته في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى... وأقام علي تل شرقي أورشليم مُرْتَفَعًا لِكَمُوشَ إلِهِ المُؤَابِيِّينَ الفاسق... وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغريبات اللاتي رحن يوقدن البخور عليها ويُقَرِّبْنَ المُحْرَقَاتِ لآلهتهن».

188-186 ترد قصص جميع هذه الحوريات اللاتي أغواهن أو طاردهن أرباب الوثنية عند أوفيد. وأولاهن كاليستو التي كانت إحدى حوريات الربة ديانا وأغواها جوف (مسخ الكائنات 409/2)، وكانت كليمين من حوريات البحر، ووالدة فايثون (مسخ الكائنات 757/1)، ودافني حورية تحولت إلى شجرة من أشجار الغار عند مطاردة أبولو لها (مسخ الكائنات 452/1) وسيميلي والدة باخوس الذي أنجبته من جوف (مسخ الكائنات 253/3) وأنتيوپا ضحية إغواء جوف الذي كان متنكرًا في شكل جدي (مسخ الكائنات 6/ 110) وسيرنكس حورية طاردها پان وحولها إلى بوصة (مسخ الكائنات 690/1) وأميموني حورية يحبها نيپتون، (أشعار غرامية 5/I/10).

196- وُلِدَ الإسكندر الأكبر في پيلا عاصمة مقدونيا، وبعد معركة إيسوس وأَسْرِ دارا (داريوس) ملك الفُرْس، وبناته، أظهر الإسكندر، فيما يرويه پلوتارخوس، احترامًا كبيرًا وتشريفًا وتكريمًا للأسيرات، فكن يَعِشْنَ «كأنما في غرف العذارى المقدسة المحرمة لا في معسكر للعدو». وكان الإسكندر يرى أن «سيطرته



على نفسه صفة أقرب لصفات الملوك من قهر أعدائه» ، وعندما رأى الأسيرات الفارسيات الأخريات الرائعات الحُسْنِ «لم يزد على أن قال هازلاً إن الفارسيات يتسببن في إيذاء عينيه» ، وكانَ «يتجاهلهن كأنَّما كُنَّ صورًا لا حياةَ لها ولا تزيدُ عن مظهر جذاب» .

199- «الذي يُدعى الإفريقي» ، كان يشار إليْهِ باسم سكيبيوس أفريكانوس، ويحكي ليڤى ما حدث بعد سقوط قرطاجنة الجديدة في عام 210 ق.م. ، إذ أعاد سكيپو أسيرة إسپانية جميلة إلى الشاب الذي كان قد خطبها .

206-205 «أحكم كثيرًا/ من سليمان» انظر إنجيل متى 42/12 «وها هنا أعظم من سليمان!» .

215-214 ورد في الإلياذة 351-214/14 أن چوف يستسلم لچونو عندما جاءته مرتدية إزار (نطاق) ڤينوس .

223-222 الصورة مبنية على وصف الطاووس في فن الهوى لأوڤيد 627/1، فالطاووس حسبما يقول لا يعرض ريشه الزاهي إلا حين يسمع الإطراء .

259-245 يقول كيري إن هذا الحديث يوضح أن صيام المسيح لم يكن معجزة قام بها بصفته البشرية، بل معجزة إلهية توسلت به وحسب، لأن المسيح باعتباره بشرًا لم يكن يستطيع التحكم في شهيته، وتضيف لوولسكي (ص 202-203) أنه ما دام قد أحس الجوع أول مَرَّةٍ في هذه اللحظة فإنه لم يكن يشعر بالجوع خلال تحدي إبليس له بتحويل الحجر إلى خبز (342/1–344) .

259- انظر إنجيل يوحنا 34/4 «طعامي هو أن أعمل مشيئة الذي أرسلني» .

262- الصورة مستمدة من هوراس .

269-266 انظر ملوك أول 17/5-6 «فانطلق ونفذ أمر الرب، وأقام عند نهر كريث مقابل نهر الأردن، فكانت الغربان تحضر إليْهِ الخبز واللحم صباحًا ومساءً، وكان

يشرب من ماء النهر» .

276-270 انظر **ملوك أول** *8-4/19*، حيث نقرأ أن إيليًا، بعد أن هددته إيزَابَلُ، يفر إلى الصحراء، وبينما كان ينام تحت شجرة شيح «إذا بملاك يمسه ويقول «قم وكل» . فتطلع حوله وإذا به يرى عند رأسه رغيفًا مخبوزًا على الجمر وجرة ماء» . ويأكل إيليا وينام ثانية، فيوقظه الملاك من جديد، ويأكل إيليا مرة أخرى، ثم «مشى بقوة تلك الوجبة أربعين نهارًا وأربعين ليلة حتى بلغ جبل الله حوريب» .

278- انظر **سفر دانيال** *21-3/1* حيث يرفض دانيال أن يتناولَ الطعامَ المُقَدَّمَ لأبناء الأشراف العبرانيين بأمر الملك نَبُوخَذْ نُصَّر، ويفضل أكل طعامه البسيط المكون من البقول (في الأصل الإنجليزي والترجمات العربية «الخضراوات» على اعتبار أن العدس والفول . . إلخ من الخضراوات) .

279- «بشيرة الصباح» : انظر روميو وچولييت *6/5/3*: «كَانَتْ بَشِيرَةَ الصَّبَاحِ القُبَّرَة!» .

295- يثير هذا السطر مشكلة، على نحو ما يشير إلى ذلك وودهاوس، وهي أنه إذا كانت «الخميلة الجميلة» (السطر *289*) من إبداع «فن» إبليس، فلماذا يستسلم المسيح للإغراء الذي تمثله ويقرر الاستراحة في ظلها؟ ويقول كيري إنه يمكن الإجابة على هذا السؤال بأن «الفن» لم يبدع الخميلة الجميلة بل «الدغل الملتف في وسطها» ، وهو الذي أعده إبليس للوليمة، ويضيف قائلاً إن المسيح لم يكن يستطيع أن يرى هذا «الدغل» من خارج الخميلة .

310-308 جاء في **سفر التكوين** *21-9/21* أن سارة طردت هاجر وابنها إسماعيل، وأن إسماعيل كان يمكن أن يهلك لولا أن هدى ملاكٌ هَاجَرَ إلى بئر . وميلتون هنا يشير إلى إسماعيل باسم ابنه الأكبر نبايوت .

312-310 انظر **سفر الخروج** *35/16* «واقتات الإسرائيليون بالمَنِّ طوال

أربعين سنة حتى جاءوا إلى تخوم أرض كنعان العامرة بالسكان» .

312-314 انظر الحاشية على 2/270-276 . ويظهر أن ميلتون يخلط ما بين تاباص، التي تقع إلى الشمال الشرقي من جبل إفرايم، حيث قتل أبيمالك (قضاة 9/50-55) وبين تِشْبِي أو تِشْبُون في جلعاد، مسقط رأس إيليًا .

318-319 تقول لوولسكي (ص 203) إن رد إبليس يتضمن صدىً ساخرًا لما قاله المسيح في 2/252-253 ؛ أي إن الجوع نفسه دليل على الحاجة .

324- انظر الرسالة إلى العبرانيين 2/1 «الابن الذي جعله وارثًا لكل شيء» ، وكان إبليس قد ذَكَّرَ حواء بما يماثل هذا قائلاً لها : «إن جميع الأشياء ملك يمينك» (الفردوس المفقود 9/549) .

327- «نَجِسَة» : يقول فيكسلر إن الوليمة (2/342-347) تتضمن الأطعمة المحرمة وفقًا لقانون موسى وهي الأسماك «ذات الأصداف» ، وتكرار إبليس لتأكيده بأنها غير نجسة في 2/369 يمكن اعتباره محاولة لجعل يسوع يرفض هذا القانون (كما يرفضه ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية) ويأمل إبليس أن يستدل بهذا الرفض على هوية المسيح . وفي مقابل ذلك، فإنه إذا رفض المسيح الوليمة؛ لأنها تتضمن أطعمة محرمة، فسوف يبدو أنه قد أخضع نفسه (وأخضع كنيسته) لما جاء لينقضه من قوانين تحريم الطعام . وتقول لوولسكي : «وينجح المسيح في الخروج من الورطة استنادًا إلى رفضه للذي يقدمها إليْهِ وحسب» .

329- انظر دانيال 8/1 «أما دانيال فقد عزم في نفسه ألَّا يتنجس بأطايب مأكولات الملك ولا بخمر شرابه» .

337-365 تقديم ميلتون لمشهد الوليمة هنا لا يعتمد على الكتاب المقدس ولا على التراث الديني، بل ولا على التراث الأدبي . وتقول پوپ (ص 70-79) إنه يمثل محاولة للحفاظ على المعادلة بين محاولات إغواء آدم وحواء ومحاولات إغواء المسيح (انظر

السطرين 348-349) فقد صور ميلتون نهم حواء، ومن ثم فهي تتحمل وِزْرَ الشَّرَه (طلب التفاحة لإشباع شهيتها) ووِزْر الحَسَدِ بمعنى اشتهاء ما في يد الغير (ما دامتْ أرادت التفاحة، وهي مِلْكٌ حرمه الله عليها، لأنها اشتهت جمالها): الفردوس المفقود 43-739/9، 735، 736. وثاني هذين الوِزْرَيْن يوازيه ميلتون بالإغراء بالممالك في عودة الفردوس (انظر الحاشية على 110/4-121) حيث يكمن مصدر الجاذبية الأولى في اشتهاء المجد والأبهة والثراء. ولما كان أول الوِزْرَيْنِ دون نظير في الإغواء بتحويل الأحجار إلى خبز (انظر الحاشية على 355/1) فقد جاء ميلتون بمشهد الوليمة ليوازيه، فمصدر الغواية الأول هنا هو الرغبة في الطعام. وابتغاءَ استكمالِ التطابق، يوضح ميلتون (في السطور 245-259) أن المسيح لم يكن يشعر بآثار الجوع على امتداد الأيام الأربعين الماضية، وأن القوة التي ساعدته على البقاء على قيد الحياة لاتزال تعينه بإشباع الحاجات الأساسية للبدن، ومن ثم فإنه يشتاق إلى الطعام دون أن يحتاج إليْهِ في الواقع (452-254). ولكن كيرمود في دراسة له بعنوان «بطل ميلتون» (1953) يورد سببًا آخر لتقديم هذه الغواية غير المنصوص عليها في المصادر الدينية، وهو احتمال التضاد بينها وبين ما يُكَافَأ به المسيح آخر الأمر (588/4 - 590) حيث يوصف الطعام بأنه سماوي، ورباني ومن أطعمة الجنة، وأما هنا فالجاذبية حسية، والجاذبية الحسية تنطلق من العين، أعلى الحواس (338/2)، وتمر بالشم (350-351) والأذن (362-363) حتى تصل إلى أدنى الحواس، وهما اللمس والذوق (369-371). وأما ستاين فيقول في كتابه المشار إليْهِ (المعرفة البطولية ص 60) إن الوليمة تمثل انحراف إبليس عن عزمه المعلن بألا يغري الشهية بما يتجاوز الحاجة الطبيعية وما هو حلال في الظاهر (229/2-230). ويضيف أن الذي تكشف عنه محاولة الغواية، إذن، هو فقدان إبليس لطاقته على الفهم، فهو مدفوع دفعًا إلى الشر، مؤكدًا أن «ما يقوله إبليس وما يفعله يشي بخسارة جوهرية، وهي التي يزداد سطوعها بسبب البريق

السطحي لما يبدو من كفاءته ووعيه» .

344- «العنبر» : كان يستخدم في الطهو مثلما يستخدم في صناعة العطور .

347- «البحر الأسود» - يسميه ميلتون باسمه القديم وهو بحر بُنْطُش ، ويقول پليني إن جميع الأسماك تبلغ حد الكمال بسرعة في ذلك البحر ، وإنه مشهور بسمك التونة خصوصًا . و«خليج لوكرين» بحيرة بالقرب من نابولي ، اشتهرت بالمحار ، وهو ما يشير إليْهِ هوراس .

353- كان جانيميد الشاب الذي يقول أوڤيد في مسخ الكائنات (*161-155/10*) إن چوف تنكر في صورة عُقَابٍ واختطفه من جبل «أيدا» حتى يصبح حامل كؤوسه . وأما هيلاس فيقول أبولونيوس روديوس في ملحمة الأرجونوتيكا *1239-1207/1* إنه الغلام الجميل الذي أحبته إحدى حوريات الماء أثناء ملئه إناءً بالماء من نبع تعيش فيه ، ولم تُطِقْ صَبْرًا على بُعْدِهِ فأخذته ومضت به إلى الأعماق .

356- «قرن أمالثيا» أو قرن الخصب (أو قرن الوفور حسبما يقول مجمع اللغة العربية) ومعناه القرن الذي يمتلئ بكل ما يرغب فيه صاحبه ، استنادًا إلى أسطورة أوردها أوڤيد في أحد أعماله الشعرية وهو التقويم *128-115/5* ، حيث يروي أن الحورية أمالثيا كان لديها عنزة تُرضع من لبنها چوپيتر عندما كان طفلاً رضيعًا فوق جبل «أيدا» ، ولكن العنز «كسرت أحد قرنيها بعد اصطدامها بشجرة وفقدت بذلك نصف قوتها السحرية . فقامت الحورية بالتقاط القرن ، ولَفَّتْهُ في لفافة من الأعشاب النضرة ، وحملته ممتلئًا بالفاكهة وقربته من شفاه چوپيتر . وعندما مَلَكَ چوبيتر مملكة السماء . . . أحال مُرْضِعَتَهُ وقَرْنَ خَصْبِها إلى نجوم» .

357- «حديقة هسپيريديز» : وردت الإشارة الصريحة الأولى إلى مقصد ميلتون من الكلمة التي يستخدمها هنا في صيغة الجمع (هسبيريديز) في مسرحية كوموس ، في إحدى أغاني «الأرواح» ؛ إذ يقول أحدها : «أنشق هناك النسيم العليل/ وسط

حدائق هسپيروس الجميلة/ ووسط بناته الثلاث اللاتي/ يغنين حول الشجرة الذهبية» (979-982) وترجع صفة الشجرة هنا (الذهبية) إلى القول بأن التفاح الذي كان ينمو على تلك الأشجار ذهبي اللون، والمعروف أن هسپيروس هو نجم المساء أو أول نجم يظهر بعد غياب الشمس، وهو الزُّهَرَةُ (ڤينوس) وأما سر التحول من المفرد إلى الجمع فَلُغَوِيٌّ محض، فالصفة من هسپيروس هي هسپيريد، فإذا جُمعت أصبحت تعني الحوريات اللاتي يَحْرُسْنَ التفاح الذهبي، ولكن الكلمة تستخدم استخدام الاسم المفرد في الإشارة إلى الحديقة (وقد تكون إحدى الحدائق الأسطورية أو إشارة باللفظ المفرد ليعني الجمع كقولك الجنة لتعني الجنان أو جنات عدن) ويرجع ذلك إلى أسطورة يشرحها فاولر قائلاً: كان من المعتاد قديمًا اعتبار سجنات إِلُوزْيُونَز (أي الفردوس) واقعة في جانب القمر المواجه للسماء والذي لا يراه سكان الأرض قط (وفق ما يرويه پلوتارخوس مثلاً في كتابه **الأخلاق**) وبعد ذلك جاء من يربط بين حدائق هسپيروس وهي التي يقول پليني إنها جزائرُ وسط المحيط، وبين الجنات العلوية القديمة. ويكثر الشراح والنقاد من دلالة أخذ ميلتون بهذا الربط الأسطوري، ولكنه لا يضيف إلى تفهم القصيدة أو تذوقها الكثير، والطريف أن شيكسبير كان قد سبق ميلتون إلى استخدام هذه الصورة في **خاب سعي العشاق** (*341/3/4*) وبالمعنى الأسطوري القديم وحده.

358-361 يذهب هيوز في دراسته عن تصوير المسيح في **عودة الفردوس** إلى أن هذه السطور تعتبر إقرارًا من ميلتون لما يدين به لقصص البحث عن الكأس المقدسة، خصوصًا قصة موت آرثر لمالوري، وهو الدَّيْن الذي يشير إليْهِ في كتابه الأول عن ميلتون. وأما پوپ فتربط بين قدرة المسيح على قهر الإغواء وبين منجزات فرسان العصور الخوالي. وتشير لوولسكي (ص *223-224*) إلى أن ضم الغيد الحسان إلى عناصر الغواية يعني عدول إبليس عن قراره السابق (227-225/2) كما

تقول إن من شأن هذا تأكيد التوازي بين المسيح وآدم لأن خطيئة آدم الخاصة كانت تكمن في الخضوع لتأثير المرأة خضوعًا يتجاوز الحد.

360- «لوجريا» (يكتبها ميلتون لوجريس) وتعني المنطقة الواقعة شرقي نهر سِفِرْن في إنجلترا وهو نهر ينبع من أواسط ويلز ويصب في قناة بريستول، كما يجري شمالَ لوجريا نهر هَمْبَرْ. وأما ليونيس فالمنطقة الواقعة بين آخر بقعة في الجزيرة البريطانية وبين جزائر سيلي، وهي التي يغطيها الماء حاليًا.

361- لانسلوت، وصفه مالوري في موت آرثر بأنه «رأس جميع الفرسان المسيحيين»، وكان عاشقًا للغادة جوينيڤير، وقد خدعته حسناء تدعى إلين فأسكرته وضاجعته بعد أن أدخلت في روعه أنها محبوبته جوينيڤير. وأما پيلياس فكان، حسبما جاء في بعض الأساطير الإنجليزية، أحد فرسان المائدة المستديرة الأربعة، وكان عاشقًا للفاتنة إيتاري. وأما پيلينور فكان ملك الجزائر البريطانية وهو الذي قتله سير جاوين آخر الأمر.

364- انظر الفردوس المفقود 4/162-163.

369- «فواكه محرمة»: الواضح أن ميلتون يستعيد الإشارة إلى إغواء حواء، وانظر الحاشية على 2/324.

381-386 انظر المزمور 78/19 «وقالوا: أيقدر الله أن يبسط لنا مائدةً في البرية؟» ويقول بعض النقاد إن في ذلك إلماحًا إلى مائدة العشاء الرباني، وتوافق لوولسكي على ذلك وتتوسع في شرحه في ص 218.

402-403 في هذين السطرين أصداء الإرشادات المسرحية في مسرحية العاصفة لشيكسبير (3/3/83) حيث يقول إن إيرييل يدخل في صورة طائر الهارپي، فيخفق بجناحيه على المنضدة، وبحيلة طريفة تختفي المائدة، وصدى لما تفعله طيور الهارپي في ملحمة الإنيادة (3/225-228) إذ تختطف طعام الطرواديين.

422- انظر رسائل هوراس 37-36/6/1 حيث يقول: «لا شك أن الأموالَ مَلِكَةٌ تُهْدِي صاحبها زوجةً ذات مهرٍ، ومكانةً وأصدقاءَ، وكرمَ مَحْتِدٍ وجمالاً».

424-423 يقول المؤرخ إن أنتيباطر كان ذا ثراء عظيم وأنه ارتفع إلى السلطة، ويؤكد أن السبب الرئيسي لفوز هيرود بحكم أرض اليهودية وَعْدُهُ بدفع المال إلى مارك أنطونيو.

427-426 يجد الشراح في هذين السطرين أصداء لملكة الجان (7/2) وسخرية هوراس من قدرة المال على اكتساب الشرف العظيم (الرسائل 53/1/1).

429- انظر سفر حجي 8/2 «فالذهب والفضة لي، يقول الرب القدير».

439- جِدْعُونُ كان رد جدعون حين أمره الله أن يقود بني إسرائيل لمحاربة المديانيين: «دعني أسألك يا سيدي: كيف أنقذ إسرائيل وعشيرتي هي أضعف عشائر سِبْطِ مَنَسَّى وأنا أقل أفراد عائلتي شأنًا؟» (قضاة 15/6). وتقول لوولسكي: (ص 252) إنه لا يرمز هنا إلى الفقر فقط بل لنبذ المسيح للمُلْك (وانظر قضاة 23/8) وأما «يفتاح» فكان بطل بني إسرائيل في التصدي للعمونيين، وكان قد طُرِدَ وحُرِمَ من الميراث في صباه (قضاة 11/2-3). وكان آباء الكنيسة الأوائل ومن تلاهم من المفسرين يرون أن تضحيته بابنته رمز لتضحية المسيح على الصليب. وترى لوولسكي (ص 253) أن ميلتون يشير إليْهِ تأكيدًا لما ينطوي عليه تولي الملك من تضحيات. وأما «الراعي الشاب» فهو داود، ونقرأ في المزمور 78 أن الله «أخذه من بين حظائر الغنم. من خلف النعاج المرضعة أتى به ليرعى يعقوب شعبه» (70-71).

443-449 يذهب هيوز في الدراسة المشار إليْها آنفًا (ص 267) إلى أن تاسو يقول في كتابه عن الشعر البطولي إنه إذا كان الشرف الأَرضي ينتمي قديمًا إلى كبار الرومان الأمجاد، فإن الروح البطولية عند هؤلاء الرجال لا تزيد عن كونها «ظِلاّ وصورة» للحب الرباني الذي أتى به المسيح إلى الدنيا.

446- **كوينتيوس**: هو لوكيوس كوينكتيوس كينكيناتوس، على نحو ما ورد في التراث الشفاهي والشعر الشعبي، وإن ثبت أنه كان فعلاً شخصية تاريخية حقيقية، إذ يروي الرواة أنه عندما حاصر مقاتلو قبائل الأَيْقُوِي مينوكيوس في عام 458 ق. م، عُيِّن كينكيناتوس دكتاتورًا (أي حاكمًا في حالة الطوارئ) وأرسل لإنقاذ المحاصرين، ونجح في هزيمة مقاتلي القبائل، ثم تنازل عن منصبه بعد خمسة عشر يومًا وعاد لممارسة الزراعة في أرضه وراء نهر التايبر. وأما **فابريكيوس** فهو جايوس فابريكيوس لوسكينوس، بطل الحرب مع پيروس، القنصل في عامي 282 و278 ق. م. وقد ترددت قصص كثيرة عن فقره، وتقشفه واستعصائه على الفساد، إذ رفض تقاضي أي رشوة من پيروس.. إلخ. وأما **كيوريوس** فهو مانيوس كيوريوس دينتاتوس. وله وقائع حربية كثيرة حاز النصر فيها. ومعظم القصص المتواترة عن استقامته وصلاحه وتقشفه مصدرها كاتو الذي كان يجله إلى حد اعتباره مثلاً أعلى. وأما **رجولوس** فهو ماركوس أتيليوس رجولوس. وقد أسره جيش قرطاجنة في الحرب البونية الأولى (290 ق. م) وأُرْسِلَ إلى روما حاملاً شروط الصلح، لكنه نصح روما برفضها وأصر على العودة إلى قرطاجنة بالرد، وتوفي في الأسر. وقد أصبحت قصة مقتله تحت وطأة التعذيب من الأساطير القومية، ويحتفي بها هوراس في **الأناشيد** 5/3، وإن كانت القصة كاذبة على الأرجح في رأي المحدثين. وكان القديس أوغسطين يربط ما بين رجولوس وكوينتيوس وفابريكيوس باعتبارهم مثلاً للفضيلة تتجاوز معظم المسيحيين.

466-468 انظر سفر **الأمثال** 32/16، وهي الآية التي يقتطفها ليوني إبريو (حسبما يقول هيوز في كتابه المشار إليه ص 271) في رسالته عن حوارات الحب والتي يحدد فيها الصورة الأفلاطونية الجديدة للبطل باعتباره الرجل الذي يستطيع أن يقهر نفسه، وحيث «تكف النوازع الحسية تمامًا عن زعزعة منطق الفضيلة».

481- يقول بعض الشراح إن ذلك قد يشير إلى قول سينيكا في ثيستيس (529): (*Habere regnum casus est*، *virtus dare*) أي إن امتلاكَ مملكةٍ قد يأتي مُصَادَفَةً، أما مَنْحُ المملكةِ فهو فَضِيلَةٌ.

483- «أكرم كثيرًا» : يقول هيوز في كتابه المشار إليْهِ آنفًا (ص 258-259) إن تصوير ميلتون للمسيح هنا يعني إضفاء الطابعِ المسيحي على المثل الأرسطي الأعلى للرجل الكريم، وهو كرم النفس الذي وُصِفَ من قبل برحابة النفس، ويحتج هيوز بما جاء في كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية من أن رفض المسيح للعالم في إنجيل متى 4 مثل على كرم النفس.



حواشي الكتاب الثالث

14- الأُورِيمُ والتُّمِيمُ: كان هذان حجرين كريمين يستخدمان في التنبؤ بالغيب. وتقول حاشيةَ كتاب الحياة الذي نَقَلْتُ منه الصيغة العربية: «اسْتُخْدِمَ الأوريمُ والتُّميمُ في العصر الإسرائيلي المبكر لمعرفة مشيئة الله ومعناهما الأنوار والكمالات».
ولكن بعض الباحثين المحدثين يقولون إن المهمة المنوطة بهذين الحجرين الكريمين غير محددة على وجه الدقة في أي سياق من السياقات الست التي يرد فيها ذكرهما في الكتاب المقدس والثقات الآخرون (مثل يوسفوس وفيلو) يقدمون أدلة متناقضة.
والآية التي يوجدان فيها في **سفر العدد** *21/28* تدل على أنهما كانا يستخدمان في معرفة الغيب، وفي **سفر الخروج** *30/28* على أنهما كانا على صدرة (صدار) هارون.
ويقول كيري إن أوريم تعني النور، والتميم تعني الحق، وأن المقصود بصيغة الجمع التوكيد.

30-25 انظر شيشرون الذي يقول «إننا لا نجد في العادة إلا في أعظم النفوس وأشد العبقريات بريقًا تلك الطموحات الدافعة إلى السلطة المدنية والعسكرية، وللقوة والمجد، فهي منبتها المعتاد».
ويشير كيري إلى ما يورده ميلتون في كتابه **الدفاع الثاني** من إشارة إلى «ذلك الذي يستطيع وحده أن يقهر أشد البشر امتيازًا.. ألا وهو المجد»، وقد سبق أن ذكر ميلتون ذلك في لبسيداس 70-72.

31- «بلغت سنك مرحلة النضج»: يقول **إنجيل لوقا** *23/3* إن تعميد المسيح حدث عندما بلغ الثلاثين أو نحو ذلك.

34-31 انتصر الإسكندر الأكبر في موقعة إيسوس (*333* ق.م) وهو في الثالثة والعشرين وكان في الخامسة والعشرين عندما نجح في موقعة أربيلا في الإطاحة

بالإمبراطورية الفارسية التي أنشأها قورش.

34-35 استطاع سكيپو طرد القرطاچنيين من إسپانيا وهو في السابعة والعشرين من عمره (207 ق. م). وكان في الثانية والثلاثين عندما حاز أكبر انتصاراته في زاما.

35-36 هذه مبالغة من إبليس؛ إذ كان پومپى في الأربعين عندما تغلب على مِثْرِيدَاتِيسْ (66 ق. م) وفي الخامسة والأربعين عندما قاد موكب نصره في روما.

39-42 يروي پلوتارخوس في سيرة حياة قيصر 3/11 كيف أن قيصر كان يقرأ في صباه قصص فتوحات الإسكندر وإذا به ينفجر باكيًا، ولما سئل عن السبب قال: «ألا تظن أنه مما يدعو للأسى أن يكون الإسكندر قد أصبح ملكًا على شعوب كثيرة، في حين أنني لم أحرز أي نجاح باهر؟».

47-51 انظر ما يقوله سينيكا في رسائله 17/102: «يختلف الذيوع عن المجد فيما يلي: المجد يعتمد على أحكام الكثرة، ولكن الذيوع يعتمد حكم الأخيار»، كما يقول شيشرون في مجادلاته 36/5 فلا ينبغي طلب المجد «الشعبي» لذاته أو الخوف من عدم تمجيد العامة... هل ثَمَّ ما يزيد حمقًا عن افتراض أن الذين يحتقرهم المرء بصفتهم الفردية باعتبارهم صُنَّاعًا أميين، يتمتعون بأفكار عن القيمة بصفتهم الجماعية؟ ولابد للحكيم... أن ينبذ أشكال الامتياز التي يُضْفيها العامة». والباحثون يتبارون في رصد أصول الفكرة عند ميلتون في كتابات معاصريه، وهو ما لا يهم القارئ العربي؛ ولكن هيوز يقول في كتابه المشار إليْهِ آنفًا (ص 260) إنه عثر في كتاب وضعه ألساندرو پيكولوميني (الذي سبق ميلتون بنحو قرن كامل ما يبشر بما يصوره ميلتون عند المسيح من عناصر «أرستوقراطية» في نبذ الرجل الكريم النفس بالمعنى الأرسطي للدنيا، ويقول إن التصوير المذكور مبالغ فيه.

56 - يقول كيري إن هذه الفكرة تُرْجِعُ صدى قول چونسون، الشاعر المسرحي إن ذَمَّ الأرذال للمرء أكبرُ وأَكملُ امتداحٍ له، وچونسون نفسه يُرْجع صدى



سينيكا: (*Malis displicere laudari est*) أي (ذم الأرذال مديح) وهو ما يذكرنا فورًا بقول المتنبي: وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي من ناقصٍ/ فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ.

67- انظر **سفر أيوب** 8/1 «فقال الرب للشيطان: «هل راقبت عبدي أيوب، فإنه لا نظير له في الأرض، فهو رجل كامل صالح يتقي الله ويحيد عن الشر» .

81- «بألقاب الأرباب» كان مجلس الشيوخ الروماني يضفي على أباطرة الرومان لقب «الرباني» وانظر **أعمال الرسل** 12/21-22 «ارتدى هيرودس ثوبه الملوكي وجلس على عرشه يخاطبهم. فهتف الشعب قائلين: «هذا صوت ملاك لا صوت إنسان!» .

82- «المحسنين» : انظر **إنجيل لوقا** 22/25 «إن ملوك الأمم يسودونهم وأصحاب السلطة عندهم يُدْعَوْنَ محسنين» .

84- زُعم أن الإسكندر كان ابنًا لچوپيتر آمون، وسكيپو ابنًا لچوپيتر كاپيتولينوس. (انظر **الفردوس المفقود** 9/508-510) وقيل إن رومولوس ابن مارس.

86- «رذائل حيوانية» : كان الإسكندر مدمنًا للخمر وكثيرًا ما قيل إن وفاته المبكرة في عام 323 ق. م نجمت عن تلك الرذيلة.

91-92 «الحكمة. . الصبر وضبط النفس»: انظر **رسالة بطرس الثانية** 1/6: «واقرنوا. . . المعرفة بضبط النفس، وضبط النفس بالصبر» .

98- «ظلمًا» أدين سقراط بتهمة إفساد الشباب والافتراء على آلهة الدولة. وكان يستطيع بسهولة أن يهرب، ولكنه فضل الموت على أن يسلك سلوكًا غير قانوني (وأسبابه يسجلها أفلاطون في أحد أعماله). تقول لوولسكي (ص 240) مقتبسة قولاً لأحد القدماء، إن كلمات المسيح يكمن خلفها تراث طويل من التفاسير التي كانت ترى في وفاة سقراط في سبيل الحق تبشيرًا بموت المسيح في سبيله، وترى في تعاليم سقراط تبشيرًا بمذهب المسيح.

101- «بطل إفريقيا الشاب» هو سكيپو الذي رست سفنه على ساحل إفريقيا في عام 204 ق. م وأرغم القرطاچينيين على استدعاء هانيبال من إيطاليا.

107-106 «لا مجد نفسي بل مجد/ الذي أرسلني» انظر إنجيل يوحنا 18/7 «من يتكلم من عنده يطلب المجد لنفسه، أما الذي يطلب المجد لمن أرسله فهو صادق لا إثم فيه» و50/8 «أنا لا أطلب مجد نفسي».

111- «في سبيل مجده خلق كل الأشياء»: انظر سفر الرؤيا 11/4 حيث يجثو الشيوخ كلهم أمام «الجالس على العرش» وهم يهتفون «مستحق أنت يا ربنا وإلهنا المجد والإجلال والقدرة، لأنك خلقت الأشياء كلها وهي بإرادتك كائنة وقد خلقت».

140- «يتمرد» لا يزيد معنى التمرد الذي يقصده ميلتون عما يشرحه في بقية الجملة؛ أي أن ينسب المخلوق لنفسه ما ينتمي للخالق وحده.

154- «فهو أبوك من ناحية والدتك»: نسب المسيح مذكور في العهد الجديد (إنجيل متى 1/1-16وإنجيل لوقا 23/3-38) ووفقًا لسلسلة النسب يرجع إلى يوسف ومنه إلى داود وحتى «آدم ابن الله» (لوقا 38/3). ويشار إلى داود باعتباره أبا المسيح (أي سلفه أو جده الأكبر) في لوقا 32/1 وكثيرًا ما يخاطب المسيح بعبارة «ابن داود» في الأناجيل (انظر سفر الرؤيا 16/22 «أنا يسوع.. أصل داود ونسله»). ولا يُزعمُ في الأناجيل أن مريم كانت من آل داود، وإن شاع افتراض ذلك في القرن السابع عشر، وعلى أية حال فلم تكن الشريعة اليهودية تعترف بالنسب المنحدر من الأم، ومن ثم فإن قول إبليس «من ناحية والدتك» يتضمن الاستخفاف، وهو يوحي بأنه ليس ابن يوسف، وإذن فربما لم ينحدر من نسل داود.

160-157 كان حاكم سوريا الروماني كويرينيوس قد ضم أرض اليهودية إلى سوريا عام 6 للميلاد، ثم أمر طيباريوس (24-37 للميلاد) بإبقاء بيلاطس حاكمًا عليها من 25-36 على الرغم من شتى الأدلة على طغيانه (انظر إنجيل لوقا 1/13

«أهل الجليل الذين قتلهم بيلاطس فخلط دماءهم بدماء ذبائحهم»).
ويحكي المؤرخ يوسفوس كيف أن بيلاطس أمر جنوده أن يَنْدَسُّوا وسط الحشد في أورشليم متنكرين في أزياء اليهود، وعندما بدأ أفراد الحشد يشتمون الجنود «انقض أولئك عليهم بغلظة تفوق ما كان بيلاطس قد أمر به» فقتلوا الكثيرين ممن لم يشاركوا في الشتم إلى جانب الشاتمين.

160- «فكثيرًا» : هذه مبالغة من إبليس، وإن كان پومپى قد انتهك حرمة قدس الأقداس في أورشليم عام 63 ق.م.

163- «أنطيوكوس» في عام 169 ق.م. سرق أنطيوكوس اپيفانيس جميع الآنية المقدسة من الهيكل، والمذبح، والشمعدانات وغيرها، ونزع الواجهة الذهبية للمبني، وأرغم اليهود على بناء معابد للأصنام وتدنيس الهيكل بتقديم قرابين من الخنازير والحيوانات النجسة. ويروي يوسفوس ما حدث بالتفصيل فيما سجله في تاريخه.

170-165 بدأت المقاومة الوطنية لأنطيوكوس عام 166 ق.م. في مدينة مودين المغمورة، وكان يقودها يهوذا ماكابيوس، اللاوي، الذي أدى كفاحه البطولي ضد أنطيوكوس إلى إنشاء أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الأسمونية. وتقول لوولسكي (ص 262) إن الشروح والتفاسير التقليدية للكتاب المقدس تعتبر أن هزيمة يهوذا لأنطيوكوس ترمز إلى انتصار المسيح على المسيخ الدجّال.

173- «فرصة سانحة والإمساك بناصيتها» كان التصوير التقليدي للفرصة يقول إن لها ناصية (شعر في مقدم الرأس) ولا شعر سوى ذلك في رأسها.

175- «الغيرة على بيت والدك» كان تلاميذ المسيح يعتبرون طرده للصيارفة من الهيكل (إنجيل يوحنا 17/2) تحقيقًا للنبوءة الواردة في المزمور 9/69 «لأن الغيرة على بيتك التهمتني».

178- «الأبدي» انظر إشعياء 7/9 «ولا تكون نهاية لنمو رياسته وللسلام» .

183- «لكل شيء أوان» : انظر سفر الجامعة 1/3 «لكل شيء أوان، ولكل أمر تحت السماء زمان» .

187- انظر أعمال الرسل 7/1 «ليس لكم أن تعرفوا المواعيد والأوقات التي حددها الأب بسلطته» .

194-196 «وأفضل الحكام . . يحسن الطاعة» انظر إنجيل متى 26/20-27 «من أراد أن يصير عظيمًا بينكم، فليكن لكم خادمًا، وأي من أراد أن يصير أولاً فيكم، فليكن لكم عبدًا» . ويورد الشراح نماذج كثيرة من الآداب الكلاسيكية على الشعار الذي يقول إن أخلص الخدم في الطاعة أفضلهم للرياسة، من أفلاطون وأرسطو وشيشرون وسينيكا .

204-222 يستشهد أرنولد ستاين في دراسة نشرها في إحدى الدوريات بهذه الأبيات التي تمثل في نظره «نموذجًا رائعًا للفن الدرامي» زاعمًا أن اللغة والإيقاع يكشفان عما يسميه انتصار «الذات الحقيقية» لإبليس على «ذاته الدرامية» . ويقول إن إبليس على استعداد «لتحويل الضعف إلى قوة» ، ولخلق دراما جديدة، وبطل جديد يصبح مُخَلِّصًا لإبليس، وإن «لم يقدم في الواقع أي عرض جديد بل ولم يتوقف ليسمح بتقديم عرض مضاد» ، ويؤكد أن ذلك يدحض قول من يزعم أن الحديث كله لا يزيد عن كونه حيلة من حيل إبليس، أو موقفًا تمثيليّا يُضْطَرُّ إليْهِ حين تفشل سفسطته . ولكن لوولسكي (ص 258) تفسر الحديث باعتباره مجرد بناء بلاغي بارع الصوغ، يحاول فيه إبليس إفساد المسيح بحثه على الإسراع ببناء مملكته الخاصة (انظر 3/223-224) .

221-222 يقول فراي إن الأبيات 3/385-386 في الفردوس المفقود تبين أن هذا هو النقيض المباشر لطبيعة المسيح الحقة، ولكن انظر إشعياء 25/4-5



«لأنك كنت . . ظلا تقي وهج الحر . . تطفئ الحر . . كما تبرد الحر بظل سحابة» .

234- «مرة واحدة في السنة» انظر إنجيل لوقا 41/2 «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح» .

242- «الذي خرج . . . فعثر على مملكة» المقصود شاؤل. انظر سفر صموئيل الأول (11-1/9) حيث يفقد قَيْسُ والد شاؤل بعض حُمُرِهِ ويرسل ابنه للبحث عنها، فيقابل شاؤل صموئيلَ الذي كان تلقى نبأ من الله قبل المقابلة، ويمسح على رأس شاؤل بالزيت المقدس مرددًا هذه الكلمات «ألم يمسحك الرب رئيسًا على ميراثه؟» ويتبدى تواضع شاؤل الساذج في رَدِّهِ على ذلك (21/9). وترى لوولسكي (ص 265) أن إبليس يوحي ضمنًا بأن المسيح، إذا كان ساذجًا مثل شاؤل، قد يعصي الله فيلفظه الله آخر الأمر.

249- «أسرار الملك ومهاراته» كانت الكلمة الإنجليزية (*mystery*) تعني إما السر أو المهارة في القرن السابع عشر، وعلى النقيض من ذلك ورودها بمعنى السر فقط في إنجيل متى 11/13: «أُعْطِيَ لكم أن تعرفوا أسرار السماوات» .

252- «جبل سامق» : انظر إنجيل متى 8/4 «جبل عال جدًا» وإنجيل لوقا 5/4 «جبل عال» . وإذا كان الكتاب المقدس لا يحدد اسم الجبل فإن المفسرين اعتادوا افتراض أنه جبل كوارانتانيا، في سهل أريحا. ويقول كيري : يحتمل أن ميلتون كان يقصد جبل نيفاطيس، مادام قد جعل إبليس يهبط فوقه في الفردوس المفقود 742/3، مبينًا بالأدلة القاطعة أنه الجبل الذي ذكره الجغرافي القديم سترابو، ومستشهدًا بما جاء في وصفه للجبل وبأقوال الآخرين، وما دام يفسر قول ميلتون إن نهرين ينبعان من جانبه، وهما دجلة والفرات.

256- يؤكد هذا الوصف أن النهرين هما دجلة والفرات .

257- يقصد ميلتون بالسهل الجميل بلاد ما بين النهرين.

258- يلتقي دجلة والفرات في شط العرب قبل أن يصبا في الخليج العربي.

273-270 يقف المسيح وإبليس على قمة نيفاطيس، وهو الذي يمثل طرف قرن هائل من الأرض (يمثل الإمبراطورية الأشورية في ذروة اتساعها وجبروتها، في الفترة 722-636 ق. م. تقريبًا). ويتسع القرن وينحرف جنوبًا وشرقًا، حتى نهر الإندوس، وهو النهر العظيم الذي يصب في بحر العرب.

279-275 «نِينَوَى» كانت العاصمة الكبرى لآشور (انظر سفر يونان «وكانت نينوى مدينة بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام» 3/3) وكانت تقع عند قمة قرن الأرض الذي يتطلع إليْهِ المسيح وإبليس، على مبعدة 400 كيلو متر تقريبًا إلى الجنوب الشرقي من نيفاطيس. وكان نينوس هو الذي أنشأها وسُمِّيَتْ باسمه. وعندما فتح شَلْمَنْأَسَرُ أرضَ السامرة أسر قبائل بني إسرائيل العشر المقيمة في شمال المنطقة ونقلهم في الأسر في نحو عام 722 ق. م. ثم، كما يقول الكتاب المقدس «أسكنهم في مدينة حَلَحَ، وعلى ضفاف نهر خابور في منطقة جوزان، وفي مدن مادي» (ملوك الثاني 6/17).

283-280 كانت مدينة بابل تقع على ضفاف نهر الفرات وتبعد قرابة ألف كيلو متر عن جبل نيفاطيس، وكان قد بناها بيلوس والد نينوس وسميراميس (زوجة نينوس) أصلاً، ثم أعاد بناءها نَبُوخُذ نُصَّر اعتبارًا من عام 604 ق. م. (انظر سفر دانيال 30/4) وبعدها أصبحت إحدى عجائب العالم القديم. وقد أقدم هذا الملك على سلب أورشليم ونهبها وأسر سكانها، مرة في ظل حكم يَهُويَاقِيمَ (نحو 596 ق. م.) ومرة أخرى عام 586 في عهد صِدْقِيَّا (ملوك الثاني 13/24-15، 11/25 وأخبار الأيام الثاني 6/36-20). ويقول أحد النقاد إن عبارة «أعجوبة الألسنة جميعًا» تتضمن تورية، ما دام ميلتون في الفردوس المفقود 342/12-343، يوحي بأن بابل المذكورة هي التي ورد اسمها في سفر التكوين.

284-287 كان قورش مؤسس الإمبراطورية الفارسية، وأعلن الوحدة بين المِيدِيِّينَ والفُرْس عندما استولى على مدينة إكباتانا، عاصمة ميديا، وكانت تقع على بعد ما يقرب من 400 كيلو متر (جنوب شرقي جبل نيفاطيس) من مدينة نينوى. وفي عام 538 ق.م. استولى على بابل وحرر بني إسرائيل من سلطان بَيْلْشَاصَّرَ، (سفر دانيال 5، وعزرا 1/1-8). وكانت عاصمته الصيفية پرسيپوليس تقع في جنوب بلاد الفرس، وكانت بِكْتِرَا عاصمة بِكْتريا، إحدى المقاطعات الفارسية آنذاك وهي التي تسمى الآن بلخ في أفغانستان. ومدينة هيكاتومپيلوس تعني، أو يعني اسمها حرفيًا «مائة باب»، وكانت مدينة في پارثيا، وإن لم يستطع الباحثون تحديد موقعها على وجه الدقة.

288-289 كانت مدينة شوشان أو سوسة بمثابة مقر صيفي لملوك الفرس، وكانت تقع على ضفاف نهر خواسپيس. والناظر من جبل نيفاطيس يراها واقعة في نفس اتجاه پرسيپوليس، وإن كانت أقرب منها بنحو 480 كيلو مترًا.

291-292 سلوقيا، كانت مدينة أنشأها سلوقوس نيكاتور، أحد قادة جيش الإسكندر بعد وفاته، وكانت تقع على ضفاف نهر دجلة بالقرب من بغداد الحالية، وكانت توصف بأنها العظيمة تمييزًا لها على المنشآت السلوقية الأخرى. ومدينة نيسبيس كانت تقع على أحد روافد الفرات، فيما بين النهرين، على مبعدة نحو 160 كيلو مترًا من جبل نيفاطيس. ومدينة أرتخانا كانت عاصمة أرمينيا القديمة. ومدينة تيريدون بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات، ومدينة ستيسيفون على الشاطئ الشرقي لدجلة في مواجهة سلوقيا، وكانت عاصمة لپارثيا زمنًا طويلاً.

294-297 في نحو عام 250 ق.م. قام الملك أرساكيس بغزو پارثيا، التي كانت آنذاك ولاية من ولايات الإمبراطورية السلوقية، وكانت عاصمتها في أنطاكية على نهر أورونتس. ونجح الملك سلوقوس الثاني في طرده، في نحو عام 238، ولكن

أخاه تيريداتيس أطلق على نفسه اسم أرساكيس وأعاد احتلال پارثيا وأسس الأسرة المالكة الأرساكية.

302-301 كان الإسقيثيون هم «البرابرة» الذين كانوا يعيشون في شمال شرقي بحر قزوين وكانت أقرب المقاطعات الپارثية لهم مقاطعة سوجديانا الواقعة على نهر أوكسوس الذي يصب في بحر آرال.

340-311 يعتمد ميلتون في هذه الفقرة على أحد كتب التاريخ الذي وضعه مؤرخ رومانى يدعى أميانوس ماركيلينوس ويذكر فيه هذه التفاصيل بدقة. ويقول الشراح إن ميلتون اطلع على مضمون ذلك الكتاب في مقالات الكاتب الفرنسي مونتانْيْ وهو الذي يسهب في النقل والشرح من المؤرخ الروماني المشار إليْهِ، والمعروف أن الترجمة الإنجليزية لمقالات مونتانْيْ كان قد قام بها فلوريو في مطلع القرن السادس عشر.

321-316 عناصر «القرن العظيم» من الأراضي التي يشهدها المسيح ترد أسماؤها بترتيب عكس اتجاه عقارب الساعة؛ إذ تبدأ في الجنوب الشرقي حيث أراخوسيا، وهي مقاطعة في غرب نهر الإندوس، في بلوخستان الحديثة، ثم ننتقل شمالاً إلى كاندؤور في أفغانستان، ثم غربًا إلى مارچيانا (خراسان الحديثة) وهرقانيا التي تقع غربًا على مسافة أبعد، ثم إيبريا، وهي منطقة في القوقاز تقع غربي بحر قزوين وشمال نهر أراكسيس، وننتقل غربًا بعد ذلك عبر هذا النهر إلى أتروپاتيا، وهي المقاطعة الشمالية لميديا، وأخيرًا إلى أقصى الغرب حيث أديابيني وهو أحد السهول المحيطة بنينوى: فإذا غيرنا الاتجاه جنوبًا من جبل نيفاطيس صادفنا مقاطعة في أقصى جنوب پارثيا وهي سوسيانا المتاخمة للخليج العربي، وبلسارا وهي ميناء على شط العرب تحولت إلى مدينة البصرة الحديثة. ويقول النقاد إن فكرة المجاورة بين القوقاز وهرقانيا قد تكون مستوحاة من **الإنيادة** *367-365/4*.





326- يقول أحد الشراح إن الصورة مستقاة من يوريبيديس، ويقول آخر إنها مستقاة من وصف پلوتارخوس للجيش الپارثي في سيرة حياة كراسوس 24.

327- صورة «سحائب من جنود المشاة» واردة في الإنيادة 793/7 (nimbus peditum)

337-343 يحكي بوياردو في أورلاندو العاشق 1/10-14 أن أجريكان، ملك بلاد التتار، يأتي بجيش قوامه 2200000 إلى ألبراكا، القلعة التي يتحصن فيها جالافرون ملك الصين ووالد أنجليكا التي يعشقها أجريكان.

359- «سامري أو يهودي» : لم يكن اليهود في أرض اليهود والجليل يعتبرون السامريين من اليهود الخالصين (الأنقياء) لأن السامرة كانت قد خضعت لاستعمار شعوب أجنبية. وهكذا «فإن اليهود كانوا لا يتعاملون مع أهل السامرة» (إنجيل يوحنا 9/4).

366-367 كلام إبليس يفتقر إلى الدقة، فإن الپارثيين كانوا حلفاء أنتيجونوس، واستطاع بمساعدتهم اجتياح أرض اليهودية والاستيلاء على أورشليم. وأسر عمه، هرقانوس الثاني الذي كان في السبعين من عمره، كما أسر فاسايلوس، أخا هيرود، وقتل الأخير وقطع أذني الأول حتى يجعله غير صالح لشغل منصب الكاهن، ثم نقله إلى سلوقيا. وبعد أن ظل أنتيجونوس حاكما لمدة ثلاث سنوات هزمه هيرود وأسره، بعد أن قدم رشوة لأنطونيو حتى يأمر بإعدامه (37 ق.م). وهذه الأحداث يرويها المؤرخ يوسفوس.

374-376 انظر الحاشية على 275-279 أعلاه. كان خابور رافدًا من روافد الفرات، وكانت البقعة المحيطة به، جوزان، خاضعة لسلطة پارثيا في زمن المسيح. ولم تكن تبعد عن جبل نيفاطيس إلا بنحو 240 كيلو مترًا من جهة الجنوب؛ أي إنها كانت أقرب المناطق التي سبق لإبليس أن ذكرها.

377- كانت من بين القبائل العشر قبيلتا إِفْرَايِمْ ومَنَسَّى محاكاةً لاسمي ابني يوسف.

384- «من مصر إلى الفرات» انظر سفر التكوين 18/15 حيث يعقد الله ميثاقًا مع إبراهيم بأن يعطي ذريته «هذه الأرضَ من وادي العريشِ إلى النهر الكبير، نهر الفرات» . وانظر أيضًا ملوك الأول 21/4 «وامتد سلطان سليمان على جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات إلى أرض الفلسطينيين وحتى تخوم مصر» .

387- انظر أخبار الأيام الثاني 8/32 : «معه قوى بشرية، ومعنا الرب إلهنا لينجدنا ويحارب حروبنا» وانظر أيضًا إرميا 5/17 : «ليكنْ ملعونًا كل من يتوكل على بشر، ويتخذ من الناس ذراع قوة له» . وأما عبارة ميلتون فَتُرْجِعُ صدى عبارة وردت في **ملكة الجان** (27/4/3) لسبنسر .

397-396 «وقتي لم يحن بعد» انظر إنجيل يوحنا 6/7 «ما حان وقتي بعد» وهي الإجابة التي قدمها يسوع لإخوته عندما أخبروه بأن يعلن عن نفسه للعالم.

412-409 إنظر أخبار الأيام الأول 14-1/21 «وتآمر الشيطان ضد إسرائيل، فأغرى داود بإحصاء الشعب. . . وإذْ كان هذا الإحصاء ممقوتًا في عيني الله، عاقب الله الإسرائيليين. . . فأرسل الرب وباءً تفشى في أرض إسرائيل مات فيه سبعون ألف رجل» .

419-414 قام يربعام بتقسيم القبائل الشمالية المنحدرة من يهوذا وبنيامين وأسس مملكة السامرة، ثم سبك عجلين من الذهب وأقامهما في بيت إيل وفي دان، محاكاة للعجلين اللذين كان المصريون يعبدونهما وقال «ها هي آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من ديار مصر» (ملوك الأول 33-25/12) وبني أخآب مذبحًا لبعل، وتزوج إيزابل، الأميرة الصيدونية (ملوك الأول 32-31/16) والمعروف أن عشتورث، ربة القمر، كانت تُعْتَبَرُ ڤينوسَ الصيدونية! وصيغة عشتروث الشائعة هي

جمع عشتورت المفرد.



419- «تزيد سوءًا عن الوثنية» كانت عبادة بعل تتضمن تقديم أضحية بشرية (انظر سفر إرميا 5/19).

425- «الختان الباطل» انظر الرسالة إلى مؤمني روما 25/2 «ولكن إن كنت مخالفًا للشريعة فقد صار ختانك كأنه عدم ختان».

431-432 انظر إرميا 19/5 «كما أنكم تَخَلَّيْتُمْ عني وعَبَدْتُم الأوثان الغريبة في أرضكم، كذلك تُسْتَعْبَدُونَ للغرباء في أرض ليست لكم».

436- «النهر الأشوري» هو الفرات. انظر نبوءة أشعياء في سفر أشعياء 11/15-16 «ويجفف الرب تمامًا لسان بحر مصر، ويهز يده على النهر فتهب ريح عاصفة تقسم ماءه إلى سبع ممرات تعبر فيها الجيوش، ويمد الرب طريقًا من آشور ليعود منه من بقي هناك من بني إسرائيل، كما أعاد الرب جميع إسرائيل من مصر».

438- قصة شق البحر الأحمر واردة في سفر الخروج 21-22، وقصة شق نهر الأردن في يشوع 3/14-17.

حواشي الكتاب الرابع

17-15 التشبيه بالذباب يوحي بالتأثر بالصورة نفسها في **الإلياذة** *641/16*، أو بما جاء في غضبة أورلاندو لأريوسطو *109/14*، ويقول أرنولد ستاين في مقال له نشره عام *1956* إن صورة النبيذ «رمز يستبق استباقًا رائعًا الدور الكهنوتي الذي لم يبدأه المسيح بعد».

20-18 صورة الصخرة توحي بالتأثر بالصورة نفسها في **الإلياذة** *618/15 - 622*، وفي **الإنيادة** *590-586/7*.

27- «سهل آخر» المقصود سهل «لاتيوم» في وسط إيطاليا، وهو الذي يقع في جنوب وغرب جبال الأپنين، وهي التي تقيه شر عواصف الشمال، وفي وسط هذا السهل تقع روما ونهر التايبر. ويشير أحد الباحثين إلى ارتباط منظر روما الپانورامى وجبروتها بالتقاليد الأدبية التي تعتبر روما مدينة خالدة (*urbs aeterna*). والمعروف أنه قد بذلت محاولات مسيحية امتدت من أوغسطين ولاكتانتوس وتيرتوليان وپرودنتيوس إلى دانتي وغيره لما يسميه كيري «الاستيلاء» على هذه التقاليد الأدبية وتحويل المدينة الخالدة إلى مدينة مقدسة (*urbs sacra*) والواضح أن الرفض القاطع والتأنيب الصارم لإبليس من جانب المسيح (*151-147/4*) يعتبر لَفْظًا جوهريًا لهذا الحل الوسط.

40- اختلاف المنظر من زاوية لزاوية ظاهرة بصرية تسمى بارلاكس (*parallax*).

42- «أسئلة جديرة بأن تطرح»: تقول پوپ (ص *114-112*) إن كثيرًا من الشراح طرحوا فعلاً هذه الأسئلة، والتفسير «التليسكوبي» الذي يقدمه ميلتون (*57-56/4*) لم يكن أول من ابتدعه؛ إذ سبقه آخرون. وقد شاعت نظرية أخرى تقول إن هذه الممالك كانت بمثابة السراب أو الرؤى الوهمية.

49- الصخرة الطربية: كانت أعلى قمة من قمم تل الكابيتولين.

51-50 «جبل بلاتين/ القصر الإمبراطوري» كان القصر الإمبراطوري قد اتسع حتى شمل تدريجيًا جانبًا كبيرًا من جبل بالاتين، ولم يبق منه الآن إلا أطلال قصر دوميتيان، التي تقع في منتصفه، وأما القصر الأول للإمبراطور أوغسطس (الذي يعرضه إبليس الآن على المسيح) فقد كان أشد تواضعًا بكثير.

57- «الميكروسكوب الهوائى»: عرفت إنجلترا استعمال الميكروسكوب ما بين عامي 1625 و1660، دون أن يشيع استعماله حتى بعد ذلك التاريخ، وتقول باحثة إن فقدان ميلتون البصر جعله يخطئ في فهم طبيعة عمله، فهو يتصور أنه يكشف عن الداخل والخارج (أو الظاهر والباطن) معًا.

63- «القضاة» كان النظام الإمبراطوري ينص على تعيين 16 قاضيًا كبيرًا ويسمح لكل منهم بعد انتهاء فترة منصبه في روما بالتعيين حاكما على أحد الأقاليم لمدة عام واحد، مثل القناصل.

65- «الحُجَّابُ» كانوا من الأتباع الذين يصاحبون وجهاء الرومان حاملين القضبان التي ترمز للسلطة التي يتمتع بها «الوجيه» وقدرته على معاقبة المجرمين.

69-68 «أبيا.. إيميليا»: كان طريق أبيا هو الطريق الذي شقه أبيوس كلوديوس عام 312 ق.م. وهو الطريق الرئيسي الذي يتجه جنوبًا ليربط ما بين روما وبريينديزي. وأما طريق إيميليا فهو الامتداد الشمالي لطريق فلامينيا، ويستمر حتى أكويليا على ساحل البحر الأدرياتي.

70-69 كانت مدينة أسوان المصرية تعتبر آخر الحدود التي يمتد إليها نفوذ الإمبراطورية الرومانية.

71-70 «حيث تلقي الأشياء ظلالها شمالاً وجنوبًا، في جزيرة ميرو» يقول پليني في تاريخه إن هذه جزيرة وسط النيل تقع جنوبي أسوان، وإنها عاصمة

النوبة، وإن الظلال تختفي فيها مرتين في السنة، ثم يمضي للحديث عن جبل يدعى ماليوس تسكنه إحدى قبائل الهنود، حيث تلقي الأشياء ظلالا جنوبًا في الصيف وشمالاً في الشتاء، ويعلق أحد الباحثين قائلاً إن ميلتون تصور أن الوصف الوارد في العبارة الثانية ينطبق على جزيرة ميرو.

72- «مملكة بوخوس» : المقصود موريتانيا. وبحر المغاربة السود هو جانب البحر المتوسط الذي تطل عليه موريتانيا.

74- «شبه جزيرة الملايو العامرة بالذهب» : كانت شبه جزيرة الملايو توصف بأنها ذهبية للتمييز بينها وبين الأخرى الواقعة في جبال طوروس؛ أي شبه جزيرة القرم. ويقول يوسفوس المؤرخ القديم إنها كانت تسمى من قبل أوفير، وإن سليمان أرسل أسطولاً إليها ليعود بالذهب.

77- «بلاد الغال»؛ أي فرنسا.

78- «الإسقيثيين» انظر الحاشية على *302-301/3*. وميلتون يشير إلى برابرة الشمال باسم: السرمطيون، وكانوا يقيمون في المناطق التي تشغلها بولندا حاليًا والمنطقة الروسية غربي نهر الڤولجا.

79- «بحر آزوف» وميلتون يسميه: البِرْكَةَ الطُّورُوسِيَّةُ.

94-90 تقاعَدَ طيباريوس (*42* ق. م. - *37* م) عن ممارسة الحكم رسميًا في عام *26* م. واستقر بعد عام في جزيرة كاپرى، وقد اجتذبه للإقامة فيها، حسبما يروى المؤرخون، كونها حصينة، ويجمع المؤرخون على أنه تدهور حين تقدم به العمر ويسهبون في وصف ذلك.

95- «رجل خبيث» المقصود سيچانوس؛ إذ فَقَدَ طيباريوس الثقة فيه وقام أخيرًا بإبلاغ مجلس الشيوخ بشكوكه فأصدر مجلس الشيوخ حكمًا بإعدامه عام *31* م.

103 - *104* انظر إنجيل لوقا (*6/4*) «وقال الشيطان له: «أعطيك السلطة على هذه

الممالك وما فيها من عظمة، فإنها قد سُلِّمَتْ لي وأنا أعطيها لمن أشاء».

115- «خشب أشجار الليمون» كان خشب أشجار الليمون والموالح الإفريقية مُفَضَّلاً لدى أثرياء الرومان وتُصْنَعُ منه أسطحُ المناضد. و«رخام جبل أطلس» أرجح تفسير لتعبير الشاعر «الأحجار الأطلسية».

117- «سيتزا» يكتبها ميلتون سيتيا، وهي قريبة من روما، ويذكرها مارتيال بسبب شهرة أنبذتها، وكانت كاليس، وبساتين الكرم في فاليرني، في منطقة كامپانيا بالقرب من جبل ڤيزوڤيوس.

118- كانت خيوس جزيرة بالقرب من ساحل اليونان، وموردًا للأنبذة اليونانية الحلوة الغالية الثمن.

119- «كؤوس بلورية ومن خشب المر» يسهب الشراح في وصف مصادر الصورة عند پليني وغيره.

130- «ضميره»: يقول المؤرخ تاكيتوس إن طيباريوس كتب إلى مجلس الشيوخ يقول: «ليت جميع الأرباب والربات يتولون إهلاكي هلاكًا أشد إيلامًا من الهلاك الذي أحس به يدب في نفسي كل يوم، إذا كنت أعرف في هذه اللحظة ما عساي أن أكتبه لكم». ويعلق المؤرخ على ذلك قائلاً: «لم تنقذ طيباريوس رفعته أو عزلته من اضطراره إلى الاعتراف بالكرب واللوعة في قلبه».

133- «ما يستحقه من الاستعباد» كان ميلتون يؤمن بأن الذين تستعبدهم شهواتهم يستحقون أن يُستعبدوا سياسيّا وكثيرًا ما سمحوا لأنفسهم بذلك الاستعباد. ويتوسع الباحثون في إيراد الأدلة على إيثاره لهذه الفكرة.

150-147 يرى المسيح نفسه هنا (وعلى نحو ما تقول لوولسكي - ص 279 - كان المفسرون المسيحيون يرونه حتى عصر ميلتون) باعتباره تحقيق اثنتين من رؤى دانيال *12-10/4*، و*35-31/2*: حلم نُبُوخَذْ نَصَّر الذي رأى فيه شجرة «وقد نمت وقويت حتى





بلغ ارتفاعها السماء، وبدت للعيان حتى أطراف الأرض» وحلمه بحجر حطم التمثال الحديدي للممالك «ثم تحول إلى جبل كبير وملأ الأرض كلها».

151- انظر إنجيل لوقا 33/1 «ولن يكونَ لمُلْكِه نهاية».

164- الواضح، كما تقول پوپ (ص 67)، أن ميلتون لا يشير إلى مجد أثينا بصفته إحدى الهدايا التي يعرضها إبليس أو باعتباره إحدى الممالك التي يستطيع إبليس شخصيًا تقديمها إلى المسيح، ولكنه يعرض هذه الصفقة في ختام الإغواء بروما. وعلى الرغم من انتقادات ميلتون اللاذعة للفلسفة والأدب الكلاسيكيين فإنه لا يوحي بأنهما يخضعان لسيطرة إبليس المباشرة.

165-167 انظر إنجيل متى 9/4 «أعطيك هذه كلها إن جثوت وسجدت لي». ويقول أرنولد ستاين إن إبليس لا يتوقع فعلاً أن يقبل المسيح ما يعرضه حين يسمع ذلك الشرط، فالمقصود هو التأكد وحسب من شخصية المسيح. وتقول لوولسكي إن إبليس قد ساءه استخفاف المسيح بما يعرضه عليه فأراد إثبات قيمته بتحديد ثمن باهظ له (ص 260).

174-176 انظر إنجيل لوقا 8/4 «فرد عليه يسوع قائلاً: «كُتِبَ للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» والمسيح هنا يستشهد بآية من سفر التثنية 13/6.

191- تعلق پوپ على عبارة «ملك يميني» في هذا السطر قائلة إن غموضها متعمد، فقد تعني «إنك تقدمها حتى تصبح ملك يميني» أو «إنك تقدم لي ما هو ملك يميني»، وهي تفسر سر الغموض بقولها: إن إبليس لم ينجح في استفزاز المسيح حتى يزعم امتلاكه للعالم كله!

197- انظر الرسالة إلى مؤمني روما 14/8 «فإن جميع الخاضعين لقيادة روح الله، هم أبناء الله».

203- يُدعى إبليس «إله هذا العالم» في الرسالة الثانية إلى مؤمني كورنثوس 4/4.

21- انظر الحاشية علي 1/209-214.

219- «كُرْسِيِّ مُوسَى» : المقصود الكرسي الذي يشرح منه الأساتذة شريعة موسى. انظر إنجيل متى 2/23 «اعتلى الكتبة والفريسيون كُرْسِيَّ مُوسَى».

229-235 يقول شولتز في كتابه المشار إليْهِ آنفًا إن هذا «الإغواء» كله يمكن النظر إليْهِ في سياق كنسي، استنادًا إلى الحجتين اللتين يقدمهما إبليس دفاعًا عن الفلسفة باعتبارها رافدًا من روافد اللاهوت، والأولى أن الفلسفة تضمن القبول الاجتماعي للفرد، وتقيه احتقار الآخرين له، والثانية أن الفلسفة مفيدة في دحض أي بدعة مارقة، ويقول إن هاتين الحجتين كانتا تستخدمان باستمرار من جانب «المحافظين» في غمار الجدل الدائر بين العلم والكهانة في ذلك العصر.

240- المقصود بالعين موطن الذكاء والتنوير.

244- كانت الأكاديمية أولاً ساحة للألعاب، ثم اتسعت رقعتها فأصبحت متنزهًا عامًا، وكانت تبعد أقل من كيلومترين عن أثينا، وإلى الشمال الغربي منها، وغرست فيها أشجار الزيتون. وكان من عادة أفلاطون أن يسير فيها مع تلاميذه ومنها اكتسبت مدرسته الفلسفية اسمها.

245- «البلبل طائر أثينا» : كانت كولونس تقع بالقرب من الأكاديمية، وهي التي مَجَّدَهَا سوفوكليس في مسرحيته أوديبوس في كولونس 671 باعتبارها مأوى البلابل.

247- «هايميتس» : كانت تلك هضبة من التلال تقع في جنوب شرقيِّ أثينا، وكانت سفوحها التي ينمو فيها الزعتر مشهورة بعسل النحل.

249- «إليسوس» : كان نهيرًا ينبع من هضبة هايميتس ويتدفق إلى جنوب المدينة.

253- «ليسيوم» : كان المكان في الأصل حَرَمًا مخصصًا لأپولّو ليسيوس، ثم تحول

إلى متنزه شرقي المدينة. وكان أرسطو وتلاميذه يمشون في جنباته رائحين غادين، ومن ذلك اشْتُقَّ اسمُ مدرستهم؛ أي المشاءون. والرواق (*Stoa*) كان بهو أعمدة مغطى، وكان برحبة المدينة أكثر من رواق، ولكن أحدها كان مزينًا برسوم ملونة ونقوش منوعة من صنع مشاهير الفنانين، ويسمى ذا الرسوم الملونة، وفيه كان زينون، مؤسس المذهب الرواقي (*Stoics*) يعلم تلاميذه.

257- «الإيولية»: كانت جزيرة ليسبوس تنتمي إلى الإيوليين، وكانت أغاني سافو وألكيوس مؤلفة باللهجة الإيولية. وهوراس يتفاخر في أناشيده *14-13/30/3* بأنه أدخل الأغاني الإيولية في إيطاليا. وأما الدورية فلهجة أخرى من اللهجات اليونانية، وهي التي كتب بها پندار أناشيده وترانيمه.

259- «ميليسچينيس»: لم يُشِرْ أي شاعر يوناني أو لاتيني إلى هوميروس بهذا اللقب، ويبدو أن ميلتون اخترعه للإشارة إلى ما قيل، وفق رواية من الروايات، من أن الشاعر ولد بالقرب من نهر ميليس في إيونيا. وكان المعتاد عند القدماء اعتباره مصدرًا للشعر كله. وفي سيرة هوميروس التي تنسب إلى هيرودوت (وقد تكون منحولة) يقال إن كلمة هوميروس تعني بلهجة بلدة «كومي» القديمة «الأعمى».

260- جاء في التراث اليوناني أن أبولُّو كان يحسد هوميروس على شعره.

262- في المأساوات اليونانية كان الحوار يكتب من بحر الأيامبوس وشعر الجوقة من بحور منوعة.

270 «زلزلت»: الخلاف على معنى الزلزلة لا يزال قائمًا، فأهم المعاني يقول إن الكلمة تعني «أُوقِفَ بنَاؤُهَا» في الفترة *339-338* ق. م.، وغيرها يقول بغير ذلك أو ينفيه، وقد فضلت الأخذ بالمعنى الذي يقبله جمهور الشراح.

273- «هبطت من السماء»: كان شيشرون يقول إن سقراط كان أول من أنزل الفلسفة من السماء وأدخلها منازل البشر وأرغمها أن تطرح أسئلة عن الحياة والأخلاق. ولكن

إبليس عندما يتحدث عن ذلك فإنما يعني أكثر مما يعنيه شيشرون ويأمل أن يكون أكثر إغراء للمسيح. وأما المنزل ذو السقف المنخفض فالمقصود به بيت سقراط، وأريستوفانيز في مسرحية السحب يشير إلى منزل سقراط قائلاً إنه بيت صغير.

275-276 يروي أفلاطون أن نبوءة دلفي قالت إن سقراط أحكم البشر.

279- «المشائين» انظر الحاشية على 253 أعلاه.

280- «الأبيقوريين»: عارض أبيقور (341-270 ق. م.) كلا من أفلاطون وأرسطو، بأن أقام مذهبه الأخلاقي لا على المنطق والميتافيزيقا بل على الإحساس؛ أي شهادة الحواس التي كان يعتبرها المحك الوحيد للحقيقة، ومن ثم فإن فلسفته الأخلاقية تعتبرفلسفة اللذة المقيدة أو المشروطة. وقد أصبح الرئيس المبجل والمحبوب لجماعة صغيرة من الرجال والنساء الذين عاشوا حياة المتع البسيطة؛ إذ يشربون الماء ويأكلون خبز الشعير. وأما التهم التي وجهها الرواقيون لهذه الجماعة بأنها كانت منحلة فلم تكن على الأرجح سوى مفتريات مجحفة، وأما الرواقيون فكانوا طائفة من الفلاسفة أو مدرسة فلسفية أنشأها زينون في نهاية القرن الرابع ق. م. وهي التي اتخذت اسمها من الرواق الشمالي في رحبة أثينا. (انظر الحاشية على 253 أعلاه) وكان زينون قد بدأ حياته باعتناق المذهب الكلبي أو الفلسفة الكلبية التي تدعو إلى التمرد على الأعراف الاجتماعية والسخرية من كل شيء، ثم تحول عن ذلك إلى المذهب الخاص به والذي يقول بأن كل شيء وكل إنسان يخضع لقوانين عامة عالمية لا تتحول ولا تتبدل، وأن الحكمة تقضي طلب الفضيلة وحدها من خلال العقل، وبعدم الاكتراث بالعالم الخارجي وبالمشاعر أو حتى بالآلام، وكان من أهم الكتاب الرومان المؤمنين بهذا المذهب سينيكيا وإبيكتيتوس، وكان سينيكا يعتبر أن الجسد مجرد قشرة أو سجن للروح، وأن الروح لا تبدأ حياتها الحقيقية إلا عندما تخرج من السجن. وأما إبيكتيتوس فكان ينصح بنبذ الدنيا في شعاره الذائع «تحمل

واهجر» والمقصود بالهجر هجر مسرات الطبيعة . وربما كان ذلك هو ما يعنيه إبليس بالتشدد .

287-286 لم يسبق أحد إلى إدراج المعرفة في قائمة المُغْويات التي يُختبر بها المسيح، أو يُخْتَبَرُ بها البشر، ولكن ميلتون يوردها للحفاظ على التوازي بين مغويات آدم الأول وآدم الثاني (أي المسيح) وانظر كيف يصور ميلتون تعطش آدم لمعرفة ما لا تلزمه معرفته، وهو ما يحذره الملاك روفائيل منه في الفردوس المفقود 178-66/8، وقد أسهب النقاد في مناقشة ما أسماه البعض «تنكر» ميلتون لإيمانه القديم بالمعرفة، وعزا ذلك بعضهم إلى شيخوخته وخيبة أمله في قدرة العلم على تحسين حال الإنسان، وغير ذلك من المداخل البيوغرافية (انظر المقدمة).

294- المقصود سقراط . وأفلاطون يقول إن سقراط انتهى فعلاً إلى قبول ما قالته النبوءة من أنه أحكم الناس، وذلك لأنه يعرف أنه لا يعرف شيئًا .

295-المقصود أفلاطون الذي يكثر من الاستعانة بالأساطير والخرافات في حواراته .

296- «الفئة الثالثة» المقصود بها أصحاب مذهب الشك، وهو الذي أنشأه پيرو من مدينة إليس في نحو 360-270 ق . م، وكانوا يقولون إنه لما كان من المحال أن يعرف الشيء على حقيقته، ولما كان من الممكن إقامة حجة ضد أي قضية بالمنطق نفسه، فمن الضروري ألا يتسرع المرء في إصدار الأحكام ويبقى على التوازن بين القضايا ونقائضها .

298-297 «غيرهم . . السعادة في الفضيلة . . والثروات وطول العمر» المقصود المشاءون؛ إذ كان أرسطو يقول إن السعادة تنبع من «حركة» النفس وفقًا للفضيلة في حياة «ناضجة» وهو ما يتطلب صحة البدن وبعض لوازم العيش الطيب .

299- «أحدهم» يقصد أبيقور، وهذه نظرة ظالمة .

306-300 يقول بعض الشراح إن ميلتون تأثر في الحجج التي يسوقها ضد الرواقيين

بما قاله شيشرون عنهم ودحضه المستمر لمذهبهم.

308- «مراوغات بارعة»: كان ولا يزال المذهب الرواقي يُتَّهَمُ بالمماحكة واللجاج والحذلقة، وهي الصفات التي كان يتسم بها خريسيبوس - شخصيًا - فأصبحت تطلق على المذهب كله، ولهذا أصبح الناس يُطْلِقُونَ عليهم لقب «الجدليين».

315-314 وهكذا كان شيشرون يقول في كتابه عن **طبيعة الآلهة** (*De Natura Deorum* (*3/ 36*: إن من حق الإنسان أن يعتز بما يتمتع به من حكمة وفضيلة تنبعان من ذاته وليستا مثل الأشياء في العالم الخارجي من عطايا الأرباب: «إن فضيلتنا أمر يبرر امتداح الآخرين عن حق لها، وسبب صحيح لافتخارنا بها، ولا يكون ذلك كذلك لو أن موهبة الفضيلة كانت هبة لنا من أحد الأرباب لا من أنفسنا».

321- «كالسحابة الخاوية»: المعنى المقصود هو أنها لا مطر فيها، ولكن الصورة قائمة على أسطورة السحابة القادرة على الإنجاب، بالإحالة إلى أسطورة يرويها پندار، ويشير إليها ميلتون في آخر بيت من أبيات قصيدته **آلام المسيح**.

322-321 انظر سفر الجامعة *12/12* «إذ لا نهاية لتأليف كتب عديدة والدراسة الكثيرة تجهد الجسد».

330-322 يقول كيرمود في دراسته عن «بطل ميلتون» (*1953*) إن الشاعر ربما تأثر برسائل سينيكا (الرسالة *88*) التي تناقش الاستغراق في الدرس والعلاقة الهزيلة ما بين المعرفة والفضيلة، ومن ثم فإن اعتراض ميلتون له أسس كلاسيكية.

337-336 انظر المزمور *137* «على ضفاف أنهار بابل جلسنا، وبكينا عندما تذكرنا أورشليم... هناك طلب منا الذين سَبَوْنا أن نشدو بترنيمة... قائلين سأنشدوا لنا من ترانيم صهيون».

338- «اليونان استمدت منا هذه الفنون» يقول شولتز (ص *89-90*، *260-261*) في كتابه المذكور: إن يوسفوس قد رصد مسار المعرفة من إبراهيم إلى المصريين ومن

المصريين إلى اليونان. وكان الفيلسوف فيلو السكندري قد عامل موسى باعتباره رمزًا حتى استطاع أن يجد تعاليم أفلاطون في العهد القديم، وكذلك فعل كليمينت السكندري ويوزيبيوس وغيرهم من آباء الكنيسة محاولين تأكيد أن للعلم جذورًا عبرانية، وما إن حل القرن السابع عشر حتى شاعت هذه الفكرة وغدت مقبولة.

344- هذه الصورة ترجع صدى العبارة الواردة في هاملت: «بل إن خد العاهرة/ ذاك الذي يبدو مزينًا بأصباغ المساحيق الكثيرة.» (52-51/1/3).

347- «ذائقة حقة» الأصل (*true taste*) ومعجم أوكسفورد الكبير يرصد استخدام ميلتون للكلمة هنا باعتباره أول مثال لدلالتها على «ملكة إدراك كل ما هو ممتاز في الفن والأدب». ولم يكن الفعل «ذاق» ومشتقاته ينصرف قبل ذلك إلى غير المدارك الحسية (البدنية).

351- أي إن الفكر الوثني لن يعتبر تافهًا إذا نجح في اكتشاف الحقيقة الأخلاقية، مستلهمًا الطبيعة أو هداية الفطرة. وفي الكتاب المقدس تأكيد لهذه الفكرة، في بعض النصوص مثل «إذن الأمم الذين بلا شريعة... يظهرون جوهر الشريعة مكتوبًا في قلوبهم» (الرسالة إلى مؤمني روما 15-14/2).

382-388 يستعرض شولتز في كتابه المذكور (ص 54) معارضة أصحاب المذهب الديني «الصحيح» للتنجيم، مشيرًا إلى أن ادعاء إبليس مزاولة التنجيم تصبغه بصبغة شيطانية، وإن كان التنجيم يمارس على نطاق واسع في إنجلترا إبان القرن السابع عشر، وكان معارضوه يستندون إلى آيات من الكتاب المقدس مثل ما جاء في سفر إرميا 2/10 «لا تتعلموا طريق الأمم، ولا ترتعبوا من آيات السماء التي ترتعب منها الشعوب». وعلى أية حال فإن ميلتون يبدي تحفظًا على منع دراسة النجوم في كتابه عن العقيدة المسيحية قائلاً: «وإن لم تكن كل دراسة للأجرام السماوية

محرمة أو لا نفع فيها، على نحو ما يظهر من رحلة الحكماء الثلاثة، بل ومن النجم نفسه الذي عُيِّن وخُصِّصَ لإعلان مولد المسيح، وانظر إنجيل متى *1/2*».

392-391 إبليس هنا يسخر من هذه «المملكة» مُضْمِرًا أو مُتَمَنِّيًا ألا تبدأ قط!

413-412 «وإذا بالماء والنار/ يتحالفان»: انظر ايسخولوس، أجاممنون *652-650*: «فالنار والبحر، اللذان كانا من ألد الأعداء، أقسما على التحالف، وهو مابرهنا عليه بتدمير الأسطول اليوناني المسكين».

414- «الكهوف» انظر الإنيادة *54-52/1* حيث يقوم رب الرياح، واسمه إيولوس، بحبس «الرياح المتصارعة والأنواء الهادرة» في كهف ضخم شاسع.

423-422 انظر ريتشارد الثالث (*59-58/4/1*): وتخيلتُ بأنّ فريقًا حولي منْ شَرِّ شياطينِ جهنمَ تَعْوِي في أذنيّ بصرخاتٍ بشعةٍ!

449- «صورته المعتادة»: تشير پوپ (ص *50-49*) إلى الغموض في التعبير، فقد يعني بصورته الخاصة؛ أي بأجنحة وأظلاف مشقوقة.. إلخ، دون تنكر، وقد يعني في صورته المعتادة من التنكر، فإذا كان الأخير هو المقصود فلابد أن نعتبر أن الشيخ الذي قابله المسيح في *314/1* هو نفسه (وإن اختلفت الملابس) رجل البلاط الذي «لم يعد يرتدي ملابس ريفية كما سلف» (*300-298/2*). وتفضل پوپ صورة التنكر البشرى المستمرة لإبليس، مشيرة إلى النص على أنه لا يستعين بجناح الهيبوغريف (في السطرين *542-541*) وبذلك تتفق مع معظم الكتاب والرسامين الذين صوروا إبليس في صورة بشرية.

453- «تختلط الأرض بالسماء» - في العبارة صدى الصورة الواردة في الإنيادة *134-133/1*: (*Caelum terremque . . . miscere*)

455- «العُمُد..» انظر سفر أيوب *11/26* «ترتعش أعمدة السماء وترتعد».

483-464 لاحظ تأكيد إبليس للنذر هنا وفي غير هذا الموقع (مثلاً *153-152/3*،

و393/380/4) وحرصه على استبعاد صلته بالعاصفة (454-452/4) وتفسيره إياها كأنما كانت موجهة للمسيح دون غيره (466-465).
ويستند أحد الباحثين إلى ذلك كله للقول بأن مشهد العاصفة ليس مجرد استعراض للعنف الذي أدى إلى الضيق والغضب بل بأنه يعتبر عنصرًا جوهريًا من عناصر الإغواء/ الاختبار الثاني، بمعنى أنه يغوي المسيح بأن يعتبر العاصفة نذيرًا أو آية من عند الله تدعوه إلى تولي السلطة «تحت رعاية» إبليس. ويشير هذا الباحث إلى الاهتمام الشديد بالنذر في نحو عام 1666 ويقول إن ميلتون قد يكون قد تأثر به. وعلى الرغم من أن السطور 366-365/4 و 443-446 تدحض فيما يبدو هذه «النظرية» فإن الباحث يقول إنها لا تزيد عن كونها أمثلة لدأب ميلتون على وصف إبليس، في أحداث متتالية، لتصوير حيرته بسبب فشل كل حيلة يحتال بها (انظر مثلاً 119/2-120، 4-2/3، 148-145، 6-1/4).

467- «ألم أقل لك» يبدأ ميلتون الجملة باستفهام ثم يبنيها في صورة جملة مثبتة.

518- انظر سفر أيوب 6/1 «وحدث ذات يوم أن مَثَلَ بنو الله أمام الرب، فاندس الشيطان في وسطهم».

520- «جميع البشر أبناء الله» انظر إنجيل متى «فَصَلُّوا أنتم مثل هذه الصلاة: أبانا الذي في السماوات..».

534- المقصود بالمحور الثابت المحور الذي يدور حوله أي شيء.

540-538 توحي كلمات إبليس بأن ما يحدث على القمة يهدف إلى الكشف عن هوية المسيح، لا إلى إغوائه بالتفاخر أو التبجح (انظر الحاشية على 30-25/3). وتثبت پوپ أن تصوير ميلتون لهذا «الحدث» يمثل أنصع نموذج لاختلافه مع تراث التفسير (ص 80-107).

542- «الهيبوغريف» كائن خرافي نصفه طائر ونصفه الآخر حصان. ويكثر أريوسطو

من الإشارة إليْهِ في غضبة أورلاندو. وانظر الحاشية على السطر 449. أعلاه.

545- يشير الشراح إلى ما ذكره قدامي المؤرخين من تميز أورشليم بالأبراج.

548- «المرمري... قمم مستدقة ذهبية» يستند ميلتون إلى رواية المؤرخ يوسفوس.

549- «أعلى حافة سطح في الهيكل» تعرضت طبيعة «حافةالسطح» المذكورة (وهي الواردة في إنجيل متى 5/4 وإنجيل لوقا 9/4) لمناقشات ومجادلات كثيرة، تشرحها پوپ في كتابها (ص 85 - 89). وذكر بعض المفسرين مثل ديوداتي، أنها كانت سطحًا مستويًا، وأنه كان من اليسير إذن على المسيح أن يقف عليه أو يلقي بنفسه من حالق، ومن ثم يقول إن الإغواء/ الاختبار كان اختبارًا للميل إلى التفاخر أو التبجح. وقال البعض إنه «درابزين»، أو «جمالون» أو قمة مدببة. وأما الذين قالوا بأنه قمة مدببة فقال بعضهم إن قدرة المسيح على الوقوف على مثل هذه القمة كانت دليلًا على قواه الخارقة، ويقول الآخرون إن إبليس ربما سانده بيده ليمنع وقوعه، وربما كانت على السطح مساحة كافية لوقوف شخص عليها، وكثيرًا ما يضيف هؤلاء أنه كان بإمكان المسيح أن ينزل ويخرج على السُّلَّم. ويعارض كيري هذه الأقوال مؤكدًا أن «الحافة» المذكورة لم تكن تتيح لأي شخصٍ أن يقف بثبات، وأن إبليس لم يسند المسيح، بل كان يتوقع منه أن يسقط (السطر 571) ويتحدى قدرته على الوقوف «بنبرة احتقار» (السطر 550). ورأي ميلتون يتفق مع رأي المفسر بيلسون وهو أن الحافة كانت «مكانًا قلقًا» (السطر 584) وأن الوقوف لم يكن معجزة بل دليلًا على نجاح المسيح في التوازن واقفًا، وهو عسير شاق.

555- «ألق بنفسك إلى أسفل»: في الكتاب المقدس (إنجيل لوقا 11/9/4) يقصد بذلك عرض الخيارين على المسيح، وهو ما يجعل الإغواء/ الاختبار إغواء بالتفاخر والتبجح، وأما في ميلتون فالواضح أن إبليس يرى أن المسيح لا خيار

له، ويتوقع سقوطه، ويدهش عندما يراه واقفًا (السطرين 562 و571).

559-556 «سوف يصدر أمره... بحجر» يرى نورثروب فراي أن استشهاد إبليس بهذه الكلمات من المزمور 91/11-2 يتضمن تورية ساخرة؛ إذ إن الآية التالية تقول: ستطأ على الأسد والأفعى، تدوس الشبل والثعبان» (13) وإبليس هو الثعبان الذي سوف يطؤه المسيح. ولكن التورية الساخرة قائمة في مصدر ميلتون؛ أي إنجيل لوقا 4/10/11 حيث يستشهد إبليس بالعبارة نفسها.

561-560 «وقد كتب أيضًا...»انظر إنجيل لوقا 4/12 «فرد عليه يسوع قائلاً: قد قيل لا تجرب الرب إلهك» وهنا يشير يسوع إلى الآية الواردة في سفر التثنية 6/16 «لا تمتحنوا صبر إلهكم». وقد أثيرت مناقشات ومجادلات طويلة حول المقصود بهذا: هل يقصد يسوع أن يقول إنه لا ينبغي أن «يختبر» حب الله بأن يلقى بنفسه حتى تحمله الملائكة، أم يقصد أن يقول لإبليس لا «تمتحن صبري» فقد نفد صبري معك؟ وهي مجادلة فقهية تخرج بنا عن السياق الشعري المحض.

563 - 568 كان أنتيوس من العماليق، وابنًا لربة الأرض «چي»، وقد حارب هرقل (الذي يسمى «أَلْكِيدِيسْ» نسبة إلى جده أَلْكِيُوسْ، كما كان أبوه چوف). وكان أنتيوس يستمد القوة من أمه الأرض كلما وقع في صراعه مع هرقل، ولذلك اضطر هرقل إلى حمله إلى الهواء وخنقه. وكان الأدباء والفنانون في عصر النهضة كثيرًا ما يعتبرون تلك الواقعة رمزًا لانتصار الروح على الجسد، وكان هرقل رمزًا شائعًا للمسيح (انظر أنشودة ميلاد المسيح لميلتون 227-228).

564-563 «إن شبهت الأصغر بالأكبر» يجد النقاد هنا صدى لإحدى عبارات فيرجيل.

564 يقول أحد الباحثين إنه من المحتمل أن ميلتون وجد الإشارة إلى أن أنتيوس مقرونة ببلدة إيراسا الليبية في إحدى أناشيد پندار ويضيف إن تكديس الصفات

«الربانية» على أريستيوس في تلك الأنشودة هو الذي أوحى لميلتون بتعبير الصفات التي بولغ في صوغها وحشدها (343/4).

575-572 ألقى الوحش (الذي يشبه أبا الهول) بنفسه من مبنى الأكروپوليس في طيبة إلى النهر - وهو نهر إيسمينوس - عندما جاء أوديب بالإجابة الصحيحة وهي «الإنسان» على اللغز الذي كان قد طرحه وهو: «ما المخلوق الذي يمشي أولاً على أربع، ثم على اثنتين وأخيرًا على ثلاثة أرجل؟».

589- «أطعمة الجنة»: كلمة (*ambrosial*) تعني سماوية أو فردوسية، وقد ورد أول استخدام لها في كوموس (لميلتون أيضًا) بهذا المعنى، ولما كان الشاعر قد نص على أنها سماوية في السطر السابق (*celestial*) لم يبق إلا النص على أنها من أطعمة الجنة. وأما شجرة الحياة فيقول الباحثون إنها ترمز لعدة أشياء، أولها: أنها جزاء الطاعة، وثانيها: أنها رمز الحياة الأبدية، وثالثها: أنها من أشجار الفردوس، وما دام المسيح يتناول ثمرها فقد نجح في استعادة الفردوس الذي فقده آدم.

598-597 انظر إنجيل يوحنا 9/1، 18، و«من النور نورًا» تعبير يعني «تستمد النور من الله، الذي هو النور».

611- انظر المزمور 7/124 «انكسر الفخ ونجونا».

619- «نجم الخريف» أحد الأسماء التي تطلق على نجم الشِّعْرَى، ولكن كيري يقول إن ميلتون يقصد، فيما يبدو، مذنبا أو نيزكًا (انظر الفردوس المفقود 2/708-711).

621-620 انظر إنجيل لوقا 18/10 «فقال لهم: قد رأيت الشيطان وهو يهوي من السماء مثل البرق» وسفر ملاخي 3/4 «وتطأون الأشرار... تحت بطون أقدامكم»..

622- «آخر جروحك وأشدها فتكًا» انظر سفر الرؤيا 10/20 «ثم يطرح إبليس الذي كان يضللهم، في بحيرة النار والكبريت، حيث الوحش والنبي الدَّجَّال.



هناك سوف يعذبون نهارًا وليلاً ، إلى أبد الآبدين» .

624- «أَبَدُّونُ» انظر سفر الرؤيا 11/9 «أما ملكه فهو ملاك الهاوية» واسمه بالعبرية «أَبَدُّونُ» ، وباليونانية «أَبُولِّيُونُ» . » ولكن أَبَدُّونَ تستخدم في سفر أيوب بمعنى الجحيم (6/26) .

630- في إنجيل متى 8/28-32 يقابل المسيح شخصين «تسكنهما الشياطين» وفجأة يصرخان قائلين : «أجئت إلى هنا قبل الأوان لتعذبنا؟» وكان بالقرب منهم قطيع من الخنازير ، فقالت الشياطين ليسوع : «إن كنت ستطردنا فأرسلنا إلى قطيع الخنازير . ففعل المسيح ذلك ، فاندفع القطيع مسرعًا من على حافة الجبل إلى البحيرة ومات فيها غرقًا» .

636- انظر إنجيل متى 11/29 «إني وديع ومتواضع القلب» .



قائمة المراجع الأجنبية

وتقتصر على عناوين الكتب وأسماء المؤلفين المشار إليها في المقدمة والحواشي، مع استعمال الاختصارات الشائعة للدوريات العلمية العالمية وهي:

ELH	*A Journal of English Literary History*
E& S	*Essays and Studies by Members of the English Association*
JWI	*Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*
N & Q	*Notes and Queries*
RES	*Review of English Studies*
SP	*Studies in Philology*
UT Q	*University of Toronto Quarterly*
UTSE	*University of Texas Studies in English*

Allen, Don Cameron. The Harmonious Vision: Studies in Milton's Poetry. Baltimore, Md. 1995.

Bensley, E. N & Q clvii, 1929, 177-178.

Carey, John & Alastair Fowler, eds., The Poems of John Milton, 1968.

Cox, L. S. ELH, xxviii, 1961, 225-243.

Daniells, Roy. Milton, Mannerism and Baroque, Toronto, 1963, 194-208.

Darbishire, Helen, ed. The Early Lives of Milton, 1932.

Donne, J. Sermons ed. E. M. Simpson and G. R. Potter, Berkeley, 1958.

Fixler, M. Milton and the Kingdoms of God. 1964.

Frye, Northrop. 'The Typology of Paradise Regained', SP liii, 1956. Hughes, Merritt Y. 'The Christ of Paradise Regained and the Renaissance Poetic Tradition', SP xxxv, 1938. Hughes, Merritt Y., ed. John Milton: Complete Poems and Major Prose. New York 1957. Jones, C. W. SP, xliv, 1997, 209-227. Kelley, M., SP xxxii, 1935, 221-234. Kermode, Frank. شMilton>s Heroص, RES, iv, 1953. Kermode, F. ed. The Living Milton. 1960. Kurth, B. O. Milton and Christian Heroism (Berkeley 1959). Lewalski, B. K. Milton>s Brief Epic. Providence, R. I. 1966. Martz, Louis, The Paradise Within, New Haven, 1964, 171-211. Menzies, W. E. & S. xxx, 1948 (80-113). Mahood, M. M. Poetry and Humanism, 1950 (225-237). Orange, L. E. Southern Quarterly ii, 1964, 190-201. Petit, H. H., Papers of the Michigan Academy, xliv, 1958, 365-369. Pope, E. M. 'Paradise Regained:, The Tradition and the poem. Baltimore, 1947. Ricks, Christopher. Milton's Grand Style, 1962. Robins, Harry F. If This Be Heresy: A Study of Milton and Origen. Illinois Studies in English Language and Literature, No. li. Urbana, Ill. 1963. Sackton, A. H. UTSE, xxxiii 1954, 33-45. Samuel, Irene. Plato and Milton. Ithaca, N. Y. 1947. Schultz, Howard. Milton and Forbidden Knowledge, New York, 1955. Steadman, John M. 'Heroic Virtue and the Divine Image in Paradise Lostص, JWI xxii, 1959. Stein, Arnold, ELH xxiii, 1956, 117-121. Stein, Arnold. Heroic Knowledge. Minneapolis, Minn. 1957. Taylor, Dick, Tulane Studies in English, iv, 1954, (57-90). Tillyard, E. M. W. Milton, 1930. Wilkes, G. A., English Studies xliv, 1963, 35-38. Withycombe, E. G. The Oxford Dictionary of English Christian Names, 3rd. ed., 1977. Woodhouse, A. S. UTQ xxv (1956) 167-182.